

من

خلف الخطوط

عمار الزين

دار البشير
للثقافة والعلوم



اســـم الكتـــــاب: **من خلف الخطوط**

التـــأليـــــــــــف: **عمار الزين**

موضوع الكتـــاب: **رواية**

عـــدد الصفحـــات : **320**

عـــدد المـــــــلازم : **20**

مقاس الكتـــــاب : **14 × 20**

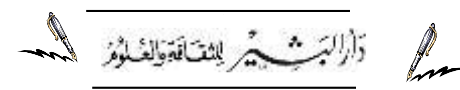
عـــدد الطبعـــات : **الطبعة الأولي**

الإيداع القانونـــي : **2014/2839**

الترقيم الدولـــي : **I.S.B.N.978/977/278/418/8**

الصــف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

التوزيــع والنشــر



مصر

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت : **01152806533 – 01012355714**

1436 هـ

2015 م

ماذا يعني أن تكتب أدبًا أو قصصًا، أو سَمِّه ما شئت ولا زالَ الأسرُ مستمرًا؟!...

سؤالٌ لطالما اقتحم مقدمة صفحاتي البيضاء، فكل ما قرأ المرءُ من حكايات جميلة يحمل بعضُها رائحة السجون! تكون في غالبها فعلًا ماضيًا من حيث الزمان والمكان خطها أصحابُها بعد أن تطهرت أجسادهم قبل أقلامهم من جدران الزنازين وراحوا يستعيدونها من وحي الذاكرة، لا أعيبُ ذلك مطلقًا وإن كنت أراها قد فقدت شيئًا من ثوريتها أو عذريتها، أو لعلي أنقم وأنا لا أدري على صناعةٍ تُحكى في الهواء دون أن تدوسَ البساطيرُ على رأس كاتبها، فللكلمات نشوةٌ يشعرها الهاربُ بها عندما تلاحقها أصابع السجان وهي تعبث بين الأوراق تبحث عن أحرف الثورة، ولا خير في صانع كلماتٍ لا ينتحبُ عليها وهو يشهدُ اغتصابها في حملات التفتيش!.

ـ أعرف أنك تسألُني اللحظة عن علاقة ذلك بقصتنا وكيف أقحمتُ فلسفة الثورة لدى الكلمات؟! وكأنك تستعجل الأسطر حتى تحتضن الحكاية!!. لا أُخفيك سرًا، أن ثمة روحٍ تصحب قلمي وهو يسير باتجاه البداية، وكأنَّ ملائكة الكلمات تقودني إلى حيثُ وُلدت ثورةُ صاحبك!. ولأني شيَّعتُ عَبَث الكلمات إلى حتفها الأبدي، كان لا بد أن تتنفس حكايتك أدبَ الزنزانة ورائحة النعلِ عندما ينطبع على الوجه بعد هجوم آخر الليل في يوم العيد! وحتى تنال نقطةُ البداية حقها كما أرادها فارسُ الواقعة.

ـ ألم تقل لي أن فارسك حسن قد شرّف الأسر مدة عام تلميذًا في مدرسة الزنازين؟! فقد قرأت في صحائف القدر المنقضي كلمات قالها مع غروب ذات يوم وهو يجلس على البرش العلوي في إحدى زنزانات عزل سجن السبع: النافذة محكمة الإغلاق إلا من فتحات معقولة لاستراق النظر بشئ من الحرية نحو الجنون، حيث امتدادٌ بصري يوصلك إلى مجموعة بيوت بدوية ينتصفها مسجدٌ يُبكينا كل صباح دون دموع، البارحة! خاطبتُ كُرةً كانت تتقاذفها أرجلُ الفتية في الساحة المقابلة للخيمة الكبيرة، فلم تُجب لأنني افترضتها دون أن أراها والفتية يتراكضون كما كنا نفعل في حيّنا ونحن أشباه صغار فعندنا لا يولدُ الأطفالُ صغارًا!، قلتُ لها: أتدرين من يسكنُ إلى جوار أقدام قُذافك؟! لم تُجبني ويحها فانتقلت إلى طلٍ كان السائلُ الأصفرُ يهاجم شفته العليا دون أن يكترث، حَسَدتُه يومها! كيف يستمتع بحرية أنفه دون أن يحاسبه أحد؟! فتراجعت عن لفت نظره إلينا كيلا تعبث جديتنا بثورة منهارة، فشاهدني ساكنٌ من زنزانتي أبتسم: ليتني أستطيع قراءتك؟!. فمددت له يدي حتى يصعد إلى جواري وينظر إلى عالم الأحياء هناك!. حملق من الفتحات وهو يقول: لا أرى شيئًا سوى البيوت البعيدة وأولادًا بالكاد نراهم يتحركون!.

ـ هززت رأسي، كيف له أن يقول ذلك؟!. ذات مرة ونحن في سجن عسقلان سكنت على نافذة غرفتنا حمامةٌ بريّة، فباضت ورقدت على بيضها وتفجرت الحياة في صغارها ثم عاودت الكرة مرةً أُخرى، فغرتُ ورب الكعبة دون أن أحسدها،

- فتزولُ نعمةُ حريتها وامتلاكها خيار الحياة، وهذا المسكين تبلّدت الحريةُ لديه وتقوقعت داخل زنزانته فعجز عن امتلاك أبجدية الحرية أو لعله كابرَ يخفي ما لا يقدرُ محرومٌ عن أفكاره!. أغلقت صفحةُ القدر المنقضي لوحة صاحبنا. أعرفتَ الآن أين بدأت حكاية فارسك حسن قبل أن يلتقيك في قبرص؟!.

- أراك رحلت عن مجلسنا دون أن تغادر؟!.

- ليس بالضبط! إنما حديث البدايات وترابط مركباتها. يدفعك لطرح سؤالٍ غريب: من يصنع مَن، الواقع يصنعنا أم نحن نصنعه؟!. قديمًا قرأتُ على أسطرك كلمات تقول فيها: إن المقاومة تولدُ بالفطرة لدينا، نرضعها من أثداء أمهاتنا المرتعدة، لكني لم أرَ أثر الحليب على شفاه الكثيرين من أبناء قومنا!.

- لماذا توقفت؟! أكمل ترجمة شرودك الفلسفي.

- أحيانًا، نُسهبُ في التفكير والتحليل وقد أعفتنا الحكايات من ذلك، فلماذا أُتعب أسطرك بفلسفة لم يفكر بها حسنُ وإخوانه؟!.

- إذًا! سجّل حكايتك على عجل، فربما تجد في ذلك أجوبة قد فاتتك، ألم تقل لي أنها بدأت في قبرص؟!.

* * * *

ـ عدت جوًّا إلى فماغوستا، مدينة الأشباح، هكذا يطلقون عليها بالإنجليزية حيث تقع داخل قلعة حصينة تظل على البحر الأبيض المتوسط، ولأنها في قبرص التركية فإنك تعيش على جزيرة محاطة بالماء، لكنّ الذي يعزي ذوقنا الفلسطيني الخاص أن فماغوستا مليئةٌ ببيارات الحمضيات ولعل تضاريسها الداخلية تذكرك بأريحا وقلقيلية، صحيح أن شاطئها الممتد دون نهايةٍ بين جميع الأطراف، يجعلك شاعرًا في أحيان وأديبًا في أحيانٍ أُخرى، لكنك عندما تكون بعيدًا عن القدس لا تشعر أنك حيًّا بين الأحياء!!.

ـ قيل في الأثر قديمًا اطلبوا العلم ولو في الصين، لكنني طلبته في كلية الهندسة الكهربائية قبل أربعة أعوام في جزيرة قبرص هكذا أرضيتُ جميع الأطراف، أمي التي كانت تراني جامعيًا وشقيقي الأكبر الذي كدَّ مكان والدي رحمه الله- حيث نجح بذكاءٍ وتنسيق عائلي إلى نفيي طوعًا وبدهاء عن مقارعة الجنود في شوارع القدس وساحات المسجد الأقصى، آهٍ، أتُرى يشعر قارئُ هذه الآه بعمقها؟! فالناس يبكون الأقصى من وراء الحدود لكنني أنا الحدود التي تسكن ما بين المحراب هناك، حيث منبر صلاح الدين وما بين خطوات النبي الأعظم!، فأهلونا الطيبون، يسكنون الأم إلى حين، لكن وجع القدس يصحبك أينما ذهبت، فكلما شاهدتَ السماء رأيتَ البراق ينظر إليك معاتبا يطلب حقه من رقبتك، فساحته قد اغتصبوها حائطًا لبكائهم! وكلما اقتحمت أذنيك أحرف الخطّاب عمر ارتعدت روحك، فكل شئ يذكرك بها، كالمفتون في جملة يراها في ابتسامة الأزهار وقت انتفاضتها على أعتاب أنوف العذارى الفاتنات.

ـ كان بيتنا في فماغوستا محج الطلاب المقدسيين وخاصة أولئك الذين يقدمون حديثًا إلى الدراسة في جامعة المدينة، حيث يقع البيت في تقاطع طرق يعبره الطلاب يوميًا، ولمّا دخلت البيت يومها عائدًا من القدس، وجدت مجوعة من الطلبة تزورنا طلبًا للأنس والمساندة حيث تكرر المشهد أمامي مرات كثيرة، وقد ترك أحدهم وقعًا بحضوره المميز، منفردًا عن أقرانه بملامح رجولة لا تخطئ وسط شبه ميوعة تركتها تصرفات زملائه.

ـ كان قوي البنية، تهذّبُ وجهه لحيةٌ خفيفة، ارتسمت تشكل لوحة متناسقة مع عينيه العسليتين، تقدَّمَ إليَّ مبتسمًا وهو يصافحني، فسألته: هل كنت تتوقعني على هيئة أُخرى؟!. لعلك تفاجأتَ أني حليق اللحية؟!.

ـ لا. لا فلعلك أزهري العِلم، تعتبرها هيئة وليس فرضًا، وهذا من حقك، كما أن الشاربَ من أقارب اللحية.

ـ ضحكتُ لدماثة خُلُقه، وأيقنت أنه يعرفني مسبقًا: أهلًا وسهلًا بك في بيتك، أرجو أن لا يحسدنا الآخرون، فقد جمعتنا معًا أصولنا المقدسية والخليلية.

ـ ذكرتني في تعبير أضحكني عندما قرأته في كتاب المؤرخ عن تاريخ القدس، حيث يصفنا بالاستيطان الخليلي للمدينة!.

ـ ماذا تقول! أكيد أن هذا الرجل مجنون.

ـ أبدًا، فالكتاب قديم جداً وأظنه قبل الاحتلال الصهيوني للمدينة، وأعتقد بأنه تعامل مع العبارة من ناحيتها اللغوية فقط.

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، فنِعمَ المستوطنون نحن، وإن كنت لا أستسيغ هذه الكلمة، على كل حال، دعنا من سيرة ذلك وقل لي ماذا تشرب؟!.

ـ لن أتعبك معي، ارتَح من السفر الآن، وأظنك ستطردني مستقبلًا لأنك ستراني كثيرًا.

ـ في الأيام التي تلت ذلك، قويت علاقتنا لأجد فيه رائحة القدس الحقيقية، يذكرك بالبائع العجوز الذي يرتصف حافة الطريق في باب العامود وعلى فرش خشبي يبيع الكعك المغطى بالسمسم، إلى جانبه لفافات صغيرة من الزعتر المطحون حيث لا يطيب الكعك المقدسي الخارج لتوه من الفرن إلا بالزعتر المرشوش داخله، فمهما كانت لذة الطعام التركي الشهير وطيبة الأمهات اللائي يشبهن أمهاتنا، إلاّ أن رائحة الفلافل في طريق الوادي تجتاح المتوسط وصولًا إلى أنوفنا، فكل الأشياء جميلة في القدس، يذكرني ريحه بما يفوتني في زياراتي القصيرة للعائلة، ويختار بوابات يفتقدها المرءُ في الغربة تمامًا كبوابات القدس العتيقة، ولأنه من روادها الدائمين كان يذكرني بالشجرة! تلك الحاضنة التي ربما جمعتني به يومًا دون أن يعرف بعضنا الآخر.

ـ شجرة تنتصبُ شامخةً ما بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى، نلوذُ إليها بعد كل صلاة، حتى أن أحدهم قال مازحًا ذات يوم: لن تغلَبَ مخابرات العدو في الوصول إلينا وليس عليها سوى رصد المستظلين بحمى الشجرة.

-

ـ كنا في نهاية العام ثلاثة وتسعين من القرن العشرين، والانتفاضة الأولى تدخل في الإنعاش بعد أن عصفت بثورتها داهية أوسلو، ذاك الاتفاق الذي وصلت ارتداداته إلينا في فماغوستا، يسألني حسن: أتُرى سيحاسبُنا التاريخُ أننا قد تركنا أهلنا وانتفاضتهم بحثًا عن مشاريعنا الشخصية في الوقت الذي يبتلع مستقبلهم اتفاقٌ هزيل؟!.

ـ فأرد عليه بكلمات لم تقنعني من قبل:

ـ ـ لكنك تعلم أننا سنعود حتى نخدم أهلنا ومقاومتهم، وان إخواننا يقومون بالواجب!.

ـ كنت أقنع نفسي بذلك، لكن الشوق لمقارعة الغاصب كان يُكذِّب ذرائعي، حتى مسيرة الاحتجاج التي نظمناها في الجامعة ضد الاتفاق لم تشفع لثائرة الضمير الذي كان يبكيني كلما سمعت خبر شهيد في بلدي.

ـ وفي ذات يوم عثرت على حسن هائمًا في ميناء المدينة، يحكي حالة مأساة قد حدثت: ماذا بِكَ يا رجل؟! لقد أفزعني زملاؤك في الكلية، هل حدث معك شئ؟!. كانت جحافل الغضب ترسم خطوط سيرها على وجهه، لكن عينيه تحكيان قصةً تدعو المرءَ للبكاء عنهما: ألم أقل لكَ سابقًا إنني ربما سأدفع ثمن تركي للقدس؟! ها أنا أدفعه غاليًا وبأغلى الأثمان.

ـ تمهل قليلًا واخبرني الذي حدث، لقد أقلقتني!.

- نظر إليّ حينها والحسرةُ تأكله: لقد تعاهدنا في الأسر، أن نجاهدَ معًا، فإن تمكن أحدُنا من الالتحاق بالمجاهدين سارع لضم الآخر معه، لكنه فعلها دون أن يخبرني! – احتد وهو يطلق كلماته الأخيرة: اهدأ يا رجل، لعلَّ عائقًا منعه من ذلك، ثم كيف تحكم عليه دون أن تراه وتسمع حُجته؟!. – حينها فقط ذرفت عيناه دمعًا حقيقيًا تحس حرارته بروحك، ثم قال كلمات تقاطعت مع شهقات تخرج من خلجات صدره: لقد اغتالوه اليوم على حدود قطاع غزة!!.

- لم أدرِ حينها على ماذا أبكي، لكنني بكيت، ربما على نفسي، أو ربما على الشهيد إسلام أبو أرميلة، لكن المؤكد أن دموعًا هطلت كانت تعتز برجل يعيد للرجولة معناها الحقيقي كان اسمه حسن.

- وبعد لحظات من الصمت الذي تغلفه الحسرة الظاهرة على محيّاه، أخذت الكلمات تخرج من عمق وجعه وهو ينظر إلى السفن التي تعبر الميناء: كلما سألته عن العمل العسكري، كان يصرفني عن ذلك بذرائع متعددة، وكأنه أرادني أن أعيش بين الكتب بينما يتلقى جسده الرصاص، أو لعله أشفق لحال زوجتي التي غادرتها في المرة الأولى عندما كنا معًا في الأسر ولا يريدها أن تصبح أرملة شهيد!.

- كنت أكبُر حسن بعدة سنوات لكنه يكبرني بفنون تختصر المسافات الزمنية، لقد أحضر معه إلى أعتاب أوروبا عزائم قد فترت لدينا في قاعات المحاضرات، وقد هزئت باحتجاجاتنا الخجلى في يوم الأرض والانتفاضة وغيرهما، لم أدرِ وقتها لمن العزاء؟! لشخصٍ فاته أن تمزقه الرصاصات فداءً لبلده، أم لباحث عن درجة علمية يقرأ أخبار بلده على صفحات الجرائد الأجنبية ويذرف بعض الدموع على شاشة التلفاز التركي وهي تغطي أحداث الموت في فلسطين!.

- سألني حسن: هل ترى معنى لوجودنا هنا؟!.

- بالقدر الذي يمكننا من الانتصار على الجهل بالمعرفة! – حاول حسن أن يسترسل بحديثه الاحتجاجي فأكملت: أتدري يا صديقي، أحيانًا تُحركنا في خياراتنا أسباب لا نصنعها بأيدينا بل تحاصرنا فنخضع لها، خذ مثلًا لذلك، يعتقلني المحتلُ للمرة الأولى عام اثنين وثمانين مدة يومين عندما كنت في الخامسة عشر من العمر فتستنفر العائلة، حيث كنت مع صديقي نهاجم الشاحنات التي تنقل الدبابات المتجهة نحو جنوب لبنان بالحجارة، وأظنُ أن العائلة كانت تود لو استطاعت أن تحجزني في البيت فلا أخرج لكنها لم تقدر، وبعد ثلاثة أعوام أثناء تأديتي لامتحانات التوجيهي، شاركت في يوم النفير الذي اشترك فيه العلماء وطلبةُ الجامعات للدفاع عن المسجد الأقصى، فقد تصدينا لمحاولة الصهاينة اقتحام الحرم، وشاءت الأقدار أن أقع أسيرًا وبيدي كتب الإنجليزي التي كنت أتجهز منها للامتحان.

- وكم مكثت في السجن؟!.

- اثنى عشر يومًا!.

- وهل أعدت التوجيهي بأكمله؟!. أكيد أنهم قاموا بترسيبك.

- هذا ما راهن عليه ضابطُ التحقيق عندما تحداني بقوله: لقد ضاع مستقبلُك وذهبت عليك امتحانات التوجيهي ولا أظننا سنسمح لكَ بإكمال دراستُك أيها المخرب الصغير أنك ستكونُ ضيفًا دائمًا عندنا ما دمت تتزعم الثورة.

- أتدري يا جهاد، تذكرني بالتحدي الذي ألنته مع نفسي وأنا في الأسر أن أعود للدراسة بعد تحرري وأكمل التوجيهي وهذا ما حدث، ولكن ما الذي جرى معك بعد ذلك؟!.

- في اللحظة التي كان فيها المحقق يطلق شماتته وتحديه، كانت خطوط الدفاع الخلفية تتحرك دون أوامر، حيث توجه شقيقي التوأم - نضال- إلى قاعة الامتحانات وقدّم عني ولولا حاجته لبعض الأصدقاء الذي شكلوا شبكة لمساعدته لما عرفه أحد.

- استطعت لحظتها أن انتزع ضحكة من حسن رغمًا عني، لكنني لم أنته بذلك: ظل الأهل يطاردونني بخوفهم عليّ، ويصطنعون الظروف لإخراجي من فلسطين تحت شعار الدراسة، لكنني استطعت تأجيل ذلك عدة سنوات، حتى إذا ما انفجرت انتفاضة الحجارة بصفوفها، أنزلت العائلة أشرعة حملتهم، فخضعت وجئت إلى قبرص لأكتشف بعد فترة من الزمن أنني أحمل في رأسي عبارة لا تكاد تفارقني مطلقًا!.

ـ كان حسن يسمع باهتمام إلى تشابه الموقف بيننا وهو ابن العائلة الميسورة التي رُزقت بولد يجلس على حافة قبر يطلب الموت فلا يجده، حيث انتظر العبارة: لقد ضاع مستقبلُك!!.

ـ ابتسم حسن للمرة الثانية: شككتُ في ذلك!.

ـ لهذا أتشرف بصحبتك أيها اللبيب، فلقد عقدتُ العزم أن أصنع المستقبل الذي راهن المجرم على ضياعه ولو بالمعيار الذي يفهمه بعقله المادي ولذلك أثور على قانون التجهيل الذي ينتهجه العدو بحقنا.

ـ وهنا اقترب مني حسن مخفضًا صوته وكأن أحدًا يسترق السمع: بالله عليك، أتعادلُ كلُ شهادات الدنيا، صنيعًا كالذي فعله ساهر التمّام قبل عدة أشهر عندما اقتحم بسيارته المفخخة تجمعًا لجنود الاحتلال قرب بيسان، ليكون أول فاتح لهؤلاء الاستشهاديين؟!.

ـ لقد غلبتني في هذه ولكن لا تنس أنَّ صانع المنفجرة مهندسٌ كهربائي!.

* * * *

في قبرص! كأي بلد خارج رقعة المواجهات مع الخوف، تنام حتى تستيقظ دون أن يلاحقك سيناريو الخطف من المنزل، تلك نعمةٌ تعثر عليها في أول يوم تعيشه خارج فلسطين، لتكتشف أن حياةً هناك تدب على الأرض بدون صراخ الجنود وهم يقتحمون عليك كل الحُرُمات، يقتادون جسدك من تحت فراشٍ ظننت للحظة أنه سيقي إنسانيتك منهم، تلك حقيقة تلمسها واقعًا قبل أن تعتاد عليها فتبدأ البحث مجددًا عن السياق الطبيعي للأشياء، فأن تكون من مخيم شعفاط أو بيت حنينا ستتهم عذرية بيتك إن لم يقتحمه الجنود فتحظى بشهادة منذ الصغر، وأيُّ فلسطيني هذا الذي ترضى مروءته بلادة الشعور بالخوف؟!، فالخوف يولد عندنا كي يلازم ثورتنا، .. فأن لا تخاف يعني أن لا تكون إنسانًا، وما دون الإنسان لا يصنع الانتصار، لكننا نخاف من واقع إنسانيتنا غير أننا لسنا جبناء!!.

في الغربة الطوعية نصنع ثورات من خيال تشغلنا في أوقات الفراغ، نمقت أنفسنا أحيانًا، نتهمها بالأنانية المفرطة، يسائلنا الضمير بعنف: لماذا رفض صاحبك مغادرة الوطن وغادرت؟!. أتدري الآن أنه مع عماد؟!.

- وأنت! أنت أين أنت الآن؟! فنسأله: من هذا الذي أسميته عماد؟! فيرد علينا بصراخ ضجت به أرجاء برلمان عدونا – الكنيست- أطلقه كبير حربهم رابين عندما سُئل عن عماد: ماذا تريدون مني أن أفعل في شخص يريد أن يموت؟!.

ـ إنه عماد! خوفٌ تحول إلى ثورةٍ تقود عشاق الأرض إلى النصر. كانت صورته وهو يعتلي ظهر الجيب العسكري، بعد القضاء على جنوده معلقةً في غرف النوم، وأحدُنا قد ألصقها على المرآة يخاطبها كلما نظر إلى وجهه: يا عمادُ عقل! خذنا إليك تنفض عنا غبار الكلمات واصنع من خوفنا عزائم تعسكر في الطرقات، تتنفس عَبَق البارود وترنم بكاء الجنود سيمفونية يرددها أطفالُ الشهداء.

* * * *

- ومضى شهرٌ على مَقدم حسن، حيث اختار ذلك التخصص في الهندسة الكهربائية مبديًا تميزًا وجدية في التعاطي مع واقعه الجديد، لكنَّ أمرًا قد أشغله ذات يوم فجعله يترك المحاضرة مفضلًا المشي في ساحة الكلية ولما قدمتُ إليه في طريقي إلى إحدى المحاضرات، وجدته غارقًا بالضحك دون أن يتواجد الكثير من حوله سوى بعض الطلبة الذي ينتقلون ما بين الكليات وضحكت لصبابته: أضحك اللهُ سِنّك، ألا تضحكنا معك أيها الهارب من المحاضرة!!.

- تريد سبب الضحك أولًا أم سبب تركي للمحاضرة؟! هيا اختر.

- واجبُ الوقت أيها الطالبُ النجيب، الدراسة!.

- اسمع، داخل القاعة توجدُ عارضةُ لحم ليبرالية، أعطت جسدها حرية التظاهر والتجمع وتشكيل المفاتن الأنثوية على أحدث ما تفتق عنه عالمُ الإغراء، وراحت تُعبّرُ عن نفسها وهي تحاضر فينا، وتريدني أن أبقى في المحاضرة؟!.

- ضحكتُ حينها وإن لم يقنعني سببه: يا رجل، هذا الواقع يجب أن تتعود عليه فأنت هنا للدراسة، كما أن هذا الواقع ليس غريبًا عليك، وكأنك لست من مدينة يملؤها السائحون والصهاينة.

ـ نعم، نعم، لذلك أقمتُ حربًا مع والدي حتى استسلم لمطلبي بالزواج فتزوجت وأنا لم أتجاوز الثامنة عشر من العمر، ولستُ نادمًا، وإن عاد العمر بي أربع سنوات إلى الوراء، سأتزوج دون تردد.

ـ يبدو أن عائلة النتشه ثائرة على كافة الأصعدة، ولكن هذا لن يعطيك شهادة الهندسة يا سيدنا الشيخ!.

ـ لذلك عزمت أن أستأجر بيتًا لوحدي وأطلب من والدي إحضار زوجتي إلى هنا، فما رأيك؟!.

ـ حلٌّ خلاّق، علمٌ ودينٌ ومالٌ ووجهٌ حسن، أما نحن فلنا الله .

ـ تورّد وجه حسن من الضحك: أما السبب الآخر للضحك، فذاك الأخرس الذي في قسم النظافة!.

ـ تفاجأت من حسن، صاحب الخُلق الطيب والقيم الإنسانية العالية: لم أتوقع منك ذلك، أتسخر من خلق الله؟!.

ـ لا، لا، لا تذهب بعيدًا، إنما ذكرني بقصةٍ حدثت ونحن في الأسر قبل أقل من أربعة أعوام في سجن نابلس القديم بطلها أسيرٌ قد ابتلاه الله بالصم والبُكم!.

ـ إذا كان الأمر كذلك، سأسعد لسماعها بعد المحاضرة، وإلاّ لن أتخرج العالم القادم يا عدوُ الليبرالية!.

* * * *

ـ كم هي فتانةٌ دفاعاتنا في وجه غول الاغتراب؟! وخاصة إن كانت خاصرة تتراقص على ضفاف أوروبا، فالمعركة تُخاض هناك على جبهات متعددة، أعتاها فتكًا أن تُخرِجُكَ سيدةٌ من بقايا الثورة الفرنسية عاريًا من ثقافتك الجميلة! تهتك عرض حضارتك على سريرها الذي ابتاعته من حانوت ألغى البارحة زاوية الأخلاق، وفي الصباح، تودّعُك ثيّبًا بعد أن اغتالت عذريتك الشرقية.

ـ تستنكر إحداهن ذات مرة، رجعيتنا الحضارية! وهي ترانا جماعة في الصلاة فتخاطبنا من حدود ثقافتها المتنورة، تمقت فلسفة الجسد وهو يتحد مع الروح، لكنها سرعان ما تعود مرة أخرى إلى شرفة الكلية تمعن النظر في لوحة الحضارة التي أعرضت عن جسدها المعروض فتنفي عنا صفة الجنون.

ـ عُدت من جنونياتي الذهنية ولم أعقل كثيرًا من المحاضرة، فوجدت حسن قد أنهى محادثة عائلية في القدس من هاتف عمومي مركون في إحدى زوايا الجامعة، لكنه لم يكن على الحال الذي تركته عليه حيث بدا متكدرًا: أسألُ الله أن يكون الأهلُ بخير! لقد أقلقني تكدرك.

ـ الحمد لله العائلة بخير، لكن شقيق زوجتي مروان قد اعتُقل مع مجموعة من المقاومين ويبدو أن القضية معقدة!.

ـ أدعو الله أن يُفرج عنه.

ـ الأسرى بحاجة إلى أكثر من الدعاء وهذا ما كان يردده إسلام رحمه الله .

ـ يبدو أننا لن نسمع اليوم قصة الأخرس!.

ـ ابتسم حسن وهو ينفي ذلك: بل سأقصها عليك بعد أن تهنئني بموافقة والدي على إحضار زوجتي بنفسه.

ـ بهذه السرعة؟! يا سيدي ألف مبروك.

ـ أما الأخرس فلم يعف نفسه من مقارعة المحتل فوقع أسيرًا ليكون حجةً علينا نحن الأصحاء، ولأنه كذلك؛ خرج لمساعدة إخوانه في المطبخ العام، حيث كان محبوبًا لدى الجميع حتى أنَّ سجانًا اعتاد أن يمازحه وصولًا إلى سرقة طعامه، حيث درج الأخرس على أكل الساندويتشات بصورة دائمة ولأنه كان يساعد إخوانه داخل الغرف في تلبية حاجاتهم أثناء تواجده في الممرات، كان يضطر لوضع طعامه على النافذة الضخمة فيستغل السجان ذلك ليسرقه ثم يأكله، الأمر الذي بات يضايق الأخرس كثيرًا دون أن يستطيع ردعه، وفي أحد الأيام، قامت ضجة كبيرة في إحدى الغرف المقابلة للمطبخ حيث اكتشف سكان الغرفة من الأسرى أن زائرًا ثقيلًا قد اقتحم غرفتهم بهدف النيل من مخزون طعامهم الشحيح، فاستنفر الجميع ووضعوا خطة لإلقاء القبض عليه ميتًا، حيث أغلقوا فتحات المرحاض والباب وصعد الخمسة والثلاثين أسيرًا على الأبراش

- وتسلحت مجموعة خاصة بعصي المكانس والقشاطات المتوفرة، ولدى بدء عملية البحث انطلق اللص المتسلل سعيًا للفرار بجريمته، لكن غضب الكنعانيين نزل على رأسه فوقع الفأرُ ضحية اقتحامه الأرعن، فتنفست الغرفة الصعداء، حينها وصل الخبر بالإشارة إلى الأخرس فجاء مسرعًا إلى باب الغرفة طالبًا من أحد السجانين إدخاله، حيث طلب بعد دخوله أن يأخذ الفأر القتيل ليتخلص منه بنفسه، فامتثل الأسرى لرغبته في المساعدة، لكن الأخرس كان قد اتخذ قرارًا أخرجه من درج الشيطان، حيث توجه بالفأر إلى المطبخ دون أن يلحظه أحد وقام بقليه وتوضيبه في رغيف محشو بالمقبلات اللذيذة ثم أقدم على اقتطع جزء بسيط منه لإيهام الهدف بأنه قام بقضم جزء منه، وفي اللحظة المناسبة توجه إلى المردوان –الممر- ووضع الرغيف على النافذة واهمًا السجّان ذاته أن يساعد إخوانه وعينه ترقب المشهد حيث وقع الهدف في المصيدة وسرق الرغيف وهو يضحك وانزوى به في الساحة يأكل بسرعة قبل أن يمسك به الأخرس وبعد أن أجهز على غالبيته والأخرس ينظر إليه من بعيد، أخرج السجّان من فمه ذنب الفأر فأخذ بالصراخ مكتشفًا أسوأ كابوس يراه في نقطته حيث شاهد الأخرس وهو يضحك بصورة جنونية وهو يحرك رأسه كناية عن الانتصار عليه، فاستنفر السجّانون وقاموا بأخذ الأخرس إلى زنازين العقاب، لكن الأسرى تحركوا أيضًا وخرج ممثلهم لحوار المدير بعد أن حضر السجّان أيضًا، حيث تحدث المدير محتدًا: هذا عمل جنوني سينال العقاب عليه، فاعترض ممثل الأسرى بالقول: لكن الأخرس لم يخطئ!.

- ماذا؟!. والفأر الذي وضعه للشرطي؟!.

- اسأل الشرطي لمن رغيف الخبز؟!.

- فرد الشرطي: للأخرس.

- وهو كان مقضومًا منه؟!.

- نعم: لكنه كان يستهدفني.

- وهنا أُسقط في يد المدير الذي وبّخ الشرطي الذي خالف القانون بالأكل من الأسير، ثم أمر بإرجاع الأخرس إلى القسم، ولدى دخول الأخرس كان يضحك ويشير بيديه أنه أطعم السجّان خازوقًا لن ينساه بحياته.

- وماذا حدث مع السجّان؟!.

- طلب النقل من السجن هربًا من شريط الفضيحة الذي سيُعرَضُ على شاشة الأسرى كل يوم، حيث يلاحقه مُخرج العمل بامتياز – الأخرس.

* * * *

- وحضر الوطن إلى حسن! هكذا كان يرى زوجته، وطنًا يثور القلبُ في حاضرته! أسألهُ الرفق بالوطن تنزيهًا! فيصدني وكأنني الكفر بعينه: الوطن تصنعه مقدسيةٌ أرضعت التراب حليبها فأزهرت الورود! كانت بالأمس ترقبُ ولادة البحر من رحمها والمخاض قبل الغروب! فلا تُهن امرأةً هي في الكون وطنًا بلا حدود واركع صاغرًا لخالقٍ أخضع الجنّة بساطًا لها، ودونها يا لجهلك لا وطنٌ يبقى ولا تبقى الحدود، فأجبته: صحيحٌ ولكن! قيل في الأُم وطنٌ لا تسعه الحدود، لكنك ألصقت الأمر في زوجك!

- ابتسم وهو يهمهم ملامةً: هي اليوم حاضنة العمر والروح، حبيبة تفرش الزهر حُبًّا ونسيمًا وعشقًا، لكنها في الغد أُمٌّ لثوارٍ يطلبون الموت كي تحيى الأرض بلا يتم ودموع أفلا تستحق هي أيضًا ذلك؟!

- سَعِدَ حَسنُ كثيرًا بمقدم والده وزوجته، حيث كانت تربطه بوالده صداقة من نوع خاص ظهرت في الرحلة التي أعددناها لوالده أثناء مكوثه على الجزيرة، فقد أقمنا له حفلة شواء على الشاطئ حضرها الطلبة من أبناء القدس،

ـ ولمّا كانت ساعة الطعام، أرسلت طالبًا لمناداتهم فلم يعد وكذا حدث مع الآخر الذي ذهب لاستكشاف الأمر حيث كانوا جميعًا من ناحية غير مرئية لي، فتركت الطعام على حاله وأسرعت إليهم، فوجدت حسن يُلاعب والده داخل الماء وكلاهما يبادل الآخر المزاح في لوحة صداقة تجاوزت قالب الوالد المتسلط والابن الذي يرتعد لحضور والده، والطلبة يرسمون بضحكاتهم لوحة بطلها أبو حسن الذي كان رسول القدس وأهلها الطيبين، فناديت: ألا تخرجون من الماء؟! لقد برد اللحم.

ـ فصرخ عليَّ أبو حسن الذي كان يمتاز بالنكتة حاله حال أهل الخليل: أيُّ لحمٍ هذا وجميع اللحم هنا!!

ـ حيث كان الشاطئ يعج بالنساء، فنظر حسن نحوي ثم نحو والده وهو يبتسم فاستطرد أبو حسن: ما بكم أيها الشباب ألا تحبون مزاح العجائز؟!

قالها الوالد باللهجة الخليلية التي تمد الكلام حد الإمالة القصوى فتعطيه خصوصية لا يمكن أن تمتاز به اللهجة العامية إلاّ في مدينة الخليل الباسلة وأهلها الذي عمروا القدس بالسكن فيها.

* * * *

- لا أدري السبب الذي يُبقي الحكاية حتى اللحظةَ في قبرص!! أهي المقدمات التي تصنع التفاصيل؟! أم شيئٌ أجهله حتى اللحظة قد يدركه قارئ الرواية؟! كل شئٍ جائز وإن كنت قد ساءلت نفسي: وهل للفلسطيني الذي وُلِدَ مُلثمًا يحمل المقلاع بيدٍ وفي الأُخرى شارةُ نصره والفمُ يلثم ثدي أُمَه، بحاجة إلى مقدمات؟! ذات مرة عندما كنت صغيرًا ما دون السابعة من العمر مازحني جنديٌّ إسرائيلي وسط شارع صلاح الدين في يوم الوقفة وهي تساوم البائع على ثمن ملابس العيد، حيث مد يده لمصافحتي، فمددت يدي لمصافحته فأبى أن يعتق كفي الصغيرة وسحبني إليه موهمًا براءتي أنه ينوي اعتقالي، فبكيت وأوقعت نفسي محتميًا بالأرض، فأعتقني وضحكاته تقتل سكون براءتي حينها عدت إلى أمي التي قرأت الموت في عينيّ فانتفضت وهي تسألني: ماذا حدث، لماذا أنت خائف؟!

لم أعترف أبدًا وعشت أحمل رعب الواقعة تلك وبقيت أبحث عن لحظاتٍ تحررني من ذلك، فلم تأتِ بعد، حيث لا زال طفلٌ تطارده أيدي الجنود هناك!

- نعم! لم يعد من المفيد أن تبقى الكلمات خارج قاموس الوطن، هذا ما فهمه حسن الذي كان يتهيأ لامتحانات الفصل الأول من دراسته عندما تلقت زوجته خبر الحكم على شقيقها مروان بالسجن المؤبد بعد أن أدانته محكمة صهيونية مع مجموعته بأسر جندي إسرائيلي بغرض مبادلته بالأسرى الفلسطينيين، حيث تم قتله بعد انكشاف أمرهم أثناء المطاردة

: يجب أن أعود

هكذا قال لي بثقة كاملة

: لم أعد أحتمل البقاء بعيدًا عن ساحة المعركة!

- لكنك مُلزمٌ بالجامعة، ألا تفكر بقرارك هذا؟!

- كان ينبغي أن أختار مكاني الصحيح منذ البداية فلم أُخلق لهذا المكان!

- لكنَّ والدك يضغط عليَّ لإقناعك العدول عن قرارك، وهو مستعد لشراء سيارة جديدة لك، واستئجار بيت أوسع.

نظر في عينيَّ بعمق وهو يعلم أني لن أقنعه

: والدي يعرف أني لا أخضع للإغراءات فلقد عقدت العزم على العودة ولن أتراجع

- على الأقل قم بتأدية الامتحانات النهائية للفصل الأول فلربما تعود يومًا لإكمال الدراسة.

- ابتسم ابتسامة الرضى عن قراره وهو يقول: لقد اخترت جامعة أُخرى هي عندي واجب الساعة، فادع لي أن أهتدي إلى أساتذتها حتى يأخذونني بينهم تلميذًا، ولعلك تنضم إليَّ في القريب العاجل إن شاء الله، ريثما أُنهي سنتي الأخيرة، ولا تقلل من أهمية الدرجة العلمية في ظل إغلاق الجامعات الفلسطينية في جانب الاحتلال ولكن..

- ولكن ماذا؟!

- سأشتاق إلى حماستك وإلى طعام زوجتك، فلقد اعتدت على عزائمك المفاجئة

ودعني وهو في قمة السعادة، يخالف رتابة الأشياء التي تأسرنا فنصبح تبعًا لها، كان قدومه إلى قبرص نزولًا على خوف عائلته عليه، حيث ظلَّ يقنع نفسه أنه في مهمةِ طاعةٍ لأبوين يريانه على حدود القبر بعد أن كانت جميع المقدمات تشير إلى ذلك، لكن روحه ما برحت بوابات القدس تتنقل كل ليلة من باب الجديد إلى باب العامود تُمسي في باب الساهرة، وتحيى الصَّبابة في باب الأسباط، تغفو تحت راية المراكشيِّين في باب المغاربة وترى نور النبوة في باب النبي داوود وفي الصباح تتلو الأنفال والتوبة في باب الخليل.

- لم يعقل أحدٌ سببًا منطقيًا يدعو شابًا ذكيًا وثريًا لترك الدراسة، سألني أستاذٌ في الكلية: أهناك مكروهٌ قد أصاب أحدًا من عائلته، أم أن أحدًا يضايقه هنا؟!

- لا هذا ولا ذلك، لعله فَضَّلَ العودة لمساعدة عائلته في التجارة

- لم تنقعه إجابتي، وظلت مغادرته المفاجئة حديث المقدسيين لفترة

- وبعد عدة أشهر أتلقى اتصالًا تلفونيًا منه يخبرني بقدومه إلى الجزيرة مع اثنين من أعمامه لزيارة أقارب جدته القبرصية، وكانت من المرات القليلة التي يبادر فيها أحدهم للتواصل مع عائلة جدته لأبيه، الحقيقة أنني فرحتُ جدًا لزيارته تلك،

ـ فلا يمكنك أن تتعرف إلى حسن دون أن تحبه، حتى وإن اشتممتُ شيئًا في نبرة صوته غير أنني انتظرته بفارغ الصبر لأستنشقَ عبير القدس، وأرى ما فعلت عزائمه، وخاصة في الفترة التي شهدت مجزرة الحرم الإبراهيمي الشريف في مدينة الخليل، حيث كنا وقتها قد انتفضنا على طريقتنا في ساحات الجامعة، يشاركنا الطلبة الأتراك والعرب، وتحديدًا السودانيون الذين كانوا يحمون احتجاجاتنا بدعمٍ من سفارتهم فيتصدرون المسيرات ويرقِّعون مخالفاتنا أمام إدارة الجامعة.

ـ كانت المجزرة نقطة تحوّل في كل شئ، حتى في الطعام والضحك والغضب تمثلت أمامك أكوام الشهداء التي سقطت في فجر ذاك اليوم في الحرم وكأنها تقرأ عليك عَتَبَها وحزنها أنها وحيدةٌ كانت وأنت بعيدٌ قد كَشَفت ظهرها، أمكنت الغُزاة منها ساعة لم تقف على رأس المحتل برشاشك تحمي سجودها. نعم، وأيضًا نعم، للدم حق المحاكمة، فحاكمينا يا خليل وألبسينا ثوب ثأرك. قلةُ الحيلة، صفعةٌ على الوجه في الصباح وحسرةٌ في المساء. لا تدري ماذا تفعل؟! هناك في القدس يوم أن كنا في القدس، يتحول الغضبُ إلى حجارة جاءت على أجنحة الأبابيل، وإن زادت جُرعة الثورة، خرجت جيوش المولوتوف لتصنع من الغضب نارًا ترسم بلهيبها معالم المقاومة.

- وهنا في فماغوستا، عليك أن تبكي في الصلاة وتندب حظك أنك لست حسن!

أين أنت يا حسن؟!

- ذهبت لاستقباله في الميناء، حيث فَضَّل المجئ مع عميّه على ظهر سفينةٍ سياحية إسرائيلية تحركت من ميناء حيفا، ولمّا دخلتُ بسيارتي الخاصة إلى رصيف الميناء وشاهدني حسن أفعلُ ذلك! رأيت بعينيه كلامًا كثيرًا وهو يقترب لمعانقتي: يبدو أننا سنبدأ العمل من هنا- قالها بصوت منخفض قبل وصول عميّه اللذين كانا سعيدين لقدومهما إلى قبرص، فأدركت أن الرجل ينوي على أمر: ألا تطمئن على صديقك أولًا؟!

- أنت في القلب يا شيخ جهاد، كما أنَّ اسمك يذكرنا بواجب الجهاد

- اهدأ أيها الحسن، لا تنسَ أننا بالقرب من سفينة إسرائيلية

- هذا المهم في الأمر!

- دعنا الآن من مغامراتك وقل ماذا أحضرت لي من القدس؟!

- حضرت أنا.. ألا يكفي؟!

- وماذا سأستفيد منك؟! لقد اشتقت إلى رائحة القهوة بل إلى أوراق الميرميه والنعنع وتلك الجدة التي تبيعهما في باب العامود و- - -

- أكملَ حسنُ وهو يركب إلى جانبي في السيّارة: وإلى رائحة المسيل للدموع وموسيقى الرصاص الذي تلحنه بنادق الجنود وثم كعك «**البرزاء**»!

ـ ضحكنا جميعًا ونحن نغادر الميناء باتجاه الفندق حيث تعرفت إلى عميّه اللذين جاءا بحثًا عن جذور أمهما القبرصية.

منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها حسن، أدركت أنه قد أصاب هدفه، ولعلني استغربت رؤيته يمشي على قدميه حيًا فهناك أناسٌ يكتبون مصيرهم بأيديهم، وحسن واحدٌ منهم، يطلبُ الموت فيهنأ فيما تبقى له من حياة، فلسفةٌ خاصة: اطلب الموت توهب لك الحياة، ولكن! ليس في القمر مثلًا وهنا تتربع شفرة هذه الفلسفة، فأن تحرص على الحياة في فلسطين بمفهومها الأناني المجرد من إحساس المقاومة والجهاد يعني الاستسلام لواقع الهزيمة والاحتلال، وبالمناسبة، من الحمق الاعتقاد بأن الهزيمة في رفع الراية البيضاء لعسكر العدو ودباباته فذلك مشروع في قانون الربح والخسارة في الحروب، إنما الهزيمة في الخضوع النفسي المسبق للاحتلال.

وبعد يومين من حضور حسن، كُنتُ عائدًا به ليلًا من بيت جدته على الطرق الآخر للجزيرة حيث فاتحني بما خطط له: بدون مقدمات، يجب أن نفعل شيئًا هنا!

ـ عن أي شيءٍ تتحدث؟!

ـ السفينة! نعم السفينة، نستطيع أن نسيطر عليها بقليل من التفكير والشجاعة

ـ تقصد عندما تعود إلى حيفا؟!

- لا، لا، هنا في قبرص، فلقد رأيتك تتحرك بحرية في الميناء، وهذه فرصتنا لخطف السفينة الإسرائيلية وعقد صفقة لتبادل الأسرى

- يا حسن! الموضوع أكثر تعقيدًا مما تظن وليس بهذه السهولة التي تطرح

- إذا لم يعجبك ذلك فبإمكاننا تفجير حافلة للسيّاح الصهاينة فقد رأيتك تتحرك بينهم بسهولة، أرجوك ألا تعقد المسألة، فدماء المصلين في الحرم الإبراهيمي لا زالت على الأرض لم تجف بعد

عندها أوقفت السيّارة جانبًا ونظرت إليه: لستُ أقلَّ منك حماسة للمقاومة ومشهد الشهداء لا يفارقني مطلقًا، لكنك تطرح أمرًا يخالف سياسة الحركة في عدم نقل نطاق المقاومة المباشرة خارج حدود فلسطين

- لكنَّ ربَّ فلسطين هو ذاته ربُّ قبرص، كما أن إخواننا هناك يقومون بالواجب ونحن هنا نفتح جبهة أُخرى، إلا إذا كنت ترفض الفكرة أصلًا

- أنا أعرف طريقتك في الإلحاح، لكن هذا الأمر غير خاضع للنقاش

مكث حسن خمسة أيام في قبرص، حاول كل جهده لإقناعي دون جدوى وقد استسلم نهاية الأمر ناحية تأجيل العمل ريثما نعود إلى فلسطين

- هناك في القدس ستجدني مستعدًا للقيام بأي عمل، فقط عليك الانتظار ثلاثة أشهر ريثما أُنهي دراستي إن شاء الله

- وأنا بانتظارك، وإلى حينها أدعو الله أن يوفقني فيما أفكر فيه

- سأدعو الله شريطة أن ينضبط تفكيرك داخل حدود الوطن المحتل

- حتى في هذه ستلاحقني؟!

- طبعًا، فأنا بتُّ خبيرًا بخارطة رأسك الخليلي العنيد

* * * *

شعورٌ جميل أن تسمع زغرودة تخترق سماء القدس بحق، بطلتها أُمك التي جلست تحصي الليالي القاسيات ببعدك عنها، تنتظرُ طفلها الجميل وهو يدخل عليها بيمينه قائلًا: لقد أصبحتُ مهندسًا كما تحبين يا أمي.

فتتحرك جحافل النسوة لزفافها من جديد، فهي العروس الآن توزع البقلاوة على الحاضرات من أرجاء الحي، تزين نفسها، تمسح عن وجهها حزن الأرملة الصغيرة، تضع بعضًا صغيرًا من الكحل على عينيها، أو ليست تحتفلُ اليوم؟!

كانت أيامًا جميلة بعد أن حصلتُ على شهادة الهندسة وعدتُ إلى القدس. ترى الفرحة في العيون وتحمدُ الله أنك سببٌ في ذلك، يضعك الأهل نظريًا في لحظات ضعف، تتوق فيها إلى عدم تخييب أملهم، لكنك تستسلم باكيًا لحظة وقوع عينيك على قبة الصخرة، شئٌ غير قلبك يهبط لحظتها، قد تكون الروح أو أعمق من ذلك، لا ترى حينها غير دَمِكَ سارجًا ظلمة الحرم وقد أحلكَهُ سواد الظالمين، تناديك كل ذرة فيه، حتى مجالس الإمام الغزالي وأنظار الخليفة عمر، كل شئ في القدس جميل.

كنت أعرف أنه ينتظرني، هناك في خان الزيت، سوقٌ في البلدة القديمة تملك عائلة حسن بعضًا من محاله التجارية، وقفتُ قبالة المحل الذي يبيع الملابس أرقب حسن الذي كان عنصر جذبٍ للزبائن، فأسرع نحوي معانقًا بعد أن رآني:

- الحمد لله على سلامتك، ألا تقول بأنك عدت حتى نقوم بواجبك؟!

كان استقباله جميلًا وخاصة بعد أن انضم إلينا والده الذي أَصرَّ على دعوتي إلى عزومةٍ في البيت:

- بارك الله فيك يا عم أبو حسن رؤيتكم أكبر من العزائم. وهنا تدخل حسن:

- دعك من الرسميات، أنت الآن بحاجة إلى إعادة تأهيل غذائي، أليس كذلك يا والدي؟!، ألا تريد أن نرد لك عزيمة الشاطئ في قبرص؟!

- قال والد حسن مبتسمًا.

- فعلّق حسن مازحًا: الحمد لله أننا لا نملك شاطئًا عنا القدس!

- اسكت يا ولد! ألست المُصلح الذي أوقعنا في معارك مع «**الزعران**» بسبب تحرشهم بالشواطئ المتنقلة في سوقنا هذا؟!

- يا أبي! بعد ساعة سنكون في البيت، وأرى أنك تصرُّ على الخضوع للمساءلة أمام وزير داخليتك!

- تهددني بأُمك أمام جهاد؟! لا بأس، فأنا شبه عجوز. لكنك شاب وسنرى ماذا ستقول زوجتك بعد أن أقدم لها هديةً اليوم

- أرى أن تعلنا الهدية كيلا تناما خارج البيت الليلة

لم يكون والد حسن الطيب، يعلم سبب ترك حسن للدراسة، لكنه تقبّل الأمر لاحقًا وتحديدًا بعد أن عاد للعمل معه في معرض الأزياء، فأهلونا وإن خيبنا آمالهم في أشياء إلا أنهم يرونا أمام أعينهم شيئًا مهمًا.

اتفقت مع حسن الذي بدا مرتاحًا جدًا للقاء مجددًا بعد عدة أيام ريثما أُرتب بعض الأُمور الخاصة، حيث كنت قد قدمت للعمل في شركة عربية للإلكترونيات في شرق القدس ولم أترك مساعدة شقيقي الأكبر الذي تكفل بعد وفاة والدي بتربيتنا وتعليمنا حيث كان يملك شاحنتين للنقل هما مصدر رزق العائلة وكان قد دفعني للحصول على رخصة قيادة منذ الصغر.

كنت أجهل في تلك الأيام ما تخفيه القدس من أسرار مقاتليها! وأدرك بفطرة المقدس أنها تفاجئك دون إذن، تسبق ما تفكر به، ترتجلُ البسالة كل حين، وحرّاسها يبتكرون تألقهم الرائع وهم يهمسون باسمها الذهبي.

لم تسعفني فراستي الخاصة به، أن أعلم ما يُعد! لكنت في مسعاه جنديًا يطلب المعركة فورًا، غير أن القدر كان يؤجل ذلك، وأحسب أن حسن أيضًا كان يعتقد بذلك.

* * * *

كانت تلك الليلة الرابع عشر من آب لعام **1994**، ليلة ساخنة بامتياز! اجتمعت فيها عزائمُ رجال أربعة، هم في الحقيقة رهبان الأقصى ورواد صلاة الفجر فيه، رهبانٌ وروّادُ فجر، رَنينٌ موسيقيٌ للكلمات، يُحسنُ عُشَّاقُ الأقصى فقط استعذاب فن الرهبنة على وقعه، ففي القدس، معركة على كل شئ وفي كل شئ.

ينظر أحدهم ذات ليلة من نافذة بيته إلى مستوطن يزعم الصلة بالسماء ويداهُ تقطر دمًا وهو يسير باتجاه حائط البراق الأسير، فيصرخ «**يا ويلتا أَعَجَزتُ أَن أَكونَ مِثْلَ هذا الغُراب**»؟!- فلم ينقطع بعدها عن الرهبنة في ليل الحرم وفجره الجميل.

أما تلك الليلة، فقد انطلق حسن ورفاقه الثلاثة قبل الفجر بقليل نحو طريق الوادي في البلدة القديمة هدفهم النقطة العسكرية التي تتمركز أمام المنزل الذي احتله أحدُ أقطاب الاحتلال «**ارئيل شارون**» قائد مذبحة قبيا عام **1953** وسفاح صبرا وشاتيلا، حيث أصر حسن على إبادة النقطة التي لطالما نكَّلت بالأهالي بصورةٍ دائمة.

مضت السيارة في شوارع القدس الخالية وأثناء عبورها باتجاه باب العامود! اشتبهت بهم شرطة الاحتلال فوضعت لهم حاجزًا سريعًا عند متحف روكفلر، كان الأربعة مسلحون بالبنادق والمسدسات، سأل سائقهم عبد الكريم: هل أحاول الاستدارة بسرعة أم نواجه؟!

- فأجاب ثلاثتهم: بل نواجه لحظة التوقف، توكل على الله كانت عيون رجال الشرطة ترقب عجلات السيارة وهي تسير ببطء نحو الحاجز، ولدى توقفها التام توجه أحدهم بطلب بطاقات الهوية، وهو ينظر في أعين المقاتلين داخل السيارة يطلب تفسيرهم لتواجدهم معًا في هذه الساعة وقبل أن يحلِّل بصره ما يحدث! كان حسن يمطره بالرصاص ويحوّل بندقيته باتجاه الحاجز، حيث اندلعت معركة صغيرة جدًا، تبادل فيها الطرفان مطرًا من الرصاص أصيب فيها عصام القضماني بطلقةٍ مباشرةٍ في رأسه حيث أصبحت السيارة هدفًا لزخاتٍ كثيفةٍ من الرصاص أُعطبت فيها عجلات السيارة وهُشِّمَت النوافذ، لكنَّ مهارة عبد الكريم أنقذت الموقف بأُعجوبة عندما استدار بالسيارة مُسرعًا رغم الأَضرار التي لحقت بها، في الوقت الذي قام به راغب عابدين وحسن بتغطية الانسحاب، وعلى بعد كيلو واحد من مسرح الاشتباك في منطقة الشيخ جرَّاح، توقفت المجموعة مضطرة تحت ضغط المطاردة تاركةً السيارة وبداخلها عصام الذي ظنوا بأنه قد استُشهد، حيث صعد الثلاثة بسواتر بسيطة من قوارير الزراعة المنزلية التي تحتوي على التراب، وفي تلك اللحظات الساخنة وأهل المنزل والحي نيام، تقدم عبد الكريم قليلًا ناحية حسن وهو ينظر إلى رأسه: ثم همس بصوت منخفض جدًا:

- حسن! يا حسن!

لم يلتفت حسن وهو يرد حيث كانت عيناه باتجاه السيارة والشارع: نعم؟!

- أنت مصاب!

- هذه بعض شظايا الزجاج فلا تقلق

فتقدم عبد الكريم بسرعة يمسح الدماء عن رأسه:

- يا إلهي، هذه إصابة رصاص وليست زجاجًا، دعني أربطها لك، الدماء تسيل من رأسك.

لم يحول حسن عينيه عن الطريق:

- ضمدها ولا تقلق فالساعة لم تحن بعد

وفي تلك اللحظات استيقظ صاحب المنزل وصعد إلى السطح بعد اطمئنانه أن المتواجدين على ظهر منزله هم من المقاتلين: أرجوكم يا شباب، أنا أُعيل أُسرةً جميعها من البنات وأنتم لا تقبلون الضرب لأهلكم

فأوقفه حسن عن الحديث:

- لا تكمل يا عم، سنغادر فورًا

كل شئ في تلك الليلة كان يسير بسرعة وكأنه محطة عابرة، فلم يفكر الثلاثة بالخطورة التي قد تترتب على مغادرتهم سطح المنزل الذي يشكل لهم موضعًا جيدًا للمواجهة، فانسحبوا باتجاه بناية من طابقين كان «**مدرسة الفتاة اللاجئة للبنات**»، حيث تسلقوا السطح وحسن ينزف من رأسه، وتمكنوا من التحصن في أحد الصفوف المطلة على السيارة، وكان راغب قد استطاع الاتصال من الخلوي بقائد الخالية أيمن أبو خليل المصاب في البيت قبل أن يسقط الهاتف أثناء الانسحاب طالبًا منه مغادرة المنزل فورًا دون إضافة شئ:

- سيارة شقيقتك انكشفت وعصام استُشهد

كانت كلمات قليلة وسريعة كسرعة الأحداث في تلك الليلة، حيث تعقدت الأمور كون السيارة المستخدمة عائدة إلى شقيقة قائدة الخلية المصاب

على الفور قام أيمن بالاتصال بأحد أصدقائه الذي حضر بسرعة وقام بنقله إلى بيت خالته، في الشيخ جرّاح دون أن يدري بأن سيارة شقيقته مركونة في ذات الحي بعد خوضها معركة أطاحت بمعالمها الخارجية وبداخلها مقاتل اعتقد رفاقه بأنه شهيد، حيث بدأت قوات الاحتلال بكافة وحداتها الخاصة بعمليات تفتيش من بيت إلى بيت بعد أن عثرت على السيارة وبداخلها عصام الذي تفجر القسم العلوي من رأسه، حيث اكتشفوا أنه لا زال على قيد الحياة فحولوه فورًا إلى المستشفى، بينما كان الرجال الثلاثة يرقبون المشهد بحذر وجاهزيةٍ للقتال.

لم يكن أحدٌ من مثلث المعركة (**المقاتلون، القائد أيمن، قوات الاحتلال**) يتخيل اجتماع أجزاء المشهد على هذا النحو، حيث تطور الموقف بعد اكتشاف هوية مالكة السيارة أثناء مغادرة القوات الخاصة للمنزل الذي تواجد فيه أيمن حيث كانت قدمه المصابة موضوعة في الجبس لا تمكنه من الحركة، فغادرت القوات وألقت القبض على أيمن الذي خضع لتحقيق ميداني زاعمًا أن السيارة قد سُرِقت ليلة أمس غير أن روايته لم تصمد أمام الأدلة التي اجتمعت في المكان وفي مقدمتها الخلوي الذي تم الاتصال من خلاله على أيمن، وبسبب نُدرة الأجهزة الخلوية آنذاك وخضوع المشترك في خدمته لشروط كثيرة! سّهل ذلك الوصول إلى خيوط عدة، لكن الضربة التي تلقتها المجموعة باعتقال أيمن وعصام الذي كان يصارع الموت، كانت انتصارًا غير مقصود لقوات الاحتلال التي كانت تبحث عن طرف خيط يقودها إلى هؤلاء الأشباح من أبناء القدس.

عندما يأتي المرء على سيرة شبان يبحثون عن الحياة وسط ركام الموت الذي يصنعه الاحتلال، يقف أحيانًا عند تفاصيلهم، مفردات حكاياتهم، حتى نوادر مقاومتهم الرائحة، فيبكي حينًا ويضحك في الحين الآخر، وليس أغرب مما حدث سابقًا مع أيمن الذي خرج مع رفيقَيه المجاهدَين السائق طارق أبو عرفه وعصام القضماني لأسر جندي من قوات الاحتلال، حيث نجح الثلاثة في أن يُقلوا جنديًا قرب مدينة اللد في الأرض المحتلة عام **1948** يُدعى «**فرانكلين**» لكنهم لم يفلحوا بالسيطرة عليه بسبب مقاومته

فقام المقاتلون بإطلاق النار عليه، غير أن رصاصة انفلتت أثناء العراك من أحدهم لتخترق كتف أيمن مما اضطرهم إلى التخلص من جثة الجندي الذي تبين لاحقًا أنه من القوات الخاصة برميه في بلدة حنينا شمال القدس بعد مصادرة سلاحه الرشاش، وبعد ثلاثة أشهر من هذه العملية، انطلق الثلاثة مرة أُخرى في إصرار يفوق المرة الأُولى لإحضار جندي حيّ حيث أقلّت المجموعة جنديًا قرب مدينة أسدود جنوب فلسطين المحتلة عام **48**، لتقع ذات المشكلة أثناء السيطرة عليه حيث هاج الجندي الذي اتضح فيما بعد أن اسمه «**سيماني**» بعد أن صوّب أيمن مسدسه باتجاه رأسه طالبًا منه الهدوء؛ لأنه أصبح في قبضة المجاهدين، محاولًا أن يستخدم بندقيته فكان مصيره الموت، ولدى عودة المجموعة إلى القدس وبينما كان أيمن يجر الجندي من قدميه والمسدس بيده، انزلقت رصاصةٌ غير متوقعة لتستقر في قدم أيمن، مما دفع المجموعة لترك الجندي الميت في قرية «**عقبة جبر**» ما بين القدس ورام الله والالتهاء بإصابة أيمن التي كانت في عظم القدم.

* * * *

طلُع صباحُ الجمعة على المقاتلين الثلاثة الذين تحصنوا داخل صفٍّ في المدرسة وقد أدوا صلاة الفجر بعيونهم بعد أن تعذر تحركهم بحرية، حيث كان عليهم تدارك الموقف بعد الهدوء الحذر الذي خيَّم على المنطقة، حيث تحدَّثَ عبد الكريم:

- ماذا ترون الآن؟! لن نستطيع المكوث هنا طويلًا

كان حسن يشعر بألم الرصاصة التي أصابت قشرة الرأس فمزقته، ولم يُجب وهو يقبض على سلاحه، فتحدث راغب:

- لا مفر، يجب أن يتحرك أحدنا لإحضار طارق

فنظر إليه حسن:

- لكننا بذلك نجازف

- لا بأس، خيرٌ من أن نبقى هنا ننتظر المجهول، سأتحرك الآن لالتقائه في الأقصى فحتمًا سأجده هناك، وإذا لم أعد حتى المساء.....

أوقفه عبد الكريم:

- ستعود بإذن الله، استبشر خيرًا

استطاع راغب عابدين الخروج من المكان الذي بدأت فيه الحركة دون أن يلفت الانتباه، وتمكن من الصلاة في الأقصى ولقاء طارق أبو عرفه، سائق المجموعة المخضرم والذي كان يعمل في شركة إسرائيلية شكلت له غطاءً نظيفًا لعلمه السري في الجهاز العسكري حيث كان يتقن العبرية بطلاقة متناهية، عندها علم راغب بمقتل شرطي صهيوني في اشتباك الليل وإصابة آخر بجروح خطرة.

وبعد أن تأكد طارق وراغب من مغادرة قوات الاحتلال لحي الشيخ جرَّاح، توجها بالسيارة إلى المدرسة واصطحبا حسن وعبد الكريم، اللذَين جلسا في الخلف.

- سأل حسن: أين الوجهة الآن؟

- فأجاب طارق: سنتوجه الآن إلى بيت راغب في الرام لإحضار بعض الذخائر والأغراض المهمة

وهنا تدخل راغب:

- لذلك يجب أن نخبئ الأسلحة تحت المقاعد حتى لا يراها الناس، فاحتج حسن:

- يا رجل نحن في وضعٍ حَرِج لا نعرف ماذا ينتظرنا

- لكننا يا حسن قد نثير الشبهة إذا شعر حدهم بأننا نحملُ شيئًا، لذلك أُفَضِّل أن نضع السلاح تحت المقاعد ريثما نخرج من البلدة

دخل طارق بلدة الرام ولم تعرف المجموعة أن المنطقة مليئةٌ بالقوات الخاصة التي اكتشفت أمرهم فاستعدت لمواجهتهم، وبينما السيارة تعبر من طريق فرعي باتجاه بيت راغب الذي كان يجلس إلى جانب طارق، فتح الكمين نيران أسلحته باتجاه السيارة فاستُشهد راغب وطارق واصطدمت السيارة بالحائط، لكنَّ أمرًا غريبًا كان يحدث لحظتها عندما فتح عبد الكريم الباب الجانبي للسيارة ناحية اليمين والذي أصبح بعد الاصطدام مُطِلاًّ على شارع فرعي مستغلًا حذر القوات الخاصة في اقترابها، وبدون تشاور مع حسن بدأ بالركض السريع جدًا، وحسن لا يكاد يصدق ما يجري إلاّ أنَّه اتخذ ذات القرار بلحاق عبد الكريم، غير أن جنود القوات الخاصة الذين كانوا يبعدون عنه أمتارًا قليلةً بدؤوا إمطاره بالرصاص الذي اخترق فخذه ويده اليمنى بدون أن يعيق حركته، حيث تلكأ الجنود قليلًا عندما انعطف الاثنان في نهاية الشارع ولعلهم تحسبوا من تحصنهما وفتح النار المضاد، في تلك الأثناء، وقفت سيارة مدنية طالبةً منهما الصعود، ولأن المشهد لا يمكن استيعاب سرعته بسهولة، كان حسن وعبد الكريم ينظران إلى بعضهما البعض دون أن يشعر حسن بجراحه، فتدخل السائق:

- لا تقلقا، كونا مطمئنين سنصل بعد قليل إلى أحد البيوت القريبة.

لم يكن أمامها خيار سوى الامتثال لرجل شجاع ساقه القدر إليهما حتى وإن اكتنف الأمر خطورة جهلهما بهويته، غير أن ذلك لا يقاس بما تركاه خلفهما، شعر الرجل بارتباكهما وخاصة قلق عبد الكريم على حسن الذي كان ينزف من جميع الجهات حتى من موضع إصابة الليل:

- لا بأس، تصرفا بهدوء فأنا طبيب

لحظتها خرجت كلمات من القلب على لسان عبد الكريم الذي كان يحاول تطبيب حسن:

- لا إله إلا الله، الحمد لله رب العالمين.

أما حسن، فكان يغيب تدريجيًا عن الوعي، لكن براعة الطبيب الذي وصل سريعًا إلى البيت أوقفت التدهور، على الرغم من وقوف الطبيب مصدومًا لاكتشافه رصاصة مستقرة في جبين حسن دون أن تدخل الجمجمة: يا الله، هذه معجزة!

وبعد يومين قام بنقلهما إلى أريحا لإكمال علاج حسن في عيادة خاصة بعيدًا عن أعين الجميع، وفي إحدى المرات التي كان يقوم فيها الطبيب الرائع بالكشف عن رأس حسن المصاب، أخذ بالضحك، فسأله الاثنان عن السبب، فأجاب:

- الآن فهمت لماذا لم تدخل الإصابة رأس حسن!

فقال حسن وهو يبتسم وكأنه عرف ما سيقول الطبيب:

- لماذا يا دكتور؟!

- لأنك تحمل رأسًا خليليًا لا يخترقه الرصاص لقساوته

ضحك الثلاثة من أعماقهم، ثم عقب حسن:

- وأخيرًا اكتشفنا فائدةً لرأس الخليلي غير العناد وهي: أنه ضد الرصاص.

تمكن حسن وعبد الكريم بعد فترة من إعادة الاتصال بالجناح العسكري والوصول إلى رام الله ثم إلى مدينة نابلس، وبقي الطبيب مجهولًا حتى اللحظة.

* * * *

- لم أكن أعلم وأنا أعبر بلدة الرام يومها، أن حسن يخوض المعركة نيابةً عن بكاء عجوز جلست على سجادة الصلاة في إحدى زوايا مخيم البقعة في عمان وقد رفعت كفيها إلى السماء وهي تضع في عنقها مفتاح منزلها في يافا:

- اللهم انصر عبدًا يأخذ حقي من أكتاف عدوي

- كنت أرفض وأنا أشارك زفة الشهيدَين طارق وراغب، مجرد التفكير أنَّ مكروهًا قد أصاب حسن الذي يقف دائمًا عند عهوده، فتوجهت بعدها للقائه:

- حسنٌ مطلوبٌ للاحتلال يا ولدي! كلمات حزينة أجابني بها والده لدى سؤالي عنه.

- يا لطيف، وكيف حدث ذلك؟!

- لقد اقتحمت قوات كبيرة من جيش الاحتلال ومخابراته المنزل وأعاثت فيه فسادًا بعد تفتيشه وجميعهم يسأل: أين حسن؟! أخرجوه وإلا هدمنا البيت.

- وأين حسن الآن؟

- لم يأتِ منذ يومين وقد هددوني بتصفيته جسديًا إن لم يُسَلِّم نفسه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا عليك يا عم، لعله خير، لا تخشَ على حسن.

- لم أدرِ حينها أأغضب أم أُؤجل ذلك حتى ألقاه، ولعلي حينها فضلت التماس العذر له، فربما حدث طارئٌ دفعه للاختفاء، أو لعله واحدٌ من الذين كانوا في أحداث اليومين الماضيين؟! لم لا؟، كل شئ جائز في مدرسة حسن، لكننا اتفقنا....! زجرتني حينها عاصفة التفكير:

- ماذا تريد؟! أينتظرك أشهرًا طويلة حتى تأتِ بالدرجة العلمية التي لم يستبدلها بالجهاد على أعتاب القدس؟! وما يدريك الذي فعله في غيابك؟! أيجوز أن يكون قد صنع خيرًا مما خططتما له!

كنت على يقين بأن قدرنا معًا لم ينقض بعد، وأن الذي جمعته مضارةُ اللهِ في دفع الظلم عن الناس والأوطان، لا تفرقه الأحداث ولا بد عائد للالتحام.

لم أقطع التواصل مع والد حسن، حيث كنت دائم الزيارة له، فيرى في حضوري دخول حسن وإطلالته المميزة، وفي إحدى الزيارات التي كنت أنتظر فيها أن يفرغ والد حسن من الزبائن في المعرض خاصته، دخل شابٌ يبيع رزنامات الحائط دعمًا لأسر الفلسطينيين حيث كانت طريقةً ملتويةً؛ لجمع بعض النقود لتمويل نشاطات داعمة لقضية الأسرى في ظل ملاحقة الاحتلال لكافة الفعاليات المتصلة بالمقاومة، حيث استغل الشاب اليافع والمتحمس لمهنة الانتفاضة وجود مجموعة من النسوة يقمن بشراء ملابس عُرسٍ لشابةٍ جميلة متوردة الوجه كانت تتوسطهن وجميعهن يقمن بإضفاء جو من الدلال الفائض عليها، فتقدم نحوهن:

ـ رزنامةٌ واحدة، يعني دُمية بسيطة تُدخل الفرحة على قلب طفلة الأسير يوم العيد

ـ لم يكن ممكنًا أن تسكن ثائرة الروح وهي تسمع شجنًا على هذا النحو، لكن المقطع هذا تحوّل إلى عاصفةٍ من الدموع، كانت العروس سيدته الدامعة بحرقة، تُخرج من صدرها أنينًا داميًا يتقاطع مع شهقات بريئة مصحوبة بأحرف تجري بثقلٍ على لسانها:

ـ يا بابا، يا بابا؟!

وكلما تلفظت بتلك الكلمة، ازدادت بكاءً حارًا وهي تزرع وجهها في صدر امرأةٍ تبكي بهدوءٍ رزين:

ـ اهدئي يا ابنتي، أنتِ عروسٌ يا ماما!.

كان الشاب الذي فجّر البكاء يقف مصدومًا وبقِيَّتُنا تشهد لوحة الحزن هذه التي نجهل مبعثها وإن كنتُ قد ظننتُ للوهلة الأولى أن والدَ العروس متوفى، غير أنَّ والد حسن الذي تقدم نحو العروس حزينًا، يلاطفها كابنته في إشارة لمعرفته المسبقة بالعائلة، أزاح غموض الحزن عنا:

ـ لا تبكِ يا ابنتي، فما كان والدُك البطل ليرضى أن تكونَ جميلتُه حزينةً في يوم عرسها، وإلاّ ماذا ستقولين له يوم الزيارة! عندما يعلمُ ببكائك؟!

لحظتها فقط بكَت عينا الشاب وهو يغادر منسحبًا من المشهد الذي دفعه سابقًا لأن يكون بائعًا متجولًا من أجل عيون طفلةٍ لا يعرفها وقد كبرت شبيهتُها فأصبحت عروسًا، انتهت واقعةُ البكاء وغادرت النسوة، لكن وجع العروس وأمها بقي في عينيّ «**أبو حسن**» الذي حكت دموعه حكايتهما!. وطن، تلك العروس المقدسيّة التي وُلِدَت بعد أسر والدها بثلاثة أشهر قبل عشرين عامًا!!

- يا الله! عشرون عامًا، عقدان من الزمن!! أين كانت الإنسانيةُ يوم أن حبسوا الأبوة خلف الشمس؟!

- نعم يا والدي، أعرفه يوم أن جاء لخطبة ابنة جارتنا دعاء، المرأة الحزينة صاحبة الأربعين عامًا التي رأيتها تكفكف دمع ابنتها، وقبل أقل من عام على زواجهما تم اعتقاله والحكم عليه بالسجن المؤبد! حيث جاءت ابنته إلى دنيا ليس فيها كلمةُ بابا، وقد تعرفت عليه من خلف شبك الزيارة.

الله أكبر! والآن تزفها الأُم الجريحة إلى بيت زوجها في غياب والدها الأسير، وغدًا سيسألُ الحفيد عن جده!

- يا إلهي، تُرى يا عم مَن المسؤول عن ذلك؟!

- جميعنا يا ولدي، جميعنا، لا أحد برئٌ من دموع هؤلاء الحرائر!

ـ عندها تذكرتُ حسن، فسألتُ والده: وهل يعرف حسن هذه العائلة؟!

ـ حق المعرفة، فقد كانت دعاءُ وزوجها يلاعبان حسن لحظة اقتحام الاحتلال لمنزل عائلة دعاء، والذي كان زوجها يختبئ فيه.

غادرتُ خان الزيت ولم يغادرني، أو لم تغادرني دموعٌ صادقة، نقية، تسوق حقيقة واقعٍ لم يهزنا على النحو الصحيح، كي يتحول تحرير الأسرى إلى ثقافة دائمة، واكتفينا بالنذر اليسير على أهميته، لكنه قليل! يا ويحنا!! ماذا سنقول لطفلة كبرت فتزوجت وأنجبت ولا زال أبوها يعاني ألم الزنزانة؟!

* * * *

ومضى شهرٌ على عودتي من قبرص، حيث كنت قد بدأت العمل في الوظيفة، أتنقل ما بين نابلس وبيت لحم وغيرهما للإشراف على الهواتف العمومية وكل متعلقات الشركة، وبينما كنت ذات يوم في القدس متوجهًا إلى البنك! فوجئت بشخصٍ ينادي عليَّ باسمي:

- جهاد، يا جهاد!

كان شخصًا غريبًا يجلس إلى جانب السائق الذي لم تتضح لي معالم شخصيته بعد، ثم أشار إليَّ بلطف أن آتي إليه، ففعلت، حيث نزل من السيارة وقد كان شابًا صغيرًا في السن:

- هل أنت جهاد؟!

- نعم، ومن أنت؟!

- أرجو أن ترافقني لأن حسن النتشه يريد لقاءك

فوجئت حينها من هذه الطريقة الغريبة فأوجست في نفسي خيفة، فربما الأمر مكيدة من مخابرات العدو:

- عن أي حسن تتحدث، أنا لا أعرفُ شخصًا بهذا الاسم

- ابتسم الشاب: أعرف أن من حقك الخشية لهذه الطريقة التي أتيناك بها، ولكن سأعطيك إشارة خاصة بينك وبين حسن حدثت في قبرص

لم أجد بُدًّا حينها من قبول عرضه:

- إنها بندقية الصيد الذي طلب أن تدربه عليها

انفرجت أساريري حينها وتحديدًا بعد أن شاهدت الشخص الآخر والذي كان في أواسط الثلاثينات ووجهه مألوف جدًا، فركبت السيارة ورافقتهما، أفكر بهذا الحسن الذي انتظرتُ لقاءه طيلة الشهر الفائت، لم نتحدث في السيارة، لكنني استطعت تذكّر هذا المقدسي حيث كان من شباب المسجد الأقصى وهذا ما زاد من ارتياحي، مضت السيارة متجاوزة مدينة رام الله باتجاه شمال الضفة حيث أوقفنا حاجز زعترة الإحتلالي وتم فحص هوياتنا المقدسية، وكان الشاب الغريب يحمل بطاقة هوية مزورة، أعتَقَنا الجنودُ بسرعة، وقد فهمتُ لاحقًا أن المقدسي الآخر تمامي فعلًا يريد حسن أن يلتقيه، وبعد وصولنا إلى مدينة نابلس توجهنا إلى حي رفيديا غرب المدينة العريقة وهي من كبرى المدن الفلسطينية، حيث تركنا السيارة في طريق فرعي، ثم توجهنا للصلاة في مسجد رفيديا القديم، والذي يقع أسفل الشارع العام وفي ساحته ينبوع ماء طبيعي يخرج من الجبل، وبعد الصلاة سلمنا الشاب الصغير الذي لم نره بعدها إلى رجل وقور مربوع الوجه، عرَّف نفسه بكنية «**أبو النور**»:

ـ أهلًا وسهلًا بكما، أرجو أن ترافقاني

وأثناء خروجنا الثلاثة من باب المسجد وصعودنا إلى الشارع الرئيسي، فإذا بشباب المسجد يهاجمون بالحجارة حافلة عسكرية تقل جنودًا صهاينة باتجاه سجن جنيد الذي يبعد عن المسجد أقل من كيلو واحد فقط، فوقعنا ما بين الشباب المنتفض وما بين حافلة جنود الاحتلال، فسارع أبو النور لإيقاف سيارة أُجرة نقلتنا إلى وسط المدينة ومن هناك استقلينا سيارة أُخرى باتجاه جبل عيبال الشهير والذي يطلق عليه أهل المدينة الجبل الشمالي تعمره الأحياء السكنية وتعود تسميته إلى زمن الكنعانيين ومدينتهم شكيم - **2500** عام قبل الميلاد.

ـ لم يكن أبو النور إنسانًا عابرًا، وجهه وهيئته تدلان على شخصيته التي تترك فيك أثرًا منذ اللحظة التي تلتقيه، لكنني رأيت هذا الوجه سابقًا، وكأن الله عز وجل يريد أن يطمئنني في ذلك اليوم. نزلنا في حيّ، عرفتُ فيما بعد أنهم يطلقون عليه خلّة الإيمان، حيث ترى منه جمال المدينة بوضوح يسرق الألباب، حيث تعلو فيه قريبًا إلى الألف متر عن سطح البحر الذي يتيح لك أحيانًا في صفاء الجو أن تظفر برؤية البحر الأبيض المتوسط على سواحل فلسطين الغربية، أما أسفل منك فتشاهد المدينة القديمة مصطفةً كجيشٍ نظامي يستعد للمعركة بين جبليّ عيبال وجرزيم ولهذا الأخير قصته مع التاريخ، فنابلس أو قل جبل النار، هذا الاسم الذي نالته بامتياز طيلة تاريخها المقاوم، لا تجذبك فيها الحلويات فقط إنما رائحة الخضار التي تتنفسها من كل مكان فيها تمامًا كالقدس العتيقة وشبيهتها في الخليل وعكا وغيرهما.

وضَعَنا أبو النور في مسجد الحي فيما استأذن لبعض الوقت، حيث عاد بعد عشر دقائق طالبًا منا مرافقته إلى الطابق الأرضي في المسجد، عندها كنت وزكريا ننتظر لقاء هذا الذي يصغرنا سنًا ويكبرنا قدرًا وقد ترك في نفسنا شوقًا إليه وكلانا يفكر بجديد هذا الفتى الثري والذي رفض أن يكون مدللًا، وبعد لحظات قليلة، حضر إلينا بطلّته الجميلة وبصوته أولًا: -

- - السلام عليكم.

التفتنا نحوه إلى الخلف، كان يضع قبعة تخفي إصابة رأسه لكنها لم تخف ابتسامته، فتعانق مع المقدسي الآخر الذي بدأ بالبكاء لأكتشف أُخوَّةً بينهما كنت أظن بأنها فترت هذه الأيام، وإن كان هذا المقدسي الآخر الذي عرفت فيما بعد أنه زكريا نجيب يتعامل مع حسن بشئ من الأبوة ولذلك قصة جميلة تعود إلى طفولة حسن الذي كان يُصرُّ على أن يكون متمردًا على رتابة الأثرياء، هكذا كان يظن عندما يُلزمه والده بالبقاء في محلات الأزياء خاصتهم، لذلك كان يهرب إلي معلمه زكريا الذي يكبره بخمسة عشر عامًا كي يعمل معه في تمديد مواسير للبيوت، لتشتد علاقة العامل بمُشَغِّلِه حد تدخل زكريا لإقناع والد حسن بضرورة تزويجه وإلّا خسر الولد!! حيث كانت خطة أعداها لإقناعه بفكرة الزواج فنجح الأمر وأصبح حسن عريسًا قبل أن يصل إلى سن الثامنة عشر.

عانقتُ حسن الذي كان سعيدًا جدًا بلقائنا، ثم بدأ على الفور بعد أن عرَّفنا على صديقه أبو محمد- صلاح جاد الله- ابن قطاع غزة والذي كان ضابط الاتصال ما بين قائد الخلية السابق أيمن أبو خليل ومحمد ضيف في قطاع غزة وأعاد الآن ترتيب الاتصال واستئناف العمل لإنجاز المشروع الذي بدأ رغم انكشاف هويته بعد اعتقال أيمن، حيث انزوى بِحسَن جانبًا:

- كم أنا بشوق لإخبارك الذي حدث معي فلن تصدق، ولكن كما قال الإمام البنا رحمه الله «**الواجبات أكثر من الأوقات**» ولا بد أن أتأكد مجددًا، هل نحن على....

- أوقفته عن إكمال عبارته بنظرةٍ يعرفها جيدًا زمن فماغوستا، فاعتذر:

- يا رجل كنت أمزح معك

- لا تمزح في عزيمتي وقل أننا سنقتحم وزارة الحرب الصهيونية في تل أبيب الآن

ابتسم حسن وهو يشد على يدي مرددًا:

- الله أكبر، بل سنفعل أمرًا إن كتَبَ اللهُ لنا النجاح فيه سيكونُ تأثيره أكبر من اقتحام وزارة حرب العدو

لا أعرف حينها ما الذي صرف تفكيري عن معرفة ذاك الأمر إلى سؤال حسن عن تلك العائلة:

- هل تتذكر جارتكم دعاء وزوجها وابنتهما؟

تفاجأ أني أعرف قصة تلك الأُسرة ومع ذلك قال:

- من أجلهم نحن هنا اليوم، من أجل أن نصنع بسمة على وجه عجوز تنتظر عودة والدها الغائب خلف القضبان منذ عقود وقد وصلت الليل بالنهار راجيةً المولى أن يؤخرَ أجلها حتى تكتحل عيناها برؤيته قبل أن تموت.

أثارني بصدق:

- لقد أصبحت أديبًا في غيابي عنك، ومع ذلك، هل تقصد أفكار فماغوستا؟

- نعم، ولكن على صورة جنديين، وقد رتبنا الأمر هنا مع المهندس....

كان اسم المهندس، موسيقى أندلسية تترنم على ألحانها الجيوش ومن خلفها العذارى:

- أتقصد المهندس، المهندس نفسه؟!

- هو ذاته، ويدفع باتجاه إنفاذ ثقافة تحرير الأسرى ويتمنى لو كان يستطيع الخروج معنا ولكن تعرف خطورة ذلك.

- لا بأس، سنكفيه ذلك بإذن الله، والآن ما التصور لديك؟

- اتفق على بعض التفاصيل مع صلاح ريثما أتحدث مع «**معلمي**» زكريا

قالها حينها وهو يضحك، يحن إلى «**الورش**» ودور الصبي.

لم يكن بالإمكان أن يخالف زكريا ما عمله لحسن عن الأسرى، فقد كان زكريا أسيرًا في أواسط السبعينيات مدة أربع سنوات و نصف السنة عام خمسة وثمانين لاشتراكه في أعمال المقاومة :

- ماذا تقول يا معلمي، هل ستساعدنا بتوفير بيت؟!

- بإذن الله سيكون جاهزًا في أقرب وقت، ولكن قل لي، هل وقعت في حقل ألغام رأسك ويدك وعرجتُك هذه؟!

- شيءٌ يشبه ذلك، سأحدثك عنه عندما ننتقل إلى القدس بإذن الله ولكن أريد منك أمرًا مهمًا أن توفر البيت فقط ولا تتدخل في أي تفصيلات أُخرى.

أظهر زكريا الذي كان رياضيًا بعض الحركات بوجهه كتعبير عن غضبه ومع ذلك أضحك حسن:

- أتظنني عجوزًا أيها الصبي؟! أننى تنقصني النخوة والكرامة حتى أكتفي بهذا الدور؟!

- والله، لقد علمت أن رجلًا يتنفس تراب الأقصى كل يوم لن يخذلنا

غادرنا نابلس بعد توديعهم على أن نعود في الأيام القليلة القادمة لنضعهما في صورة ما أنجزناه وترتيبات نقل المجموعة إلى القدس.

لم يكن الأمر بسيطًا على النحو الذي تخطه يدي اللحظة، فكل شيءٍ كان يوقفك للتفكير فيه، بل يأسرك داخل قفصٍ من ذهب معلق ما بين النجوم، شعور عظيم لا يمكن أن يختلج في الصدر بصدق إلا إذا عاش المرء لحظاته، قلت حينها لزكريا ونحن ندخل بلدة بير نبالا شمال القدس: - أتعرف أنني أغبطهم على هذا الوضع الجهادي الذي يعيشونه والروح القتالية التي يتمتعون بها!

فنظر إليّ وهو يقود السيارة:

- لقد أصبحت الآن منهم

نظرت في نفسي، أسمع ارتداد الكلمات في عمق الضمير والوجدان:

- أصبحتُ الآن منهم!،

كيف يصبح الفلسطينيُّ واحدًا من الفلسطينيّ؟! سؤال غريب، لكنه مشروعٌ في عالمٍ تحدُه فلسطين! فمنذ متى والفلسطينيُ ليس جزءًا منهم؟! فترد عليّ دعاء وابنتها العروس:

- عندما نبكي الليل من الوحدة، ونرجو الفجر أن يبزغ باكرًا حتى لا يطول الظلام وما من طارقٍ على الباب يبشرنا بعودة الحبيب الغائب منذ فجر التاريخ.

* * * *

عندما عبرنا بلدة بير نبالا، شعرت بأن اختيار حسن لمعلمه السابق في مكانه، حيث تحس بالأمان وأنت تجلس إلى جانبه وهو يبعث الطمأنينة في نفسك:

- تأكد أن الله عز وجل سيوفقنا، أريد أن أريكَ بيتًا قد يصلح للمهمة

- بهذه السرعة!

- بل وأكثر، فإذا اتفقنا عليه سيكونُ مفتاحهُ غدًا بيدك

كان المنزل أكثر من مناسب، وتأمينه بهذه السرعة قد اختصر علينا الكثير من الجهد وربما الخطر، فليس سهلًا العثور على بيت مستقل لعمل كهذا، وتحديدًا أن بلدة بير نبالا تقع على الطرف الشمالي للقدس في مكان غير مكتظ بالسكان.

وفي اليوم التالي، توجهت للقاء زكريا في المسجد الأقصى، وكلي رجاءٌ من الله أن يكون قد استطاع إقناع صاحب المنزل بتأجيره، وكنت حينها أجهل الطريقة التي يعمل بها زكريا للحصول على البيت، لكنّ ثقته بنفسه جعلتني أرتاح، انتظرته بعد صلاة الظهر فلم يأتِ، فتوجهت إلى بيته الذي زودني بعنوانه، فقد كان يسكن في باب حطه أحد أبواب المسجد الأقصى حيث يأخذ الحي شرف التسمية لملاصقته الباب ويشتهر سكان الأحياء الملاصقة للأقصى بشراسة الدفاع عنه، حيث ينتفض الطفل والشيخ والمرأة إلى جانب الشاب وقت الأزمات.

طرقت باب البيت الذي كان جزءًا من البناء العربي القديم، ففتحت فتاةٌ صغيرة، وقف من خلفها مجموعةٌ من الأطفال وجميعهم ما دون الرابعة عشر من العمر، سألتها:

- هل زكريا موجود؟!

فتطوعت شقيقتها ببراءة:

- بابا ليس هنا.

فأسكتتها الشقيقة الكبرى وهي تسألني بحذر:

- من أنت يا عمو؟!

- أنا صديق بابا، عمو جهاد، وعندما يحضر أخبريه بأنني سألتُ عنه.

قبل أن أغادر، نظرت في وجوههم البريئة وكيف يدفعُ الظلم والدهم، أن يضع مستقبلهم في خطر من أجل أن يرفع خطرًا أكبر عن أطفال يعيشون بلا آباءٍ منذ سنواتٍ طويلة.

في اليوم التالي حضر زكريا إلى مكان عملي في بلدة بيت حنينا، شمالي القدس وكان مسرورًا جدًا أنه استطاع إقناع صاحب المنزل والحصول منه على المفتاح.

- يا رجل، أين كنت البارحة؟! لقد انتظرتك ولم تأتِ.

- لقد اضطررت لأمر خارج عن السيطرة، ومع ذلك، أحضرت مفتاح البيت، تستطيع غدًا إحضار الشباب من نابلس وأنا سأقوم بترتيب الأمر في المنزل.

- وهل شعر صاحب المنزل بشئ؟

- لا تقلق من هذا الجانب، فابن شقيقتي يملك المنزل وتربطه معرفة بحسن.

ما زال زكريا يثير إعجابي، لكن الفضول لحظتها دفعني للسؤال عن الأمر الذي جعله يغيب عن موعد الأقصى، فضحك:

- أثناء حضوري إليك من قرب كنيسة القيامة أخبرني أحد التجار هناك بأنَّ لصًا قام بسرقة سائحة أجنبية من أميركا، حيث كان الناس يتجمهرون حولها، فلم تسمح لي المروءة أن أسكت على ذلك ومدينتي يسئ إليها سارقٌ أرعن.

- وماذا فعلت؟!

- الأمر بسيط، أخذت مواصفات النقود التي ُسرقت وتوجهت بصحبة مجموعة من شباب البلدة القديمة ممن لهم معرفة باللصوص، وبدأنا البحث عنهم، نستجوبهم واحدًا واحدًا حتى أخبرنا أحدهن أن فلانًا قد اشترى وجبةً من الهيروين بخمسين دولارًا! فذهبنا فورًا إليه لنجده مُخدرًا!

- وهل اعترف أنه السارق؟!

- بالتأكيد، لكنه صرف نصف المبلغ على سمومه فاستعدنا البقية وسلمناها إلى السائحة.

- وماذا فعلتم بالسارق؟ ألم تؤدبوه؟!

هز زكريا رأسه وهو يتنهد بأسى:

- وماذا يفيدُ ذلك؟! لن يرتدع ما دام بحاجة إلى السموم التي زرعتها المخابرات الصهيونية في أوساط شبابنا، لا حول ولا قوة إلا بالله، يحاربوننا في كل مكان وعلى كافة الأصعدة، حتى في صحة أبنائنا، فهذا الشاب المسكين، كان يُفترض به الآن أن يفكر بإزالة الظلم عن مدينته وأهله فأصبح بعد الإدمان يبحث عن إلحاق الضرر بشعبه.

- ولكن ألا يجب أن نحُد من هذه الظاهرة القاتلة؟!

- أجابني بنعم، لكنه أردف وهو يقترب إليّ ويصكُ على أسنانه:

- يجب أولًا أن نجتث المرض من جذوره بسحق الصهاينة، قُل إن شاء الله.

في القدس، قانون الصراع صاغه الشيطان، فإن كنت مقدسيًا عليك أن تفكر بالرحيل ثلاثمائة وسبعون مرة في نصف عام، تلاحقك الضرائب المتعددة التي تعرف بعض أسمائها والأُخرى تتدرب على محاولة معرفتها، فالأرنونة والتأمين الوطني و و و و، ومع ذلك، لست إنسانًا تستحق التمتع بالحدود الدنيا لبني الإنسان.

فإن تهاوى سقفُ بيتكَ العتيق، وشكت طفلتُك الصغيرة تسرب المطر إلى سريريها! تخرسك البلدية التي تتحدث العبرية فقط: انتظر الإذن بذلك!.

فإن خضعت حانيًا لدموع طفلتك التي ترتجف بردًا في ليل الشتاء العاصف ورمّمت القليل من السقف، جاءت جحافل البلدية وهدموا السقف على رأس أهلك، صارخًا مهندسُهُم الذي يضع على صدره نجمة داوود:

- ألم تستطع الانتظار عشر سنوات حتى يخرج الإذن بذلك؟!

أما إن ارتكبت موبقة السكن خارج حدود القدس بسبب الضائقة السكنية، أخرجوك من قائمة الانتماء إليها بمصادرة هويتك المقدسية التي حصلت عليها بعد احتلال المدينة عام سبعة وستين حتى وإن كنت حفيدًا لرجلٍ قال التاريخ المتواتر أنه من سلالة قومٍ عجبوا! كيف لم يهتدِ أحدٌ إلى هذه الأرض الخالية من قبل؟! وأسكنوا بيتك كذابًا يعتمر قلنسوة سمّها ما شئت! لكنها أثرٌ من بقايا خيبر كانت بالأمس تتسول في مزابل أوروبا الشرقية.

في اليوم التالي، سافرتُ إلى جبل النار، هكذا أرى اسمها أجمل، وستاري الأمني في تحركاتي تأديتي أعمال وظيفتي في الشركة عبر تركيب الهواتف العمومية للشركات وماكينات المشروبات الغازية للمحال وهكذا، ولأني أتحرك وحدي؛ مكنني ذلك من امتلاك الوقت والتحرر من القيود الوظيفية المباشرة.

كان هدف ذهابي إلى هناك، ترتيب نقل المقاتلين يوم الجمعة، حيث أجريتُ اتصالًا مع – أبو النور- في بيته، فأرشدني إلى مكان عمله في ذات الحي الذي يسكن، استقبلني في مصنع حياكة الحقائب العائد لعائلته ويديره بنفسه، ولدى دخولي من الباب الأمامي، استرعت انتباهي صورة فوتوغرافية كبيرة معلقة على الجدار الجانبي يظهر فيها أبو النور – صلاح دروزه- إلى جانب مجموعة من مبعدي مرج الزهور في جنوب لبنان، عندها فقط، تذكرت أنني حتمًا شاهدت صورته في الفعاليات التي كنا نقوم بها في الجامعة تضامنًا مع مئات المبعدين من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات وطلبتهم وطبقات المجتمع المختلفة، والذين أبعدتهم قوات الاحتلال عام **1992** إلى خارج فلسطين فرابطوا على حدود الوطن الشمالية مدة عام وأكثر حتى فرضوا على العدو إعادتهم، ومنهم هذا الصلاح الذي يوفر حماية المجاهدين ويشاركنا في الخطوات الأولى للعمل.

لم أوفق في لقاء حسن، بسبب وجود دورية للعدو في المنطقة، فاتفقت مع – أبو النور- أن أحضر غدًا الجمعة لنقل الشباب إلى القدس، حيث رتبنا الأمر معًا بعد تطمينه بتوفير مكان آمن للمجموعة، وفي اليوم التالي، حضرت مجددًا إلى جبل النار مستقلًا سيارة شقيقي من نوع أوبل كونها لا تلفت الانتباه، حيث وصلت قبل أذان المغرب بقليل، فوجدت – أبو النور- ينتظرني في مصنعه، فبعث أحد الأخوة لتجهيز الشباب حيث علمت حينها أن مجاهدًا ثالثًا سينضم إلى المجموعة المسافرة إلى القدس،

خرجت بعدها مع – أبو النور- حتى نحضرهم، وتصادف ذلك مع صوت الأذان الموحد في كل مساجد المدينة، حيث يؤذن مؤذن واحدً من مسجد مركزي فتسمعُ صوتًا واحدًا يدعوك للإنصات بخشوع. قابلنا الشباب الثلاثة الذين كانوا يقفون بين الأشجار، عندها كانت المفاجأة:

- ألست عبد الكريم، جارنا في بيت حنينا؟!

- ابتسم عبد الكريم وهو يصافحني بقوة:

- هو بعينه، كيف حالك يا شيخ جهاد، لقد حدثني عنك حسن كثيرًا

- أتمنى أن يكون خيرًا.

لحظتها تدخل أبو النور: هيا يا أخوة، أجلوا ذلك لوقت آخر فالخواجات يمكن أن يعبروا المكان.

صعد ثلاثتهم في الخلف وعدنا جميعًا إلى مصنع «**أبو النور**» مجددًا حيث صلينا المغرب جماعةً، وبعد الصلاة مباشرة سألني عبد الكريم:

- هل مررت مؤخرًا من باب الزاهرة في البلدة القديمة؟!

- أكيد، هل تود معرفة شئ؟!

- أجاب عبد الكريم الذي كانت تبدو عليه علامات الجديّة:

- أبي يملك بقالة هناك

- أعرفها جيدًا، اطمئن يا أخي فهو بخير.

كلمات قليلة عابرة، تدرك أهميتها لكنك لا تفكر فيها عندما ترتب الأولويات، غير أنها أولوية لدى هؤلاء الرجال، يفكر عبد الكريم في والده الذي يبيع لوحده في البقالة، يتمنى لو أنه بقي يساعده، فلم تمنعه شهادته العلمية التي حصل عليها من كلية الأمة في بلدة الرام من البيع للأطفال في البقالة، ولم يفكر بالأخطار التي تحدق به من كل جانب، إنما بكلمة واحدة اسمها أبي.

وفي اللحظة التي أردنا فيها ركوب السيارة، أوقفني أبو النور معترضًا:

- هذا خطرٌ ومخالفٌ للاتفاق، لقد اتفقنا أن تحضر شاحنة وليس سيارة صغيرة

- صحيح، لكنني خفت أن تلفت الشاحنة الانتباه عندما تدخل إلى حيّ سكني

- وقف أبو النور يفكر للحظات معدودة، ثم طلب منا الانتظار في المصنع، وبعد عشر دقائق بالضبط، عاد بسيارة باص تجارية من النوع الصغير وكانت مغلقة من جميع الجوانب، ثم تقدم نحونا:

- سيركب الشباب هذا الباص، وأقودهم أنا، بينما يقومُ جهاد بفحص الطريق لنا وإعطائنا إشارة في حال الخطر.

وافقنا جميعًا على ذلك، وانطلقتُ بسيارة شقيقي لوحدي، في تلك الأثناء وقف الثلاثة في زاوية صغيرة ينظرون منها إلى المدينة وكأنهم يودعونها لآخر مرة، وتحديدًا صلاح جاد الله، ابن قطاع غزة الذي سرقت تضاريس الضفة الغربية لُبّه، فهناك في غزة الجالسة على ساحل الأبيض المتوسط جنوبًا لا تتجاوز أعلى هضبة فيها بضع العشرات من الأمتار، حيث وقف يخاطب أخَوَيه:

- أتُرى سنحيى كي نراها مجددًا؟!

نظر حسنُ نحوه:

- لم تقل لنا أنك تحبها إلى هذه الدرجة!

ثم أكمل عبد الكريم:

- ولم نعرف أنك واقعٌ في هيامها إلى هذا الحد!

- من يراها لا يمكنه التغاضي عن جمالها

- سامحك الله، لو أخبرتنا عن ذلك، لكننا قد رتبنا خطبتها لك مع «**أبو النور**»

نظر صلاح إليهما بسرعة فوجدهما يضحكان:

- ماذا تهذيان!

فرد عليه حسن:

- تتغزل في جمالها كأنها فتاة ولا تريد أن تسمع لك!

- بالله عليكما، ألا يُشبه مشهد غروبها عروسًا في مساء زفافها؟!

فقال عبد الكريم:

- ليس غريبًا عليكم يا أبناء دار المعلمين، أُدباءٌ حتى قبل المعركة!

فصلاح طالب في دار المعلمين العريقة في رام الله، وفي تلك الدقائق السريعة كنت أنتظر بسيارتي على شارع القدس المحاذي لمخيم بلاطة وفق الخطة، في الوقت الذي تأخر فيه أبو النور للرد على الهاتف، حيث كانت زوجته تبكي وهي تخبره:

- لقد وقع نور على قدمه، أسرع إلى البيت حتى تنقله إلى المستشفى

- سقط قلبُ «**أبو النور**» على ولده البكر والذي يستعد لدخول المدرسة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، هل حالته خطرة؟

- لا أعرف، أرجوك أن تأتي بسرعة فأنا خائفة

وقف أبو النور صامتًا للحظة ثم سأل زوجته:

- لو أنني ما زلت في الإبعاد أو في الأسر، فماذا كنتِ ستفعلين؟!

استشاطت أم النور غضبًا:

- هيا يا رجل ولدك يموت من الألم!. أستحلفك بالله أن تُسرع

وبكلمات بسيطة أنهى المكالمة:

- اتصلي بشقيقي عماد فأنا لستُ في المدينة.

كان الألم يعتصر قلبه، لكنه لم يُظهر لإخوانه الثلاثة ذلك، حيث قام بإرجاع مؤخرة الباص الصغير باتجاه المصنع الذي كان خاليًا من العمّال وبدأ مع الشباب بملء الباص بالحقائب، ثم طلب منهم الاختباء وراءها والاستعداد لأي طارئ:

- سنتوكل على الله، ولنكن مستعدين في حال الخطر، على أن تأخذوا الإشارة مني فقط، فقد يعترضنا أي شئ في الطريق قد لا يوجب المواجهة، أما إن سمعتم إشارتي فافتحوا النار فورًا، لكننا نسأل الله السلامة حتى نحقق ما خرجتم لأجله.

كان الثلاثة مباشرة خلف مقعد السائق بحيث لا يراهم أحد، وأثناء نزول الباص من جبل عيبال، تحدث عبد الكريم مع «**أبو النور**»:

- يا أبا النور ألا زلتُ في بالك؟! أخشى أنك نسيتني

- كيف أنساك يا بطل، وددتُ لو أفرش طريقكم وردًا!.

فتدخل حسن:

- المهم الكنافة النابلسية يا أبا النور، أخشى أن يستشهد عبد الكريم قبل أن يأكل كنافتكم للمرة الألف!

فاحتج عبد الكريم:

- كلها بضع مرات فقط!

ضحك أبو النور وهو يقف عند باب مطعم للحلويات في طريقه:

- انتظروا دقيقة ريثما أُحضر الكنافة التي أوصيت عليها في الصباح

عندها قال عبد الكريم:

- هل تسمحون لي بإطلاق الرصاص في سقف الباص ابتهاجًا بالكنافة!

فرد صلاح جاد الله:

- عندها سيأكلون على أرواحنا الكنافة، ألم تسمع أبا النور وهو يقول بأن أهل نابلس يأكلون الكنافة على روح الميت بعد أربعة أيام على موته، ويسمون ذلك «**بالدلايل**»!

ضحك الثلاثة بصوت منخفض وأبو النور يدخل الباص واضعًا طبق الكنافة إلى جانبه، في الوقت الذي بدأ فيه المقاتلون بالاستعداد لسفر يمتد إلى ساعة من الزمن، حيث كانوا قد جهزوا أسلحتهم قبل الانطلاق، وعندما وصل الباص قريبًا من سيارتي، انطلقت أمامهم على أن أعطيهم إشارة عبر الأضواء الخلفية في حال وجود خطر، على الرغم من أننا اجتهدنا اختيار يوم الجمعة مساءً لدخول السبت لدى اليهود حيث تخف حركتهم بسبب عطلتهم، لذلك انطلقنا قبل أذان العشاء بقليل.

كانت مهمتي هذه، الأخطر في حياتي إلى حينها، فأن تحمل في عنقك مسؤولية ثلاثة من أخطر المطلوبين لقوات الاحتلال يرافقهم مجاهد بحجم «**أبو النور**»! – مجرد التفكير بذلك- جعلني غير مستقر طيلة الطريق، ولمّا أوشكنا الانتهاء من شارع القدس والخروج من المدينة باتجاه قرية حواره التي يجلس على أراضيها أضخم المعسكرات الصهيونية لجيش الاحتلال، كانت المفاجأة التي كنت أخاف منها،

عندما شاهدتُ أمامي مباشرةً حاجزًا لجنود العدو ومخابراته ولم أستطع إعطاء الإشارة، حيث طلب مني جنديٌ يقف وسط الشارع بالتوقف، فتوقفت حتى حضر إليّ وأمرني بركن السيارة على اليمين، في تلك اللحظة الرهيبة واللسان والقلب يلهجان بالذكر والدعاء، مرَّ أبو النور دون أن يأمروه بالتوقف، متجاوزًا بعض السيارات التي كانت تخضع للتفتيش، فهبط قلبي وتعرَّقت بعد أن وصل الأدرينالين إلى المليون، وبعد عدة دقائق جاء ذات الجنديّ الذي أوقفني وطلب بطاقة الهوية، فكانت المفاجأة لديه عندما رآها زرقاء في إشارة إلى كوني من القدس، حيث يحمل أهل الضفة والقطاع بطاقات هوية برتقالية، فتوجه للنظر إلى الشاخصات الرقمية للسيارة فوجدها صفراء اللون، فسألني مستغربًا:

- مَن طلب منك الوقوف هنا؟! فقلت له: أنت!

فاعتذر وطلب مني السفر بسرعة، فأهل القدس يتمتعون «**نظريًا**» بحقوق اكتسبوها بقوة وجودهم في القدس على اعتبار أنها عاصمةُ دولة الاحتلال، حيث يتمتعون بالهوية الإسرائيلية التي تسمح لهم بالتحرك بحرية في جميع أنحاء فلسطين التاريخية دون الحصول على تصريح من سلطات الاحتلال وغيرها من الامتيازات.

انطلقتُ مسرعًا حتى أصل المجموعة فأسير أمامهم وفق الخطة، فتجاوزت مفرق زعتره الذي يتواجد عليه حاجز عسكري ثابت يحمي حركة المستوطنين ويواظب على تفتيش السيارات العربية، فلم أجدهم، فأخذت التخوفات تذهب بي شمالًا ويمينًا:

ـ تُرى هل انعطفوا يمينًا باتجاه مستوطنة أرئيل بعد أن لاحقتهم سيارة شرطة؟! أم اصطدموا مع قوة عسكرية بعد مطاردة قصيرة؟! يا إلهي ساعدني.

فقررت حينها السفر بأقصى سرعة باتجاه رام الله طمعًا باللحاق بهم فربما سبقوني إلى هناك، وخلال انطلاقي السريع في أحد الشوارع الخطرة والظلام يلف المكان، كدت أن أفقد السيطرة على السيارة التي حاولت خيانتي باهتزازها المفاجئ وتمايلها في الشارع بسبب السرعة، فتوقفت بعد لحظات من الرعب لجأت فيها للدعاء، ثم واصلت إلى رام الله ولم أعثر عليهم، فتوجهت إلى مفترق بلدة الرام حيث انتظرتهم هناك، وقررت العودة مجددًا إلى جبل النار لولا تذكري أنني زودت «**أبو النور**» برقم هاتف محل البقالة العائد لشقيقي في بيت حنينا، حيث ذهبت مسرعًا إلى هناك على أمل اتصالهم بي، وهذا ما حصل بالفعل بعد وصولي بخمس دقائق، فقد أخبرني أبو النور أنه ينتظرني على مفرق الرام، فأسرعت عائدًا إليه وشقيقي ينظر إليَّ باستغراب يود لو يسألني ما الذي أسكَن الخوف في وجهك؟!، لكنني ما كنت لأنتظر لحظة واحدة، حيث وصلت بسرعة، وفوجئت في حديث «**أبو النور**» أنه انتظرني في قرية حواره ورآني أعبر مسرعًا وبعدها لم يراني، لكنه سألني سؤالًا غريبًا:

ـ هل حدث معك شئٌ غريبٌ أو تعرضت لأي خطر في الطريق؟! وتحديدًا بعد مرورك عن الحاجز بقرابة العشر دقائق أو ربع ساعة؟!

خضني سؤاله مما أحدث قشعريرة في جسدي:

- نعم، كدت فقدان السيطرة على السيارة حتى أوشكت أن تنقلب، ولكن لماذا السؤال؟!

- فأجاب أبو النور الذي بدا منفعلًا:

- الله أكبر، لقد أحسَّ حسنُ بذلك وهو يلهج بالدعاء وعندما سألناه عن الخطب قال:

- جهاد يمر في مأزق أو خطر، فبدأنا بالدعاء لك، وصدقني أن حسن من أهل الله، «**وربنا فاتح عليه**».

وقبل أن أصعد إلى الباص لإيصال الشباب إلى البيت، اقترب أبو النور من النافذة وخاطب المجاهدين بحزن وفخر: سامحوني يا إخوة إن قصرت معكم، وأستحلفكم بالله أن تدعوا لي، يا حسن يا صلاح يا عبد الكريم، والله إنكم سادتنا وعلى رؤوسنا، وفقكم الله.

وابتعد بسرعة قبل أن يلحظ أحد شيئًا، وكانت عيناه توشيان بصدق حديثه، وعندما هممت بفتح باب السيارة ذكرني:

- يا جهاد، يوجد طبقٌ من الكنافة إلى جانبك لا تنسَ إعطاءه للشباب فعبد الكريم قد اشتهى ذلك.

-

كان أبو النور رجلًا عظيمًا يتابع جميع التفاصيل، وقد انتهت مهمته عند هذه النقطة، فانتظرني عند مفرق الرام الذي يمتاز بحركة نشطة للسيارات والمارة وكثافة في المحال التجارية لقربها من بلدة الرام، في الوقت الذي ذهبت فيه إلى المنزل في بير نبالا التي لا تبعد كثيرًا عن المفرق، حيث كان مبنيًا في منطقة منعزلة ونهاية أحد الشوارع الواقعة خلف مسجد بير نبالا الأمر الذي جعله بعيدًا عن الأعين، هناك! وجدت صاحب المنزل زياد ينتظرنا حسب المتفق عليه، وكان يعلم أن هدف إيوائه للمجاهدين، تمكينهم من رؤية ذويهم خلال بضعة أيام، حيث فتح البوابة الخارجية والمتصلة بجدارٍ يحيط جميع المنزل من كافة اتجاهاته، وأسرع إلى مصف السيارات الواقع تحت منزله ففتحه، وهناك بدأ يساعدني في إنزال الحقائب لتمكين المقاتلين من النزول حيث كان متشوقًا لرؤية حسن الذي كانت تربطه به معرفة سابقة، وفي اللحظة التي رآه فيها عانقه بشده ورحب بأَخَوَيه:

- أهلًا بالشباب، تفضلوا إلى بيتكم الصغير.، ثم صحبوه إلى أعلى.

أعدنا الحقائب بسرعة إلى الباص وغادرتهم عائدًا إلى «**أبو النور**» الذي كان ينتظر بصبر وهدوء، طمأنته على الشباب ووصولهم بأمان إلى مقرهم الجديد، وعندما هممت بالمغادرة بعد توديعه، نادى عليَّ:

- يبدو أنك نسيت إعطاء الشباب طبق الكنافة.

- وهمَّ بإعطائي إياه، فاعتذرت عن أخذه لأنني سأعود مشيًا على الأقدام لمسافة لا بأس بها، فأصرَّ قائلًا:

- عبد الكريم طلبها بنفسه

لكنني اعتذرت مجددًا وافترقنا على ذلك، ولا أدري في حينها، أكنت مقنعًا! فما يضيرني لو حملت الطبق بيدي وأنا أسير! قد أكون تذرعت بذلك، لكنَّ خوفي هو الذي كان يتحدث عني، خوفًا غير الذي يجعلك جبانًا، لكنها اللحظة التي تضعك في دائرة حمراء جد خطيرة، تدفعك لأن تتجرد من بعض المفردات التي تراها في حينها غير مهمة، في الوقت الذي يراها الغير جزءًا من يوميات الخطر الدائم والتي تحفظ التوازن النفسي وسط قانون الاضطراب المتواصل، على الأقل! هذا الذي أقتنعُ به الآن وكان يدركه أبو النور الذي غادرني بابتسامته، رغم حزنه على عبد الكريم.

كان الأربعة ينتظرونني على العشاء الشهي الذي سبق وأن جهزته زوجة زياد التي كانت تعرف أن ضيوفًا سيقدمون عند زوجها، لكنني لم أستطِع الأكل والسبب عائد إلى الوضع النفسي الذي خلّفته مسؤوليتي الجديدة عن حياة هؤلاء الرجال، أما شهيتهم، فقد كانت مثارًا للإعجاب، يتناولون الدجاج المحشي دون أن يقلقهم ما أقلقني، وبعد الانتهاء من الأكل، عقدنا اجتماعًا لوحدنا بعد الاستئذان من زياد الذي كان يوفر لنا الراحة.

* * * *

كانت مهمة الاجتماع تحديد الشروط التي ينبغي توفرها حتى ينجح العمل على أكمل وجه، ومناقشة تفاصيل التصور لعملية التنفيذ، لم يكن الأمر بتلك الرسمية المعهودة في الاجتماعات التي تحمل أهمية ما ننوي القيام به، حيث جلسنا أربعتُنا دون أوراق وأقلام وضوء خافت يتدلى من السقف تمامًا كالأفلام البوليسية، إنما بسؤال بسيط من عبد الكريم:

- ألا ترون أن هناك شيئًا غريبًا في البيت؟!

فنظرنا جميعًا إليه، ثم أكمل:

- لا أسمع صوت الأطفال!

فوافقه صلاح على ذلك:

- هل تعلمون أن صراخ الأطفال يصنع التوازن الموسيقي في الأُذن والنفس؟!

ضحكنا جميعًا، لكنه كان يتحدث بشيءٍ من الجدية:

- أنا لا أمزح، فضحكات الطفل أو بكائه يشعرك بالراحة، أما أن يغيب عنك ذلك بدواعي الأسباب الأمنية يخل بطبيعة الأشياء التي نشأنا عليها.

لم يكن عبد الكريم وصلاح يعلمان بأن صاحب البيت ليس لديه أطفال، وقد ذَكَّرا حسن بأيام أَسره: أَتفق تمامًا مع صلاح، فالمطاردة في بعض جوانبها تُشبه أيام الأَسر، فهناك في السجن لا وجود للأطفال إلا من وراء القضبان في غرفة الزيارة.

عندما أتذكر نوافل الأحاديث التي كانت تشغلهم أحيانًا! ولم أشاركهم التفكير فيها، أراها اليوم بشكل مختلف تمامًا كما كانوا يفهمونها، فأن تكون مقاتلًا تعيشُ حياة المطاردة والاختفاء عن الأعين أشهرًا طويلة وربما سنوات، يصبح لزامًا عليك التكيّف المستطاع وتناول الحياة بأدواتك، وهذا ما لم أستطِع إدراكه في حينها وهم يتحدثون عن شئ لا يشغل أدنى حيّز في التفكير لدي، سوى لحظات صادقة أمنحها لأبناء أشقائي عندما أراهم، عندما تجلس لتقرر أمرًا بحجم ما كنا ننوي القيام به، لا يمكنك الحديث عن غير ذلك، إلا إذا كنت واحدا منهم! بالمفهوم الحرفي للكلمة، صحيحٌ أن زكريا قال لي ونحن عائدون من نابلس:

- لقد أصبحت منهم!، إنما من غير الواقعية أن أزعم أنني في حينها كنت مثلهم، وإلّا لأحببت أن أسمع بكاء طفل وضحكاته بعد البكاء.

تعاتبني قواعد السرد في عالم الرواية: لماذا تقتلني بسرعتك؟! ألم يعطني أسياد الرواية الواقعية حقي في الحياة على ظهر الأسطر؟! ثم كيف تتخلى عن حقك في احتضاني كما يجب؟!.

- لم أفعل ذلك! إنما رجوت قلمي أن ينضبط طائعاً لمقامك، غير أنه يخذلني كلما حاولت أن أرسم ظل الزوايا، يدفعني إلى حيث لا أستطيع مقاومة أنفاسهم المباشرة التي تتزاحم مع الأحداث، ودعيني أستميحك عذراً، ففرسان الحكاية طوّعوا كل قوانين الكتابة، ليس بضوابط التقليد الروائي! إنما بأدب البندقية هنا على أرض الحكايات!، فتعالي معي نظفر بحكايتهم وسيعذرنا الباقون ما داموا لم يمزجوا حبر أقلامهم بالدماء!.

اتفقنا في الاجتماع على كل شئ، على أن تكون الاستعداداتُ جاهزةً غدًا السبت ما لم يحدث أي عائق أو طارئ:

ـ وفقك اللهُ يا أبا عمر

كانت كُنيةً أطلقها عليَّ حسن عندما حضرت إلى البيت حتى لا يكشف اسمي أمام صاحب البيت «**زياد**» والذي لم يكن يعرفني، وقد راقت لصلاح الذي كان لا يقل حماسةً عن أخويه لتحقيق ما اجتمعنا من أجله، كانت كنية جميلة لكنها بدون رصيد فلم يكن هناك زوجة حتى يكون، وأحسبُ أن نازع الفطرة يومها قد تخلى عن مطلبه لصالح رهبة الموقف، وعندما وقفت أهم بالتحرك، سلمني حسن مبلغًا من المال:

ـ قد لا تكفي هذه النقود، لكن الله عز وجل سيباركها لأنها مصحوبة بدعاء الآلاف من أمهات وزوجات وبنات الأسرى الذين ينتظرون نتائج ما سنفعله.

كانت ألف وأربعمائة دولار، جميع ما تملكه المجموعة لتنفيذ أخطر المهمات على الإطلاق، يستغرب أو لا يستغرب المرء في حينها: نُقاتل دولة ببعض دولارات! قد لا يستسيغها العقل المادي بحسابات الربح والخسارة، لكنها لم تشكل فرقًا كبيرًا لدى من يستعيض عن ذلك بتقديم دمه عوضًا عن ذلك، فكم يفتدي صاحب المليارات نفسه إذا وقع تحت سيف الموت؟!

- هذه النقود يا أبا عمر....

حاول عبد الكريم إخباري شيئًا فقاطعه حسن، لكن صلاح الذي يحمل الصفات الغزاوية الانفعالية أكمل:

- هي شخصية لحسن كان قد أحضرها من بيته بعد المطاردة، فالوضع المادي لدى الجهاز العسكري مخزٍ للغاية، لذلك علينا الاقتصاد ما استطعنا.

غادرتهم ليلتها وهم متحفزون للقيام بالمهمة، حديثهم عن إخوانهم في نابلس وغزة الذين كانوا ينتظرون سماع الخبر الذي سيحدث ثورة في كل بيت، لكن حسن ما انفك ينظر في مجلة كان قد أحضرها أبو النور وعلى غلافها فلاحة من ريف فلسطين، كانت تُسمى فرحة البرغوثي، كادت في لحظة من اللحظات أن تؤجل اسمها حتى يعود ولدها نائل، الغائب وراء حدود المنطق في سجون العدو منذ عام ثمانية وسبعين!، يا الله! تقول في العجز أبياتًا من الارتجال الشعبي فتحرج به عجزنا لفصاحة المظلوم! يدعوك لمأدبة بكاء لا تشبع منها، فلا يحررك بعدها فلست ضيفًا ما دمت تزعم أنك استظللت يومًا بشجرة زرعها ولده من أجلك! أو غرسها نائل من أجلك

تقول فرحة وهي تعدد أسماء المقابر التي زارتها بحثًا عن نائلها أنها....! فيستميح الصحفي حزنها للمقاطعة:

- وهل تسمين معاقل الأبطال قبورًا يا والدتي؟!

فيرد وجعها عليه وهي تُخرج بعض حبات الكستناء من كانون الجمر لتطعمه، فقد كان نائل يحب الكستناء:

- السجون يا ولدي مقابر الأحرار، أرأيت لو أنك حبست غزالًا في قفص، سيموت قهرًا، وولدي محكومٌ عليه بالموت ما دام في تلك المقابر

بدا عجز الصحفي وقد أفحمته عجوزٌ موجوعة، تُراب المقابر في عسقلان ونفخة لا على ثوبها الذي كانت ترتديه كلما زارته، تقول وهي تهدي الصحفي ابتسامة عِزّة: نائل، ولدي الأصغر، يجب أن يراني بهذا الثوب، ثم تصمت فجأة فيحثها بإلحاح الصحفي على الإكمال:

-- وعدته أن أزفه لعروسه بهذا الثوب، فأرتديه كلما ذهبت إلى مقبرته حيث أبث فيه الحياة.

لم ينفك حسنُ يقرأ كلمات العجوز وقد التقى ولدها في مقبرة سجن الجنيد يوم أن كان زائرًا للمقابر مدة عام، يقول لي ذات مرة ونحن في فماغوستا:

- أترى العيب؟! نحن العيب!

فاستهجنتُ عليه جلد الذات إلى هذه الدرجة، فأُسكت حياديتي!! نعم أُسمي حديثي بالحيادية، ولم أفعل شيئًا سوى تهدئة ثائرته، فقال:

- عندما عانقته يوم أن تحررا معًا، وها أنا على شاطئ بحر ونائل وإخوانه تحلل أجسادهم في المقابر، يأكلها الغيظ من كسل عزائمها، أفلا تسمي ذلك عيبًا؟!

ـ لله درُك أيها الحسن، ما أعظم أن يتحرر الإنسان من عقدة العيب، نعم! لا أقول أني كنت أعيش تلك العقدة بالعمق الذي كان يحياه حسن! إنما تقتلني لحظات عجز، عندما تبكيك قصص الرجال التي تأسر حريتها الجدران.

طلع صباح الليلة التي مضت وقد نامت عيناي من الإرهاق النفسي قبل الجسدي وبقي الساكن بين الأضلاع مستيقظًا يتحاور مع الضمير الذي بات يرى نائل وزوج دعاء وابنتهما. انطلقت يوم السبت أبحث بين الأصدقاء عن سيارة باص صغيرة تكون مناسبة للعملية، لكنني لم أستطع توفير ذلك مما يعني صرف النظر عن هذا الخيار الذي كان الأسلم من وجهة نظر المجموعة في وقت لا تتوفر فيه الإمكانات اللازمة لتحقيق المطلوب، لذلك انتقلت إلى الخيار الثاني عبر البحث لدى معارض تأجير السيارات العربية في القدس الشرقية، فلم أجد ما يناسب مهمتنا، حيث لم يكن مفرٌ سوى اللجوء إلى معارض السيارات اليهودية في القدس الغربية والمحتلة عام ثمانية وأربعين، لكني أخرت الأمر إلى يوم التنفيذ الذي يلي السبت، وبدأت بشراء مستلزمات التنفيذ من أقفال وجنازير وأكياس كبيرة إضافة إلى قبعات المتدينين اليهود حيث كانت مهمة سهلة بالقياس مع تنفيذ رغبة حسن الجامحة بأن تكون الملابس التي سيرتديها يوم التنفيذ من معرض والده، لم أشأ حينها مخالفة رغبته التي تعني مواجهة نفسية قد أضعفت فيها واستسلم لدموع والدٍ يبحث عن كلمة تطمئنه على ابنه الجريح.

استجمعت شجاعتي ثم دخلت على والد حسن يطاردني هاجسٌ لم أتغلب عليه سوى اللحظات الأخيرة:

- تريد ابتياع ملابسٍ من أبٍ قد تكون كفنًا لولده؟!

رحب بي بحرارة كعادته ثم أجلسني على مأدبة الشاي التي لا يمكنك أن تتجاوزها في خان الزيت، بعد أن اشتغل أبناؤه عنا باستقبال الزبائن، وعيناه توشيان عن خوف سيحوله إلى كلمات كنت أستحلفها أن تخرج من فمه، فقد طلب مني حسن أن آتيه حتى بأنفاس والده وإخوته:

- يا ولدي! يقولون أن حسن مصاب!

كان يرجوني أن أُطمئنه بالنفي حتى ولو لم يعرف بأن لي علاقة بولده:

- استعذ بالله يا عم! من الذي أَشاع ذلك؟!

اقترب المسكين إليَّ وهو ينظر من حوله:

- لا يا ولدي! أخبارٌ تأتي من هنا وهناك، وأنا خائفٌ عليه، حتى إنهم يقولون بأن إصابته خطرة

حينها كاد الحذر أن يخونني وأنا أعرف بأن كلمة مني تريح هذا الرجل، لكنني لم أستطِع، ولم أسمح لضعفي بالاستسلام:

- لو كان الأمر كما تقول لذهبوا به إلى المستشفى، ولكن أنا متأكد أنه بخير

نظر إليَّ أبو حسن بسرعة، لكنني تداركت:

- فحسن حذرٌ جدًا وسيطمئنك الله عليه قريبًا، المهم أن تدعو له ولإخوانه

عندها ابتسم وهو يتحدث بعزيمة:

- يقولون بأنه من قتل الشرطي قبل فترة، أنا أعرف حسن، وإلا لماذا يبحثون عنه بهذه الطريقة المجنونة!

قد يكون ذلك تناقضًا، يخاف على ولده حد الموت، وفي ذات الوقت يتمنى بفخر أن يكون ولده قاتل ذلك الصهيوني؟!- ذلك ليس صحيحًا، وخاصة عندما تكون مظلومًا، فأن يموت خوفًا على فلذة كبده فتلك الفطرة التي أودعها اللهُ في دم الآباء والأُمهات، لكن دفع الظلم أيضًا حاجةٌ تطلبها النفوسُ الحرةُ، وأبو حسن، حُرٌّ يرى الظلم كل دقيقة في القدس، وأخيرًا تجرأت:

- أرجو يا عم أن تنتقي لي بعض الملابس التي سآخذها معي إلى قبرص كهدية لصديق.

- بكل سرورٍ يا ولدي، وهل تعرف المقاس؟

- ليس بالضبط، ولكن طوله متوسط وجسمه ليس ممتلئً .

ضحك وهو يبحث لي عن الطلب:

- أكيد ليس بطولك الفاره ونحافتك

كانت كلماته الطيبة والصادقة والبريئة تقتلني، تحاول العبرات من عينيّ، لكنَّ كلمته الأخيرة كادت أن تفعل فعلها:

- ربما حجمه مثل حجم حسن؟!

قالها وهو يقلِّبُ الملابس، فأجبته بسرعة:

- تقريبًا يا عم

وقد زاد عليَّ قائلًا:

- كم أشتاق إليه، أتدري؟! لقد اكتشفت أني أفتقد أيضًا إلى مشاكله في الخان، وأظن أن الزعران الذين كان يؤدبهم يفتقدون إلى رجولته.

وبعد انتقاء الملابس، رفض أن يأخذ الثمن معتبرًا إياها هديةً لي، لكنني لم أقبل، وأصررتُ على الدفع، وبهذا عادت نقوده إليه، وتحققت رغبةُ الاثنين، لكن كلمة قالها لي حسن وهو يوصيني بشراء الملابس من عند والده، ظلت تتردد في أُذني وأنا أنظر إلى والده:

- أريد في آخر أيامي أن ألبس من عند والدي

لماذا لم أسأله لحظتها عن ذلك، كيف تقول بأنها آخر أيامك؟!، لقد تعرضتَ للحظات موتٍ محققة وها أنت الآن تتحدث عن آخر أيامك، كنتُ أحاور نفسي بعد أن غادرت المعرض، ولعل غُربة الدراسة تجعل الإنسان أكثر تفكيرًا ووقوفًا عند المعاني الظاهرية للحياة وهو يرى أُناسًا يعيشون حياتهم كيفما يشاءون دون أن يضبط إيقاعها الغرباء، بينما في القدس للحياة مفهومها الخاص لدى الأحرار.

كلما فكرت في تلك اللحظات التي كنا نهاجم فيها الجنود المدججين بالسلاح دون حسابات الحياة وقانونها الطبيعي، أراها جنونًا لمفهوم شباب فماغوستا الذي يرى العالم من خلال سيارته وصديقته الجميلة وألبسته الفاخرة وأخيرًا درجته العلمية كجزء من البريستيج العصري، وبمفهوم حسن، أراه جنونًا من نوعٍ آخر، جنونًا يطلبه العقلاء حتى يتعافوا من مرض الاستسلام لواقع الاحتلال؛ لذلك لم أستطع ذات مرة إقناع أوروبي في قبرص يعيش في فضاء المثالية حين سألني:

- كيف تواجهون الدبابات بالحجارة، هل أنتم مجانين؟! لماذا لا تحافظون على حياتكم! الغبي!!، نعم، كان غبيًا إلى درجة السذاجة، لذلك تركته إلى غبائه، لكنني أسديتُ لعقله خدمة:

- الجنون في تعريفنا أن تجعل الدبابة تنتصر عليك، لذلك، قاومها بلحمك حتى تلوكَكَ جنازيرُها فتعطبُ أهدافُها.

وفي مساء السبت بعد الغروب، تسللتُ إلى البيت دون أن يلحظني أحد من المحيط حيث كنت قد اتفقت مع الشباب أن لا أحضر إلا ليلًا كوني غريبًا عن المنطقة، ولدى دخولي المنزل، لمحتني زوجة زياد وأنا أحمل بيدي الأكياس السوداء فشعرت بالقلق وأظنها بدأت تفهم أن زوار زوجها ليسوا من الضيوف الطبيعيين وإلا لماذا لم يخرجوا من البيت مطلقًا منذ ليلة الأمس؟! وما هذه الحقائب التي يضعونها في الغرفة؟! لذلك استنفرت قواتها الدفاعية وأشهرت اعتراضها الواضح أمام زوجها:

- لقد تحولت ضيافتك من سلمية إلى مشبوهة، مَن هؤلاء يا زياد؟!

- أخفضي صوتك يا امرأة، هؤلاء ضيوفي من....، تلكأ زياد فاستعجلته:

- من أين؟! سألت وهي تضع كلتيّ يديها على خصرها وتهز قدميها وكأنها أمسكت زوجها بجرم:

- إنهم من عمان، ارتحتِ الآن، وسيغادرون قريبًا

فأوقفته بسرعة: لا يا زياد، معاذ الله أن أستعجل رحيل ضيوفك، لكنني أشعر بأمرٍ غريبٍ يحدث

- لا تخافي يا حبيبتي وأكرمي ضيوفك فبذلك تكرمينني

وفي داخل الغرفة التي كانت مقرًا للمجموعة، كان حسن يستنطقني عن أبيه قبل أن يشم رائحة الملابس:

- كيف وجدته؟! باللهِ عليك أن تُطمئنني عليه وعلى إخوتي

كان يعود بسؤاله طفلًا ينتظر الأشياء اللذيذة أن تخرج من جيب والده بعد عودته مساءً من عمله، فيبقى يحوم حول تلك الجيب، ووالده يرقبه بطرف عينه يود لو يحضر له مصانع الحلوى بأسرها حتى يظفر كل لحظة بشغف طفله الذي يجعله أسعد إنسان.

- لقد طمأنته عليك

- ماذا؟!

خرجت الكلمةُ من أفواه الثلاثة معًا وكأني ارتكبت موبقة الزنا

- على هونكم، ليس ما ظننتم. إنما حاولتُ التخفيف عنه، دون أن يشعر بشئ

- المهم هو بخير والحمد لله

قال عبد الكريم الذي كان بعبارته يستحلفني أن أكون قد مررت بوالده في باب الزاهرة دون أن يسأل، لكنني ما كنت لأجرح مشاعر صلاح الذي يغيب عن أهله في مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، فأجلت ذلك للحظة مناسبة قد فهمها من عينيّ.

وضعت المقاتلين في صورة ما أنجزناه والإخفاق في توفير سيارة التنفيذ، وأثناء شرح الخطوة التالية ما قبل الانطلاق غدًا! طرق زياد على باب الغرفة مناديًا على حسن:

- اخرج بسرعة، هناك خبر على التلفاز عن شخص تحبه

وقفنا أربعتُنا قبالة الشاشة، وزياد منشغل عنا بصب الشاي، وجميعنا يرقب ابتسامة ذاك الذي يجبرك على حبه، تقوده عجلات متحركة تحمل ما تبقى من جسده المشلول حد السكون الكامل، ترتجف الكلمات في فم المذيع الصهيوني وهو يطلق اسمه:

- نفت مصلحة السجون الإسرائيلية ما تناقلته بعض وسائل الإعلام المحلية عن تدهور الحالة الصحية لمؤسس حركة حماس الشيخ أحمد ياسين المحتجز في سجن كفار يونا قرب نتانيا والمعتقل منذ عام تسعة وثمانين، حيث أفادت مصلحة السجون أن ياسين ورغم شلله الرباعي الكامل إلاّ أنه يخضع لرقابة صحية من قبل عيادة السجن ولم يتعرض لأي أزمة صحية...

عندها أطلق زياد لعنة من عمق صدره وسط غضب كان يرتسم على الوجوه:

- «**يلعن أبوكم شو كذابين**»

لم نتحدث كلمة واحدة، وكأنَّ الثلاثة يطلبون مني المغادرة واستحلاف السماء أن تطوي ليلها بسرعة، وتهدينا نهارًا سيكون لنا فيه قول آخر، تركتهم دون أن أشرب الشاي وابتسامة الشيخ تقف على حدود العين تحثها على البكاء، لكن لا. لن أسمح لكِ بالبكاء، فالبكاء دون عمل يسميه الحرُ عجزًا وخزيًا وأنتِ لستِ كذلك، لقد بكيتُ معكِ عليه! أتذكرين في فماغوستا يوم أن بكيناه معًا وهو يقودونه من بيت الصفيح في غزة؟! زعموا يومها أن عجلته توشك أن تحرر بيته في عسقلان، فحكموا على جسده المشلول، بالمؤبد مرتين، مرة لابتسامته التي صنعت ثورة، ومرةً لصوت عجلات عربته التي كانت تتحول ليلًا إلى تكبير وحجارةٍ ورصاص.

وانقضت أعنف ليلة على الإطلاق تصارعتُ فيها مع الأرق، أرجوه أن يدعني وشأني فيأبى محتجًا: كيف يروق لجفنيك النوم والحاجة فرحة تبكي نائلها؟! ألا تخشى أن يفوتك الصباحُ إن غفوت؟! وهل نامت أوجعُ الشيخ القعيد في زنزانته حتى ينام جسدّك السليم؟ ألا تسمع معي دندنة الفرسان في بير نبالا وهم يرتلون الضراعة في جوف الليل؟! يسألون سيد الأسباب بدموعهم: يا رب، ارزق مسعانا الخير.

لم يفتني الصبح، التاسع من أيلول لعام أربعة وتسعين وتسعمائة وألف، حيث تجهزت للخروج متسللًا كي لا أكون مطلوبًا لتنفيذ مهمة عائلية، لكن شقيقي الأكبر أبو محمد كان ينتظرني بذلك:

- خذ الشاحنة واذهب مع مهندس الشركة التي نتعامل معها لإزالة بعض الأتربة التي تغلق أحد الشوارع

يا إلهي، هذا ما كنت أخشاه، أن يطلب مني الذي رباني وكان في مقام والدي، طلبًا في هذا اليوم الحاسم:

- أعتذر منك يا أخي فأنا على موعد مهم مع صديق

- يا رجل، هذا رزقنا، وأنا لا أستطيع الذهاب، فالنجار سيأتي لعمل بعض التصليحات في البيت ومن غير المعقول تركه لوحده، اذهب لساعة واحدة فقط

فذهبت، وكانت الضفة والقطاع مع القدس الشرقية في الإضراب الشهري الذي يأتي مرة كل شهر في مثل هذا اليوم، حيث أنجزت العمل خلال ساعة ونصف، ولدى تحركي للمغادرة طلب مني مهندس الشركة الذي كان صديقي أن أتوجه معه إلى مكان عملٍ آخر:

- اسمع، لن آتي معك وبالعربي الفصيح لن أعمل اليوم ولا تخبر أخي بذلك، هذا الذي عندي والسلام عليكم

لم يكن أمامي سوى فعل ذلك، حيث تسللت إلى جوار بيتنا واضعًا الشاحنة هناك دون أن يراني أحد في الوقت الذي كان فيه المهندس يخبر شقيقي بمغادرتي وأنني على غير طبيعتي أتهرب من العمل

كانت الساعة الحادية عشر ما قبل الظهيرة، حيث توجهت إلى شارع الملك جورج في الشطر الغربي من المدينة باحثًا عن سيارة نقل مناسبة بعد أن فشلت بالعثور عليها لدى معارض السيارات العربية، وفي إحدى المعارض اليهودية وجدت طلبي في باص صغير من نوع فلوكسفاجن يتناسب تمامًا مع المهمة، حيث قمت باستئجاره لثلاثة أيام بعد أن دفعت مبلغ ألف دولار تأمين للسيارة وهو جميع ما تبقى معنا من نقود، وقد قدمت بطاقة هويتي ورخصة القيادة حتى أتمكن من استلام السيارة عصرًا بعد أن اعتذر صاحب المعرض عن تسليمها فورًا بسبب حاجتهم إليها

كنت ساعتها بحاجة إلى لحظات هدوء أغصب نفسي عليها، ولم أجد أروح من الأقصى لذلك حيث صليت الظهر هناك، وللصلاة في الحرم القدسي مذاق خاص لا يمكنك أن تترجمه بكلمات وقد مررت على الشجرة، تلك الأم التي يستظل بها الرجل ويعرفها حسن جيدًا:

ـ ربما لن أراك مجددًا، من يدري فقد تبكين على فراقنا كما ذرفت الدموع على روّادك الشهداء من قبل

كان عليّ الذهاب بعدها إلى بيت العائلة كالعادة، لكنني خشيت من أي إعاقة غير محسوبة، وتحديدًا بعد هروبي في الصباح، قد يكون ذلك مستغربًا في واقع المقاومة الجادة السامية إلى تحرير وطن! لكن الاحتكام إلى طبيعة المقاومة السرية، يتحمل هذه الغرابة بل يحبذ أحيانًا مفرداتها، فلن تستطيع إنجاز عمل وسط إثارة الشكوك من حولك حتى لدى عائلتك البسيطة والتي لا تقلُّ وطنية عنك، والسبب في غاية البداهة أنها تخاف عليك فتبدأ بالسؤال عنك إن أطلت الغياب عن البيت، حتى إذا ما اشتمَّت مخابرات العدو ذلك! سارعت إلى كسب المعلومة وتوظيفها، لذلك عدتُ إلى البيت كالمعتاد منذ عودتي من قبرص ففوجئت بشقيقي أبو محمد يأتي إلى البيت سائلًا عني:

- أين الباشمهندس! أقبل إلى هنا، لن أحاسبك على هروبك في الصبح فقد أخبرني صديقك بذلك

رحبت به داعيًا المولى عز وجل أن يعتقني اليوم فقط:

- لا تقل لي اذهب بالشاحنة فأنت تعرف أنني اليوم في عطلة

ضحك أبو محمد: لا، لا، ولكن أبشرك أنني سأشتري سيارة جديدة من تل أبيب

كان شقيقي سعيدًا بعد أن تحسَّن الوضع المادي للعائلة ويريد أن يشركني بفرحه:

- مبروك يا أخي

ولكن!، سقط قلبي عندما قال:

ـ لكن...

فعرفت أنه يريد شيئًا

ـ أريدك أن تأتي معي الآن إلى هناك حتى تعود بالسيارة التي سنذهب بها

رفضت الأمر بصورة تامة مختلقًا آلاف الأعذار التي لم تقنعه، لكنه استسلم فتركني وذهب شبه غاضب من رفضي، حينها لم أُفكر كثيرًا بذلك لانشغالي بما هو غاية في الأهمية، حيث انطلقت فورًا من البيت قبل أن يطرأ جديد، وانتظرت الموعد المحدد ثم ذهبت إلى شارع الملك جورج وأحضرت السيارة التي كانت بوضع ممتاز وتوجهت بها فورًا إلى محل عربي يختص بالستائر حيث قمت بتركيب ستائر لجميع نوافذ السيارة وفقًا للمواصفات التي كانت جزءًا من الخطة. شعرتُ حينها بأن الله عز وجل يسهل الأمر علينا، فانطلقت إلى بير نبالا للبدء في تنفيذ المرحلة الدقيقة من العمل، وكانت المرة الأولى التي أدخل بها منطقة المنزل نهارًا حيث اعتدت المجئ خلال اليومين الماضيين ليلًا

أدخلت الباص الصغير إلى مصف السيارات أسفل المنزل وصعدت الدرجات القليلة المؤدية إلى داخل البيت، وكنت أتحسب من ملاحظات صاحبة المنزل غير أنها كانت قد غادرت مع زوجها إلى بيت عائلتها نزولًا عند طلب زكريا الذي أقنع ابن شقيقته زياد بضرورة إخلاء المنزل حتى يتمكن الشباب من رؤية ذويهم بحرية، وكان من الضرورة بمكان أن يبقى زياد خارج الصورة مطلقًا.

كان المقاتلون الثلاثة ينتظرونني بفارغ الصبر وقد ارتدوا ملابسهم وجهزوا أسلحتهم، حتى أنهم لم يصلوا العصر حتى أحضر:

ـ السلام عليكم، أعتذر لتأخري فقد حدثت معي أمور ثانوية سأحدثكم بها لاحقًا

فقال حسن الذي كان يرتدي ملابس والده:

ـ دعونا الآن نصلي العصر جماعة ثم نتوكل على الله

كانت أرهب صلاة، تقف ضعيفًا بين يدي الله، لا تدري الذي ينتظرك بعد قليل، لكنك مطمئن لقلبٍ قوي العزيمة ترى عدوك أضعف من أن يغير قدرك فتسلم أمرك لله، والحقيقة! أنك في أبرز لحظات الرهبة والشدة تكتشف كم أنك ضعيف، تطلب العون من قوة تفوق قوة عدوك، فأنت ذاهب كي تصفع كبرياء الغاصبين، أو للدقة، كي تحاول ذلك.

نزلنا أربعتنا إلى السيارة التي كانت باللون الأحمر الغامق، حيث قمنا بإزالة المقعد الأوسط ليتبقى مقعدٌ واحدٌ بعيدًا عن مقعد السائق، حتى يسهل ذلك السيطرة على الهدف بالصورة المثلى، بعدها تم توزيع السلاح وفق ترتيب الجلوس، حيث حمل حسن بندقية رشاشة من نوع «**جليلون**» قد طورها العدو عن سلاحي m16 والكلاشنكوف، وعبد الكريم رشاش العوزي، وكلا البندقيتين صغيرتا الحجم، أما أنا وصلاح فقد حمل كلٌّ واحدٍ منا مسدسًا، وكان القرار حازمًا بالمواجهة حال إيقافنا من جانب العدو ومفرداته، لذلك قمنا بتعمير السلاح، وقبل الانطلاق من البيت جلس صلاح إلى جانبي مؤقتًا ريثما نعبر القدس، وحسن وعبد الكريم في المقعد الخلفي الوحيد

خرجت من بير نبالا متوجهًا إلى بيت حنينا مرورًا عن طريق جبلي حتى نتجاوز حاجز الرام العسكري الفاصل ما بين المنطقتين، الأمر الذي جعلنا نمر من وسط بيت حنينا حيث أسكن أنا وعبد الكريم الذي كان يتوق إلى استراق النظر دون أن يستطيع، وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى مفترق التلة الفرنسية الذي يوزع الشوارع إلى أربعة اتجاهات إحداها ناحية الغرب وهي مسلكنا باتجاه «**تل أبيب**»، حيث قمنا بوضع قبعات المتدينين اليهود كي تتناسب مع أشكالنا الجديدة، اخترقنا مستوطنة رموت التي أوصلتنا بسرعة إلى الطريق السريع والواصل ما بين القدس وتل أبيب، لكن المنطقة هذه بدأت تثير الأشجان في الصدور وتحديدًا بعد حشد الأسئلة التي كان يطرحها صلاح الذي كان يأكل المشاهد بعينيه وكل جوارحه:

- هذه قرية لفتة المهجرة عام ثمانية وأربعين

لم يعلق صلاح الذي ذاقت عائلته ويلات اللجوء والعذاب، حيث كان ينظر إلى البيوت التي لا زالت صامدة بين الأشجار، لكن اللوحة الأشد حزنًا كانت ناحية الجبل حيث قرية دير ياسين الباسلة والجالسة على بوابة القدس الغربية، أعترف حينها أنني لم أستوعب أن أكون دليلًا سياحيًا لصلاح الذي ربما لم يظفر قبل الآن بزيارة تلك المناطق من بلده، فالموقف يحتمل أمرًا واحدًا فقط، أن تكون الأعصاب مودةً لا تفكر سوى بالهدف، بدأنا بالانحدار نزولًا حتى وصلنا إلى منطقة القسطل ورائحة البارود مع الدماء

لا زالت في بقايا معارك الشهيد عبد القادر الحسيني الذي كانت تكبيراته تحرس عبورنا نحو الهدف، ومن هناك انتهينا إلى قرية أبو غوش العربية، وإلى حينها كانت الأمور طبيعيةً جدًا، حيث سرنا مجددًا بين الجبال الحرشية في منطقة باب الواد التي شهدت معركة طاحنة عام ثمانية وأربعين بقاياها من الدبابات الإسرائيلية لا زالت موجودة، وبعد مسافة محددة تجاوزنا مدينة بين شيمش اليهودية وصولًا إلى القرب من مدينة اللد ومطارها الذي اغتصبوا اسمه ليصبح مطار بن غوريون حيث استغرقت المسافة الزمنية بين بير نبالا حتى نقطتنا هذه نصف ساعة.

أوقفتُ السيارة على جانب الطريق وقمت بفتح غطائها الخلفي تمويهًا حتى يرجع صلاح إلى المقعد الخلفي ويتقدم عبد الكريم مكانه وفق الترتيب الأصلي، ولدى صعودي السيارة سألت حسن الذي لا زال صامتًا منذ انطلاقنا على الرغم من أسئلة صلاح الكثيرة واستمتاع عبد الكريم بالنظر إلى كل شئ:

ـ ما كل هذا الصمت يا حسن؟! فأسكتني جوابه:

ـ أدعو الله أن يرزقنا صيدًا ثمينًا ويعيننا على تحرير الأسرى

فعلًا لقد كنا بحاجة إلى معيّة الله في تلك اللحظات الحساسة ونحن إلى القرب من المطار المركزي لدولة العدو وقد أصبحنا على مقربة من ساحة التنفيذ، حيث تقدمت بالسيارة نحو المفترق المؤدي إلى مطار اللد وقد كان يعج بحركة السير النشطة والمرور المكثف لقوات الجيش والشرطة،

الأمر الذي لزم الحذر وزيادة مستوى الجاهزية لدى الشباب الذين كانوا يضعون أيديهم على السلاح استعدادًا لأي طارئ، ووسط هذا المعمعات أو المشهد المركب، كانت لحظات تود فيها الضحك فلا تستطيع فتكتفي بالابتسام وأنت تنظر بالمرآة إلى صلاح الذي اعتمر على رأسه قلنسوة صغيرة هي جزء من تقليد ديني لدى عامة اليهود المحافظين وعلى صدره علم الدولة حتى تكتمل الصورة، بعد أن ارتدى بنطلون الجينز الذي اختاره والده، أمّا عبد الكريم فكان ينقصه هزهزة الرأس للأمام ليصبح حاخامًا أصليًا بعد أن ارتدى مثل صلاح، وبدوري كنت أُماثل حسن بارتدائي قميصًا يحمل علمهم.

لم نشعر بأن هناك أمرًا غير عادي، حيث كان المشهدُ طبيعيًا، فدولة الاحتلال على الدوام في حالة استنفار أمني، يسعى لإثارة انطباع داخلي بأنها في حالة يقظة، وهي في الحقيقة ذعر متواصل يوفر أمنًا لحظيًا لكنه يعجز عن توفير الأمن النفسي لدى مواطني الدولة الغاضبة. انعطفت يسارًا باتجاه الشمال المؤدي إلى مدينة ملبس قديما وتباح تكفا حديثًا حيث عبثت أيدي الصهاينة حتى في أسماء الشوارع وليس المدن فقط، وفي اللحظة التي عبرت فيها الشارع! شاهدت جنديًا يسير على حافة الطريق لوحده ويحمل على ظهره حقيبة عسكرية، حيث كان يبعد عن السيارة قرابة المئة متر، فقلت يا رب عونك، وأطلقت بوق السيارة حتى يلتفت نحونا فنجحت الخطوة الأولى في لفت انتباهه، فأشار بيده حتى نقف له، عندها صرخ عبد الكريم:

- لا نريد هذا الجندي! ليس معه سلاح m16 قصير

كان الأوان قد فات لمجرد سماع طلبه، بعد أن توقفتُ بجانب الجندي وفتحت النافذة حيث بادر بسؤالي عن وجهتي:

- أنا متوجه إلى مدينة تباح تكفا

فاعتذر لي بقوله:

- أنا متوجه إلى أحد الكيبوتسات القريبة باتجاه اليمين

وَلَدَى تركنا للجندي، تنهّد عبد الكريم وهو يردد:

- الحمد لله أنه لم يصعد معنا

- يا رجل نحن نريد جنديًا وليس قطعة سلاح

- لا يا شيخ، نحن بحاجة إلى الاثنين وخاصة m16 قصيرة

كانت ملاحظة عبد الكريم مدعاة لضحكة خفيفة كسرت شيئا من التوتر، أما إصرار عبد الكريم على مسألة الحصول على السلاح كان لها ما يبررها في ظل الشح بمصادر السلاح واعتماد المجاهدين على الغنائم التي يحصلون عليها بعد كل عملية ضد قوات الاحتلال، فلا غرابة أن تنتقل حينها قطعة السلاح ما بين الضفة وقطاع غزة، واصلت السير نحو مدينة تباح تكفا التي كانت أول مستوطنة تقيمها منطقة أحباء صهيون أواخر القرن التاسع عشر،

حيث مررت من أمام المدخل الرئيسي للمطار والذي يحيط به معسكرات لجيش العدو تضفي حالة أمنية متميزة على المنطقة، وبعد سفر كيلو متر واحد والليل بدأ يزاحم بقايا النهار، وقعنا في أزمة سير خانقة، الأمر الذي دفعني لتغيير الوجهة حيث قمت بالدوران والرجوع من ذات الشارع في الاتجاه المعاكس حتى وصلت إلى مفترق مهم يصل إلى شارع تل أبيب الرئيسي في منطقة تُدعى ياهود الصناعية حيث دخلت إلى تلك المنطقة والتي سبق وأن مررت بها كثيرًا أثناء عملي مع شقيقي «**أبو محمد**»، وبعد عدة دقائق وألسنة الشباب تلهج بالدعاء والأصابع تلامس الزناد! لمحت على مفترق في الجهة المقابلة لنا على بُعد مائتي متر سيارة من نوع سبارو تقف جانب الطريق وينزل منها جندي يحمل سلاحه، على الفور عبرت إلى داخل المصانع وقمت بالدوران السريع والرجوع باتجاه مسلك الجندي الذي كان يريد قطع الشارع بحثًا عن توصيلة مجانية، عندها قلت للمقاتلين:

- جهزوا أنفسكم.. وجدنا الصيد

ابتسم عبد الكريم بعد أن رأى الجندي وفق مواصفاته حيث مكَّنه الجلوس إلى جانبي من الرؤية بوضوح وقال:

- يا الله، يا رب ارحم عبادك الضعفاء

وَلَدَى اقترابي من الجندي، قمت بإطلاق بوق السيارة، فوقع في المصيدة، حيث أشار لي بالتوقف، لكنني لم أتوقف إلى جانبه مباشرة بل أمامه بعشرين مترًا حتى يضطر للركض فيتشتت جزء من تركيزه لدى وصوله، وهذا ما جرى بالفعل عندما وصل إلى نافذة عبد الكريم، حيث تحدثت معه بالعبرية:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فأجاب بسرعة: إلى مدينة الرملة، هل أنت مسافر إلى هناك؟

أجبته بنعم، فصعد إلى السيارة ليجلس قرب حسن والمذياع يصدع باللغة العبرية

لم أصدق حينها ولعلني ظننت بأنني لا زلت أتصارع مع أرق الليلة، لكنني ما سمحت لذلك أن يعبث بالتركيز في هذه الثواني الأشد حساسية، محافظًا على تلقائية رهيبة وعدم مبالاة بهذا الراكب الأهم في العالم!! وبدوري أغلقت الأبواب أتوماتيكيًا حيث بدأ العد التنازلي للحظة السيطرة التي سأقدرها عندما تحين الفرصة، وأتمكن من الخروج من أزمة السير التي كانت على المفترق الرئيسي أثناء عودتي باتجاه المطار، وهي العائق الأبرز لإعطاء الإشارة حتى لا يشعر أحدٌ بنا أثناء الزحمة وبعد دقائق قليلة كانت ساعات أطول من أي وقت مضى، خرجت من تلك الأزمة وتوجهت يمينًا باتجاه المطار عائدًا ناحية القدس، عندها لمحت الجندي يحاول الحديث مع حسن:

- من أين أنت؟

لم يجبه حسن الذي لم يكن يتقن العبرية متظاهرًا بأنه يتحدث بصورة منخفضة مع صلاح، فانصرف الجندي بفضوله عن حسن، وكان واضحًا أنه لم يشك بشئ مريب على الرغم من أنه كان يضع بندقيته على قدميه دون أن يكون فيها مخزن الرصاص حيث تحظر القوانين على الجنود فعل ذلك داخل دولة الاحتلال في حدود ثمانية وأربعين وطيلة هذا المسافة القصيرة نسبيًا كانت العين ترقب الجندي تارة والطريق تارة أُخرى والشباب ينتظرون الإشارة، حيث ازدادت سرعة السيارة بعد دخولنا منطقة حرشية من كلا الجانبين معسكرات الجيش تملأ المكان، عندها! كان أخطر قرار أتخذه في حياتي، نجاحه كفشله يحمل ذات الخطر والأهمية من حيث الاضطراب والموقف الصعب، فأعطيت الإشارة! فأصبحت رقبة الجندي تحت ذراع حسن الذي تحوّل إلى بطل مصارعة مطلقًا صرخة زلزلتنا قبل أن تزلزل أوصال الجندي الذي تحرك بسرعة خيالية أربكتنا جدًا قبل أن يهُبَّ صلاح وعبد الكريم لمساعدة حسن، حيث ألبس الجندي مخزن الرصاص وعمّر البندقية، لحظتها توقف المشهد في المرآة التي كنت أراقب منها تفاصيل الدراما، وصوت الأقسام التي أصعدت الرصاص إلى بيت النار يأخذ دور البطولة في المسرح، يا إلهي! لم يقلها لساني وقتها، لأن اعتبار الزمن لم يكن واردًا في تلك الثواني الخاطفة، بل قالتها ارتعابة العينين وارتعادة اليدين وهما تقبضان على مقود السيارة التي اهتزّت من وقع الطارئ الذي لم يكن في الحسبان، أينتهي الأمر بهذه الطريقة؟!

صاح حسن الذي لا زال يقبض على تلك الرقبة التي تحررت عنها اليدان والبندقية:

ـ اقتله يا صلاح، اقتله

كان خيارًا رآه حسن للخروج من المشهد بأقل الخسائر وهو يشعر بلهب الرصاص قبل أن ينطلق من رشاش الجندي الذي تحوّل رعبه إلى حركة أوتوماتيكية، لكن ثانيتي الزمنية صرخت:

ـ لا، انتظر

كنت أستحلف عونًا من الله ونصرة، جاءت في انكفاءة عبد الكريم إلى الوراء، عائدًا كصقرٍ سيموتُ جوعًا وقهرًا إن لم يظفر بصيده، حيث التقط مسدس صلاح وضرب به رأس الجندي المنتفض كالثور، فخارت هائجتُهُ لثوان معدودة والدم ينفر من رأسه، عندها أكمَل عبد الكريم رائعة تدخله السريع، بسحب مخزن الرصاص من البندقية وصلاح يتعارك مع بقية الجندي الذي بدأ بالصراخ والعويل في الوقت الذي لا زال فيه حسن يتحاور مع رقبته بشدة، وكنت حينها أسرق نظرات نحو الطريق الممتلئة بالحافلات تخمينًا من تلصصها سواترَ نوافذنا والليل الذي ينزل على مسلكنا، وقد أعطاني عبد الكريم مخزن الرصاص فوضعته تحت الكرسي حتى لا نفاجئ بطارئ كالذي حدث.

استفاق الجندي من ارتخاءته الخاطفة، وهو يصارع باستماتة الدافع للخطر الذي لا يدرك كنهه، لكنه في هذه المرة قد بدأ يخسر الجولة، ولعله أدرك وهو يحاول تحرير جسده من الأيدي التي تكاثرت عليه، أن تلقائيته العسكرية قد فقدت امتيازها بعد محاولته الأولى، لكن فمه لم يسكت عن الصراخ والبكاء في الوقت الذي قيَّد فيه المجاهدون يديه وقدميه وأحكموا السيطرة عليه بوضعه تحت أقدامهم، عندها فقط!! كان المشهد الذي لم نعرف قياس وحدته الزمنية، يوشك على الانتهاء من لحظة الذروة، وأجساد ثلاثتهم التي أرى التصاقها تستعد لاستقبال دموع النصر، حيث تجاوزت انتباههم أصوات الجندي التي لا زالت تخرج بقوة من خلف القماشة التي كمموا فيها فمه، يقبضون على أسلحتهم مجددًا وأطراف أيديهم تجفف عرق السيطرة على كبرياء جيشٍ يئن كالجرد تحت أقدامهم.

يصرخ الجندي راجيًا:

- لا تقتلوني، أرجوكم لا تقتلوني

والشباب تأمره بالصمت فلا يستجيب، حيث تكلمت استماتته على الحياة مرات ومرات:

- لا تقتلوني

عندها كان لا بد من إسكاته قبل أن يعترضنا حاجز عسكري طارئ أو أي مفاجأة أخرى، فنحن لا زلنا داخل أرضنا المحتلة عام ثمانية وأربعين نتحرك في منطقة خطرة للغاية تستوجب أقصى درجات الحذر، فطلبت من الشباب الهدوء ومنحي دقيقة للحديث معه، حيث خاطبته باللغة العبرية:

ـ إذا أردت أن لا تموت فاسمعني قليلًا

فكف عن العويل والترجي

ـ نحن كتائبُ القسام- الذراع العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس، أسرناك حتى نطلق بك سراح الشيخ أحمد ياسين وإخوانه الأسرى من سجون الاحتلال الإسرائيلي.

فأجاب بهدوء ممزوج بالخوف والرعب: يعني لا تريدون قتلي؟!

ـ بالطبع فنحن نريدك حيًا وليس من مصلحتنا قتلك

وهنا كانت المفاجأة: أعدك أن لا تسمع صوتي وأن لا أفعل شيئًا

ورغم أنه كان مطروحًا على أرضية السيارة كإجراء لا مفر منه لحظتها، إلا أنه التزم الهدوء الكامل، إلى حين تطوعه بالحديث لوحده، وكأنه يريد استعطافنا كإجراء وقائي:

ـ أنا لم أعتدِ على أي فلسطيني ولم أعمل ضد الانتفاضة، فأنا أخدم في وحدة جولاني في جنوب لبنان

كان حسن وعبد الكريم يفهمان القليل من اللغة العبرية، لكن صلاح كان ينظر إلى عينيّ في المرآة وهو يسألني:

ـ ماذا يقول؟

ـ يحاول تبرئة يديه من دمنا، وكأن اللبنانيين ليسوا من دمنا

ـ فسأله حسن: من أين أنت؟

- أنا من القدس

حينها ضحكنا جميعًا دون أن نخرج صوتًا، فقد كان الجندي «**بلدياتنا**»، فاستمر حسن بحديثه: وإلى أين أنت ذاهب؟

- إلى بيت صديقتي في مدينة الرملة حتى أقضي الإجازة معها

لم نكن في وضع نفسي مستقر وبقي التوتر حاضرًا فلا زلنا نواجه الخطر ولكن، كان لا بد من تقييم سريع للوضع:

- ما رأيكم، هل نعود لإحضار جندي آخر وفق الخطة؟

كنا قد خططنا لذلك منذ البداية ولعلنا ظننا بأننا قادرون على ذلك، غير أن الإرباك الذي حصل معنا والتجربة العملية التي حدثت قبل دقائق دعتنا جميعًا للتروي، حيث قال صلاح:

- أرى أن ننسحب الآن بهذا الجندي وبالإمكان العودة في يوم آخر،

وافقناه الرأي مجتمعين، ولا أظننا لحظتها قد خالفنا المنطق الذي تحدثت به كل جوارحنا، فالحكاية أقرب للخيال: نحن نمتلك جنديًا!! نعم جنديًا من جيش عدونا الذي قالوا عنه يومًا بأنه لا يُقهر! دعوا فمي يضحك، يقهقه، يصرخ، يُطلق ألعابًا نارية، لقد قهرناه اليوم! يرعب الطفولة الوادعة في السرير وقد رقدت عينُ سلمى الصغيرة في الصباح بعد أن أسهرتها ضحكاتُ الباب الأخيرة

قبل أن تسرقه رصاصات جندي قتله ومشى، يحتضن خوفها صدرُ ماما الذي جف فيه البكاء، فالبكاء للمظلوم غذاء! ويح سفالته من جندي يغتصب إنسانية ماما بعينيه، يبحث عن شهوة جُرمه خلف ثوبها القروي، ثم يترك ألعاب سلمى بين قدميه معتذرًا، فإن لم يقم بذلك ستتهمه الطبيعة بأنه ليس صهيونيًا!.

بعد اتخاذ قرار العودة إلى بير نبالا، تم تبديل خط سيرنا ليعبر من طريق تل أبيب- رام الله، حيث كنت قد درست هذا الطريق جيدًا، على أن الخطورة في درجتها القصوى لا زالت قائمة بوجود الحاجز العسكري قرب قرية بيت عور ومستوطنة مودعين والذي يشكل نقطة عبورنا الوحيدة للضفة الغربية.

هنا، قام المقاتلون الثلاثة بوضع الجندي في كيس كبير باللون الأسود بعد أن ضمنوا مكانًا لتنفسه ولا زال ملتزمًا بالصمت حيث أكدوا على فمه جيدًا.

سأل حسن وهو يعيد فحص جاهزية بندقيته:

- هل لازالت عادة إجراءات هذا الحاجز قائمة على حالها؟!

كان حسن يريد تأكيد ما نعرفه معًا من عدم إيقاف الحافلات المغادرة لأرضنا المحتلة عام ثمانية وأربعين باتجاه الضفة حيث اهتمام العدو بالداخلين إلى عمقه فقط، ولكن لا يمنع الأمر من حالات شاذة.

فتدخل عبد الكريم يقلل من القلق:

- يجب أن نكون مستعدين جيدًا دون تهور فالأمر يستحق عدم التسرع حال إيقافنا.

وفي اللحظة التي كنا نتبادل فيها هذه الكلمات القليلة، كنا نقترب من الحاجز العسكري الذي تمر منه السيارات بعد أن تبطئ من سرعتها حيث يقف جنديان على حافة الرصيف من كلا جانبيه، يهتم أحدهما بالمراقبة الدقيقة للعابرين في الاتجاه المعاكس.

- انتبهوا يا شباب! أحدهم يقف على مسلكنا وينظر إلى السيارات

كانت النوافذ معلقة بالستائر والليل جنديٌ في صفوفنا، غير أن الحاجز مضاءٌ جدًا، فسألني صلاح عن طبيعة توزيعتهم وكل ذلك في ثوانٍ معدودة والحافلات من أمامنا وخلفنا: الجندي على يسارنا ويحمل الرشاش كالعادة، وهناك جنديان داخل الغرفة الزجاجية والرابع يدقق في المسلك الآخر.

اقتربنا كثيرًا فأصبحت السرعة بطيئة جدًا، والتوتر بدأ في حربه ضدنا فهذا المقطع من الحكاية، أدق تفاصيل الخطورة، فدولتهم وجيش دولتهم تحت أقدام المجاهدين، عندما أفكر في ذلك، أقرر عدم العودة للتفكير به حتى لا يفقد الموقف نوعيته، وقد سألت نفسي حينها:

- هل هذا ما يسمونه بالجنون؟!

لم تجبني نفسي؛ لأنني تفاجأت بأمر طارئ: استعدوا يا رجال

- سأل حسن بسرعة: ما الذي جرى؟!

- لقد خرج الجنديان من الغرفة الزجاجية بسرعة

كان ذلك في اللحظة التي عبرت فيها حدود الحاجز، الأمر الذي لا يمكنك فيه سوى الاستمرار في السفر البطئ أو إيقاف السيارة وإطلاق النار.

استنفر المقاتلون وحسن يلهج بالدعاء، وأنا لا أفهم ماذا يحدث في الحاجز وسرعان ما تجمع الجنود حول سيارة بيضاء يفتشون ركابها، في الوقت الذي أصبحت فيه خارج الحاجز وقد فصل الجنود عن سيارتنا نصف متر!

ـ نصف متر عن جنديهم المقيد

كان الثلاثة ينظرون إلى المرآة بانتظار الإشارة:

ـ قولوا الحمد لله

فحمدوا الله جميعًا، وسكن حسن الذي لجأ بكلِّيته إلى المولى عز وجل، فقد نجحنا في مرحلة حساسة من العملية، وعلينا أن نكمل ما بدأناه بحكمه:

ـ الحمد لله يا شباب، لقد نجحنا بتجاوز حاجز إيرز

ـ لحظتها انفجر الجندي مرة واحدة بعد أن سمع كلمة حاجز إيرز، حيث كان يكفيه أن يسمع هذا الاسم حتى يعرف أننا نتحدث عن قطاع غزة:

ـ لا أريد الذهاب إلى غزة! أرجوكم، أرجوكم

كان الرعب واضحًا في توسلاته بعد أن نجحت خطة التمويه عليه، حيث ابتسم الشباب وهم يشاهدون ما تفعله غزة في عقول هذا الجيش:

ـ أقسم أنني لم أذهب في حياتي إلى هناك، ولا أريد الذهاب، أرجوكم أن تبعدوني عن غزة

كان لابد من تهدئته بعد أن ضللناه احتياطًا للحفاظ على هويتنا بأن تبقى مجهولة حال نجاح التبادل، فكل شئ ينبغي أن يكون مدروسًا.

وبعد ابتعادنا قليلًا عاد عبد الكريم للجلوس في الأمام بعد أن نزع ملابس المتدينين اليهود ثم هتف بصوت مرتفع:

ـ الآن، حان وقت تحرير الشيخ أحمد ياسين

قالها بقوة وعزيمة وإصرار حتى ظننت أن السيارة ستنفجر من انفعاله الصادق، ثم بدأ يغني وصلاح وحسن يرددان من ورائه:

بنحبيك بنحبيك شيخي أحمد ياسين بنحبيك.

يا هذا العلم الشامخ يا هذا الجبل الرابض، بنحبيك بنحبيك.

كنا لحظتها نعيش أروح اللحظات التي يمكن أن يحياها المظلومون، لا يسعك حينها وأنت تسجل بعضًا من الانتصار، إلا وأن تفكر بالبكاء!، فكثيرًا ما سمعنا عن بكاء النصر، فالمعركة التي كسبناها للتو ظفرٌ لا نعدله بشئ سوى تحقيق أهداف هذا الظفر.

سرنا باتجاه بير نبالا والسماء تزفُ عودتنا بزخات المطر، حيث مررنا بقرى رام الله الغربية، بيت عور- بيت سيرا- خربثه وبيت لقيا، وكل واحد من هذه القرى له نصيبٌ في هذا الجندي الذي يأسر فوقه أحبابها، وبعد انتهائنا من الطريق الجبلية صعودًا ودخولنا بلدة بير نبالا، حدث أمرٌ مؤثر عندما أخفى عبد الكريم وجهه بسرعة، فسألته:

- ماذا حدث، هل رآك أحد؟!

فأجاب وهو ينظر إلى الخلف يحاول أن يرى شيئًا في الشارع قد مضينا عنه:

- لقد رأيت ابن عمي حسان

كان يتحدث عنه بإحساس مرهف، فقد تربيا معًا في بيت واحد كأخوين، وبالتالي أعادته رؤية حسان إلى لهفة الشوق إلى أهله، لكنه سرعان ما عاد إلى أعظم الحقائق الموجودة داخل السيارة وهو ينظر إلى الجندي، وبعد دقائق ليست بالكثيرة، دخلنا الشارع المؤدي إلى المنزل وقد أخفانا الظلام وساعدنا جندي المطر الخفيف، حيث نزل عبد الكريم قرب بوابة البيت الخارجية وفتحها ثم لحق بنا إلى الداخل، وقد أكمل مهمته السريعة بفتح الباب الرئيسي الملاصق للمصعد، وقد قمت بدوري بإلصاق باب السيارة به حيث قام صلاح وحسن بحمل الجندي وإنزاله:

- هيا يا صديقي احمل

كان صلاح يمازح حسن، فرد عليه:

- لو كانت كل الأحمال مثل هذا الحمل، لاشتغلت عتّالًا

حملاه وهما يضحكان، وقد عبرا به من باب جانبي قرب الدرج يدخل إلى الكراج حيث قمت معهما بالتأكيد على قيوده وتغمية عينيه قبل صعوده إلى الشقة، في الوقت الذي كان يقوم فيه عبد الكريم بتنظيف السيارة وخاصة من دماء الجندي التي سالت من رأسه لحظة السيطرة عليه.

حملناه ثلاثتنا وكنا حريصين على عدم رؤيته لأي جزء من البيت، حيث صعدنا الدرجات القليلة ودخلنا باب الشقة الرئيسي والذي كان من الحديد الممتاز ومنه عبرنا إلى غرفة الجلوس الواسعة والتي يستخدمها الأهل لمشاهدة التلفاز، حيث دخلنا به يمينًا من خلال ممر بسيط نحو غرفة صغيرة أعددناها مسبقًا لهذا الهدف كونها تتضمن مرحاضًا صغيرًا إلى جانبها يستخدمه الضيوف، وقد أغلقنا نافذتها الوحيدة جيدًا، بعد إسدال الساتر البلاستيكي الموضوع ما قبل الحماية الحديدية، وتطل هذه النافذة على خلف المنزل، حيث يوجد منطقة جبلية خالية من السكان.

وضعنا الجندي على مقعد كبير، وقد كان متعبًا وخائفًا، فعرضت عليه التدخين، فأجابني بأنه لا يدخن، لكنه طلب شيئًا غريبًا:

- أريد شرب الكوكا كولا!!

- لا بأس، سأذهب لفحص الأمر في المطبخ

وعندما خرجت إلى الصالة بعد أن أخذ مكاني صلاح، سألت حسن:

- هل عندكم كوكا كولا؟!

- إنها قرب الصحون في المطبخ، أتمنى أن تكون موجودة.

- هل تعرف لمن أريدها؟!- سألته وأنا أبتسم لا أدري كيف سيجيبني.

- إذا لم تكن لك فهي للجندي، أليس كذلك يا أبا عمر؟!

- هذا أغرب جندي في العالم، ومع ذلك...

أكمل حسن ما كنت أنوي قوله: نعامل العدو بأخلاقنا لا بأخلاقه.

وأثناء بدئي بتشريبه الكوكا كولا، حيث كان يحظر فك فيده، أصر حسن على القيام بذلك، فمنحته أمرًا قام به وفي عينيه آلاف الكلمات الحزينة:

- أرأيت يا أبا عمر، كانوا يجعلوننا ننام جياعًا في كثير من الأحيان والآن نسقي جنودهم بأيدينا!

دخل عبد الكريم لحظتها غرفته بعد إنهاء عملية التنظيف، وكان يشمر عن ساعديه:

- ليتني كنت مكانه تشربني بيدك، هذه آخر صيحة في عالم القسام!، هل نسيت ما أخبرتني به عن الخلطة العجيبة؟! أو مفاجأة العيد في النقب؟! من يسمع كلامك حينها لا يعرفك الآن وأنت ترفه عدوك، ومع ذلك أعجبتني هذه اللقطة ! تُرى ماذا سيقول الصهاينة عندما يعرفون ذلك؟!

كان عبد الكريم يمازح حسن، فكل الكلام مسموح في تلك اللحظة، لا قيود مطلقًا ولا ضوابط ، ما دمنا نعيش مشهد نصر، حتى عبد الكريم كان يُلقي الكلمات وهو يتحرك عائدًا إلى الصالون استعدادًا لتأدية صلاة المغرب جماعة والابتسامة تسبقه بأمتار، ولكن حسن الذي تبرع بصمته وابتسامته التي لم تغادره في أحلك الظروف استأنف حديثه وهو يحملق في الجندي:

- وحتى نسد جوعنا بما يكفي لتجاوز ألم المعدة الخاوية والتي تقلصت حد تأقلمها مع سياسة التجويع المنهجية، كنا نأتي بكسرات الخبز التي بقيت ساعات تحت أشعة الشمس في صحراء النقب، حيث الخيام التي صنعوا منها معتقلًا للآلاف، ونضعها مع ما تيسر من الأرز والشوربة!!

ضحك حسن وهو يذكر الشوربة:

- يبدو أنك تحبها كثيرًا! وإلا لما ضحكت لذكرها!

ـ كنا نسميها شوربة اللاشيء، لأنها لا تحتوي على أي شيء سوى الماء والملح وبعض القطع الشحيحة من الجزر، ومع ذلك كنا نخلطها مع الأرز والخبز حتى تصبح الكمية كبيرة، وهكذا كنا نغري أنفسنا، عفوًا! نغري أمعدتنا الخاوية، أتدري يا أبا عمر ما كان يحدث مع الأسير بعد الإفراج عنه بيوم أو يومين؟!

كانت تصيبه حالة تسمم غذائي؛ لأن معدته لم تكن لتحمل الطعام الطبيعي والذي يحتوي على اللحم مثلا؛ لذلك كانوا ينصحوننا بأن نتدرج في تدريب المعدة على الطعام أن لا نتناول الأكل الدسم مدة أربعة أيام!

عندها أطل عبد الكريم برأسه من الباب وهو يحمل سلاحه بعد أن قام مع صلاح بكشف محيط المنزل عبر النوافذ وتأمين إغلاقها جيدًا

ـ أخبره عن مفاجأة العيد

ـ دعنا من ذلك الآن، تريد أن تنفذ قصصي بسرعة؟!

ضحك عبد الكريم:

ـ هذه القصص تحديدًا لا تنتهي، وانتبه إلى يدك حتى لا ينسكب شيء على وجه الجندي فيتهموننا بتعذيبه بالكوكا كولا.

كنت في تلك اللحظات السريعة ألتقط أنفاسي وأنا أسمع لحسن عبد الكريم، أعقل بعضًا من الحديث ولا أعقل الآخر، ومع ذلك حثثته على قص تلك الواقعة فقال:

- قبل العيد بيوم، صاح مذياع إدارة المعتقل في الأقسام الخمسة المحاطة بالأتربة التي لا يمكنك معرفة ما يدور خارجها، حيث كنا نتراوح ما بين السبعة وعشرة آلاف معتقل، معلنًا عن مفاجأة المدير في صباح يوم العيد دون أن يفصح عنها، فرحنا نخمن ذلك في اتجاهات عدة جميعها يصل إلى الإفراج، حيث توقعنا الحرية لمجموعة من الأسرى التي تشرف محكومياتهم على الانتهاء كما درجت العادة حتى يتم التخفيف من حالة الازدحام ولكن!! خابت تحليلاتنا جميعها،

- لماذا ؟!.. تساءل حسن وهو يمسح فم الجندي بيده بعد أن أجهز على كمية الكوكا كولا

- لأن المفاجأة كانت من النوع الخاص جدًا، بعض اللقيمات من لحم الدجاج الذي لم يذقه سكان الخيام منذ افتتاح المعتقل مطلع عام ثمانية وثمانين، حيث توزعت الدجاجة الصغيرة على ثمانية أسرى، ومع ذلك والآخر قد علقت ما تبقى من العظم بأن خيمته وبقينا نتحدث عن تلك الواقعة حتى اليوم، وها نحن --

توقف حسن عن الحديث وهو يقف على قدميه وفي فمه وعينيه غُصّة عميقة فأكمل عبد الكريم:

- نكرم أهله بشرب الكولا، على فكرة سيسجل التاريخ هذه الواقعة أيضًا

- وأخذ عبد الكريم ينظر إلى السقف وهو يفكر بعبارة تليق:

- كتائب القسام تقدم الكوكا كولا لنزلائها من الصهاينة!!

فزجره حسن مازحًا:

- أيها الذكي نحن لسنا فندقًا...

فمد عبد الكريم يديه للأمام معتذرًا:

- الحذر أيها السادة، العبارة هكذا: فقاتلوا الحرية من أبناء القسام يقدمون الكولا كولا لأسراهم من جنود الاحتلال، وعلى الراغبين من الجنود بذلك الاتصال على العناوين التالية....

كان الموقف يحتمل انبساطًا أكثر من ذلك، لا ندري حينها كيف يمكن التعبير فأربعتنا قد سجدنا لله شكرا لحظة دخولنا المنزل، ولا زلنا إلى حينها نعيش عظمة الموقف، نؤجل خطواتنا التالية كي نحيى اللحظة، لا نريد أن تزل أعيننا عن الجندي، عن زيه العسكري عن رائحة معاركه في الجنوب، نود لو ندعوا جميع شعبنا نساءً وأطفالًا وحتى الشيوخ ليجلسوا في الغرفة ويشاركونا انفعالاتنا.

وأثناء عزمنا التوجه للصلاة، طلب الجندي الذهاب للمرحاض، كان ذلك أول اختبار لإجراءاتنا الأمنية وطبيعة تصرفنا في المرحلة القادمة، فوضعنا الأقنعة على وجوهنا وجهزنا أسلحتنا جيدا فلا زلنا نتعامل مع جندي مدرب جيدًا وينتمي إلى أفضل وحدات جيش العدو –وحدة جولاني– في الوقت الذي نفتقر فيه إلى أدنى مستويات التدريب، حيث قمنا بإزالة القماش عن عينيْه حتى يتسنى له أخذ راحته، في تلك اللحظة! نظر إلى أربعتنا ونحن في وضعية استعداد لتحريكه نحو المرحاض، وأظننا في حينها قصدنا إفهامه الرسالة جيدًا، ومع ذلك طلبت منه الإنصات جيدًا:

ـ أنت في أمان، لا تحاول تعقيد الأمر بأي تصرف، فإن عرف الناس خارج البيت بوجودك هنا فلن نستطيع حمايتك منهم فجيشك قد جعل في كل بيت من بيوتهم مأتمًا ومصيبة، وكما أخبرتك قبل قليلٍ في السيارة، أنت هنا بهدف المبادلة فلا تجازف بحياتك.

ـ أعدكم أن لا أفعل شيئًا

وكان الجندي بالفعل قد استسلم لواقعه الجديد

قمنا بتقييد يده بيد صلاح اليسرى وأدخلناهما معًا إلى المرحاض بعد إغلاق النافذة جيدا، فهز صلاح رأسه متمتمًا:

ـ لا بأس، مقبولٌ.. فقط من أجل عيون أمهات الأسرى

فنحن لا نملك سجنًا أو مكانًا مناسبًا لمثل هذه الحالة وكنا ندرك بتجربة بعضنا الذي ذاق ظروف الأسر الصعبة، أن الجندي سيلاقي صعوبة في قضاء حاجته لكنه سيتغلب على ذلك إن شعر بالراحة في جوانب أخرى، وبالفعل هذا ما حدث، حيث ظن صلاح أن الجندي يحاول فعل شيء بتلكئه، فطلبت منه أن يمنحه فرصة فنجح الأمر.

وبعد إعادة الجندي إلى مكانه في الغرفة، طلب أن يسأل سؤالًا، فمنحناه ذلك، فلا زال إلى حينها يتعامل بحذر في الحديث معنا وكأنه يتفادى إغضابنا على الرغم من عدم حدوث شيء ضده:

- هل يُسمح لي النوم ؟!

لم ندرِ حينها ما كان يفكر لحظة طلبه هذا، أهو التعب فعلًا أم شيء أخر؟ ومع ذلك أجبته:

- بالتأكيد لا يوجد مانع عندنا

ساعدناه بالاستلقاء على المقعد الكبير والذي كان مريحًا لنوم شخص، وقد غط الجندي بنوم عميق، بعد ذلك قمنا بالصلاة ثم عقدنا اجتماع عمل سريع لترتيب الخطوات التالية وأعيننا على الجندي الذي كان قبالنا في الغرفة حيث جلسنا حول طاولة صغيرة في الصالة، ولم يعد يلاحقنا الاضطراب والتوتر إنما التحفز لتنفيذ المرحلة الأهم ولكن قبلها تحدث حسن:

- يجب أن نتفق على نظام حراسة مشددة

كان الإخوة يستمعون باهتمام شديد:

- حيث ينبغي أن نتناوب على مراقبة الجندي على مدار الساعة، فيرتاح واحد ويبقى اثنان مستيقظين، الأول يختص بالجندي والثاني لمتابعة أي طارئ يحدث من خارج البيت.

- تدخل صلاح: لكن هذا سيكون مرهقًا لأحد الاثنين الذي سيضطر للمناوبة المضاعفة

فأجاب حسن: سنتغلب على ذلك بإذن الله.

اتفقنا في تلك اللحظة على إبعاد السلاح عن الجندي وزيادة الحذر بهذا الخصوص والتأكيد على أمر غاية في الأهمية: عدم التعرض له بسوء، فما دام أسيرًا بأيدينا إذن فرعايته وحمايته واجب علينا، في الميدان هو هدفٌ لرصاصنا جزاءً لما اقترفته يداه بحق شعبنا، أما في هذا البيت، فأخلاقنا وقيمنا الإسلامية هي القانون.

ضحك عبد الكريم :

- يا أبا عمر لن يمسه أحد بسوء ولكن! صدقني لولا تحرير الأسرى لرميته تحت أقدام أطفال الشهداء حتى يتلاشى تحت نعالهم.

المهم الآن، أقترح أن نجري التصوير الليلة قبل أن يكتشف العدو اختفاء الجندي فما رأيكم؟

رد عليه صلاح الذي كان ضابط الاتصال مع غزة في هذا الشأن:

- كلامك صحيح ولكن هل ستستطيع توفير الكاميرا الليلة؟!

- سأحاول ذلك. فكلما أسرعنا في إيصال الشريط إلى غزة، كلما كسبنا الوقت المهم أن تكون رسالتك جاهزة حتى أخذها معي غدًا بإذنه تعالى ولكن!!

سارعني عبد الكريم بالجواب:

- لا تقلق فأنا أتقن التصوير، إذا كان هذا ما يقلقك.

- فنظر إليه حسن: عبد الكريم !!هل هذا ارتجال أم حقيقة؟

- لقد أخذت دورة تدريب على التصوير فتوكل على الله يا أبا عمر

وعدتهم بالعودة إليهم بعد ساعة، حيث يكونون قد جهزوا الجندي جيدًا واستعدوا لالتقاط المشهد الذي سيهز الكون!: سيهز الكون؟!.

- قال حسن الذي أعطى المسألة اهتمامًا فاق تعاملنا معه، فسألته:

- يا رجل سيهز الكون ؟! ألم تبالغ قليلًا؟!

- ستتأكدون عندما ينتشر الشريط، صحيح أن المسألة تتجاوز ما نتخيله الآن، ولكن فكروا معي بتلك اللحظة التي يشاهد فيها نائل وإخوانه الأسرى الشريط ! عندها لن يسعهم الكون من الفرحة أو قل الدموع، يا جماعة! هل نحن في عالم الحقيقة؟!

ثم نظر باتجاه الجندي، فوقف على الفور وجلس قبالته:

- أكملوا حديثكم لن أبرح المكان

نظرنا ثلاثتنا إلى بعضنا البعض، وقد أيقظ حسن فينا كل طاقة ممكنة، فقد يجوز في عرف المقاومة أن تتأثر عندما تسجل على عدوك نقاطًا نوعية، لكنك تعجز في حالتنا عن وصف مشاعرك، وأنت تصنع تاريخًا بلغة جديدة في زمن حساس.

غادرتهم متوجها إلى منزل العائلة في بيت حنينا لإثبات الوجود، فكانت العائلة جميعها قد جهزت ملامتها لي:

- أين كنت أيها الأخ الوفي ؟!

سألت الوالدة والعتب في حديثها والعيون جميعها ترمقني بذات العتب، فضحكت لكسر المشهد:

- على رسلكم يا جماعة، فقد أشغلتني مشكلة عند صديق .

فرد شقيق «**أبو محمد**» بعد إن خذلته صباحًا:

- وهل مشكلة صديقك أهم من خطبة أخيك؟!

حينها فقط تذكرت هذه المناسبة التي لا ينبغي نسيانها، وتحديدًا بما يتعلق بأخي التوأم، فاضطررت لإخفاء ذلك:

- أعتذر منك يا نضال، فصديقي قد صدمته سيارة واضطررت للبقاء إلى جانبه

كانت كذبتي المشروعة هذهِ تتناقض مع ضحكتي قبل قليل، لكن الأهل الطيبين نسوا العتب وتأثروا، قائلة أمي:

- وكيف هو الآن يا ولدي ؟!

- بخير والحمد لله، وجئت الآن كي أستميحكم عذرًا للرجوع إليه لبضع ساعات إضافية

لحظتها كان شقيقي أبو محمد يتبادل النظرات مع أشقائي الذين لم يرق لهم تصرفاتي، ومع ذلك تحررت مجددًا منهم، لكن أمي سارعتني بخوفها:

- يا ولدي انتبه لنفسك فهناك عملية حدثت

جعلتني كلمات أمي متسائلا في خطاب ذاتي: يا إلهي هل عرفوا في هذه السرعة؟!، لكن أخي أبو محمد أردف بالقول:

ـ هناك شابان قد فتحا النار في القدس الغربية وأصابا العشرات من الجنود والمستوطنين وقد استشهدا

كانت كلماته ككأس ماءٍ باردٍ في ساعة حرٍ وسط الصحراء، ومع ذلك أبديت انفعالي المعهود لطرد أي شكوك قد تتبادر إلى ذهن الأهل:

ـ متى حدث ذلك؟! وكم عدد القتلة الصهاينة؟!

ـ ضحك شقيقي أبو محمد: قلها بصراحة، تريد معرفة إن كانوا من جماعتك أم لا؟!، لا تقلق هما من كتائب القسام وأحدهما مصري الجنسية يُدعى صلاح الجوهري والآخر من قطاع غزة واسمه حسن عباس، رحمهما الله

استطعت بعدها الانسحاب من البيت بسرعة؛ للبحث عن كاميرا الفيديو، لكن اللافت في عملية شارع يافا أنها حدثت في نفس الساعة التي كنا نقوم فيها بأسر الجندي، وأحسب أن الله عز وجل قد لطف وإلا كان وضعنا أسوأ، حيث نستطيع الآن فهم ارتباك الجنود على الحاجز أثناء عودتنا.

توجهت إلى بيت صديق للحصول منه على الكاميرا خاصته وقد كان محظوظًا لامتلاكه هذه الكاميرا غير أنني لم أجده، فتوجهت إلى استوديو لتصوير الأفراح فأبى تأجير الكاميرا عارضًا موافقتي لتصوير المناسبة:

- لا أستطيع إعطاءك الكاميرا فهي ثمينة، سآتي معك للتصوير بنفسي

- هذه العائلة محافظة جدًا ولا تكشف نساءها على الغرباء

- لا بأس سأبعث معك شقيقتي للتصوير فهي محترفة

- يا إلهي ما هذه الورطة ؟!

- يا أخي أقول لك إنهم محافظون جدًا جدًا، ولهم طريقة خاصة وغريبة، حتى إنهم لا يدخلون النساء على أهلهم، فأرجوك أن تساعدني

وبعد الإلحاح، وافق تأجيري الكاميرا لليلة واحدة فقط فى مقابل خمسين دولارًا، استطعت توفيرها بسرعة بعد أن زودني بشريطين، وأظن بأنه لو طلب ألفًا لخضعت لابتزازه رغم شح الميزانية، طرت بعدها إلى بير نبالا، في تلك اللحظات، كان حسن يجلس على كرسي صغير قبالة الجندي، ينتظر إشارة استيقاظه بعد ساعة عميقة من النوم، في الوقت الذي كان فيه صلاح يتناول بندقية الجندي لأول مرة لفحصها وقد دخل بها إلى الغرفة، حيث شاهد حسن على حاله المذكورة:

- أيقظه يا رجل، فقد يأتي صاحبنا في أي لحظة

ـ دعه يستيقظ لوحده، فقد يذكر ذلك لأسياده فيكفوا عنك في تحقيقك القادم

قالها حسن وهو يتبادل الابتسام مع صلاح الذي خاض معركة الصمود في مركز تحقيق المسكوبية، حيث عجز يومها المحققون عن انتزاع الثبات من فمه، فخضعت شياطين حقدهم لإرادة عزمه، بعد أن ---- سوء العذاب، وقد أبقوه مستيقظا أيامًا طويلة نهارها وليلها يستعطفون كلمة من فمه، يحكيها هذيًا من فرط التعب، فكلما حاولت عينه الغفوة عوت أفواههم بالكراهية:

ـ ممنوع عليك النوم حتى تعترف. فيزداد عنادًا.

رد صلاح على حسن: لا أظنني سجينًا بعد اليوم، فإما الشَّهادة وإما الشهادة.

رفع حسن يديه إلى السماء: وأنا معه يا الله

لحظتها كان عبد الكريم قادمًا من المطبخ بعد أن أعد طعام العشاء لأربعة، حيث نادى عليهما دون أن يراهما:

ـ أقبلوا لتناول الطعام، وسنطعم الجندي بعد أن يستيقظ

لم يجيبانه، فقد كانا يتبادلان حديث الشهادة ولازال صلاح ينظر في البندقية يهم للتصويب بها نظريًا، فدخل عبد الكريم عليهما، فتوقف قليلًا عند الباب:

ـ احذر يا صلاح، فالجندي عمر البندقية وهناك رصاصة في بيت النار!!

لم يكد عبد الكريم ينهي كلامه الذي غلفته الخشية من الخطأ الذي ربما يكون قاتلًا، حتى خرجت الرصاصة الوحيدة من البندقية بعد أن لامس أصبع صلاح الزناد.

عندها صرخ الجندي بأعلى صوته، فتوقفت أنفاس صلاح وعبد الكريم، ولم يهدئهما سوى كلمات حسن الذي تسمر في مكانه:

- على هونكما، الرصاصة لم تصب الجندي، إنها في السرير

- صرخ صلاح.. ووقف على قدميه مذعورًا

- يا إلهي؟!، فالرصاصة قد مرت إلى القرب من حسن وكادت أن تخترق جسده قبل أن تدخل مخزن الرصاص الوحيد لذات البندقية فتعطبه ثم تتوجه إلى الوسادة، ولكن الأمر لم يتوقف عند ذلك حيث كان الجندي يرتجف خوفًا على خوف الرجال الثلاثة الذين حمتهم رعاية الله فلم يصب أحدٌ بأذى، لكن الصوت الذي دوى في البيت دفع صلاح وعبد الكريم إلى الإسراع نحو النوافذ في الغرفة المقابلة وخلف الأبواب وكل منفذ صغير إلى خارج البيت لرصد أي ردة فعل محتملة من جانب أهل البلدة أو أي عابر بالصدفة من جانب المنزل الذي يبدو من الخارج كالخالي من السكان بعد إغلاق كافة النوافذ ومنع أي تسرب للضوء، في حينها كان الجندي غارقًا في عرق رعبه وخوفه يتكوم على نفسه، لا يدري ما الذي يحدث، أحانت ساعتي؟! أم أنهم يحاولون إخافتي؟! لكنهم وعدوني بأن لا يقتلونني، ثم رفع صوته بما يفكر:

- لا. لا أريد أن أموت

كان حسن لا يزال يحاول الهدوء بعد الصدمة المروعة التي لم تسببها الرصاصة! إنما الفرضية الكارثية بأن تصيب الجندي: يا إلهي؟! يخاطب حسن خوفه.

- ماذا كان سيحدث لو أصيب؟! الحمد لله، نعم الحمد لله

ثم تقدم نحو الجندي المرتعد واضعًا يده على كتفه:

- هذا بالخطأ

لم يكن حسن يعرف سوى بعض الكلمات في العبرية لكنها كانت كافية لتهدئة الجندي الذي رد بالقول بعد شعوره بيد حسن:

- أرجوكم أنا لم أفعل شيئًا وسأبقى هادئًا كما وعدتكم.

فعاد حسن يُربت على كتفه، فليس هناك وسيلة أخرى في ظل غياب اللغة، لكنه سرعان ما تذكر العشاء، فلربما شعر الجندي بالهدوء عندما يأكل، هكذا رأى حسن وهو يأتي بوجبة أسيره، حيث أقعده جيدًا وبدأ بإطعامه بيده، وكان لهم الجندي واضحًا وكأنه لم يأكل منذ أسبوع، لحظتها كان صلاح وعبد الكريم يأخذان وضعية قتالية وهما يشعران بشخص يقترب باتجاه البيت حيث كان الليل قد أغرق المنطقة بالظلام والساعة قد بلغت العاشرة، لكنهما سرعان ما هدءا بعد سماعهما الطرقات المتفق عليها لدى قدومي:

- افتحوا الباب

كان وجهيهما ينطق بحدث مخيف، هكذا أحدث المشهد انطباعه الأول لديّ

- يا لطيف، ما بال وجهيكما؟!

- أولًا قل لنا، هل سمعت صوتًا قبل دقائق أثناء مجيئك إلى المنزل؟!

لم أستطع لحظتها الإجابة وأنا أركض باتجاه غرفة الجندي، يسبقني توسلٌ إلى الله بأن يطرد ما فكرت به في تلك الثانية من الزمن المرعب، لكنني سرعان ما هبطت على الكرسي جالسًا وأنا أرى حسن يُطعم الجندي كولده:

- الحمد لله.

كانت تكفي لأن أتأكد من سلامة الاثنين، ترى في حينها من كان يحظى منهما بأولوية السلامة؟! حسن المقاتل الذي حمل قضية شعبه على كتفه وباع الدنيا من أجل ذلك في عقد مع المولى عز وجل لا ينفك إلا بالشهادة أو النصر؟! أم هذا الذي بأسره سيحيا المئات من الساكنين في قبور الأسر ويبعث الروح في آلاف تنتظرهم؟!، سؤال يحسن حسن ذاته الإجابة عليه وهو يقول لي:

- لقد نزلت قبل قليل إلى القبر لكنني عدت بعد أن رأيت الجندي حيًا

- سلامتك أولى من الجندي وكل دولته

- يا أبا عمر، أنا أطارد الشهادة منذ سنين ولم أنلها حتى اللحظة، لكن الآلاف من الأموات في قبور الأسر يحاولون الإمساك بحياة الحرية فلا يجدونها إلا بهذا الذي يجلس أمامي، فأي وزن لسلامتي مقابل سلامته؟!

فهمت بعدها ما حدث، وقد سلمنا الله ولم يسمع أحد صوت الرصاصة؛ لأن البيت بعيد عن الناس ونوافذ البيت مغلقة جيدًا، ولكنه كان درسًا في الحذر وعاه المقاتلون جيدًا .

جلست بعدها مع الجندي، أشرح له فكرة التصوير والرسالة التي نريد إيصالها إلى حكومته حتى يتم الأمر على النحو الصحيح، فتعامل مع الأمر بسلاسة وسهولة، في الوقت الذي كان فيه عبد الكريم يجهز الكاميرا للتصوير، هكذا ظننت عندما أعطيته إياها!، بدأنا بإنزال عصبة العينين عن الجندي وفك قيود اليدين بعد إن ارتدينا اللاثمة على وجوهنا ووضعنا غطاءًا على الحائط حتى لا يتم تمييز المكان.

كان عبد الكريم يحاول تشغيل الكاميرا دون جدوى وثلاثتنا مع الجندي! ننظر إليه فقد اعتمدنا على دورة الفيديو التي أخذها، لكنه نظر إلينا بعيون الخيبة

- أعتذر منكم، هذه الكاميرا متطورة وجديدة والتي تدربت عليها من النوع القديم.

كانت مشكلة حقيقية، فجميعنا يجهل التعامل مع هذه الأجهزة الحديثة، فأخذنا نحاول تشغيلها ولا نخبي أن شيئًا من الارتباك كان يمنع خطوات بسيطة لتشغيل الكاميرا، وجميعنا لحظتها حتى الجندي، ندرك أهمية هذه المسألة التي سيكون لها بالغ الأثر لدى الإعلان عن الشريط، فلم نيأس وبقينا نحاول، وفجأة سمعنا صوت الباب الداخلي للبيت، وأرجل تصعد الدرج قبل أن تطرق على باب الصالة بهدوء! ينذرنا صاحبها بقدومه الغير محسوب، فقد كان زياد صاحب البيت جاء ليطمئن على بيته ويرى إن كنا بحاجة إلى شيء، فصمتنا جميعًا! يسأل صلاح:

- ما الرأي؟!

كان الأمرُ محرجًا جدًا، فهذا الرجلُ يشعر بمسؤولية تجاهنا وفي ذات الوقت يأتي للاطمئنان على بيته، فلا نستطيع عدم إدخاله، وإلاّ وقعنا في حرجٍ كان ينبغي أن يقينا إياه زكريا قبل الوقوع فيه، فكان الرأي السماح له بالدخول لأننا لا نملك خيارات كثيرة في ذلك، وعند الباب أوقفه حسن محذرًا إياه عدم الاستغراب من الألثمة الموضوعة على الوجوه، حيث تفاجأ زياد بذلك، لكن الأهم ما أخبره به:

- يا زياد، ربما لن يعجبك ما ستراه الآن في الغرفة، لأننا لم نخبرك الحقيقة لأسباب ستفهمها بعد قليل، لكنني أطلب منك كتم الأمر حتى عن نفسك.

نظر إليه زياد:

- هل أنت طبيعي يا حسن؟!

على الفور طلب منه حسن خفض صوته وعدم التلفظ باسمه، لكن زياد الذي كان في أوائل الثلاثين من عمره استغرب جديّة الموقف:

- يا أخي، أنا فتحت بيتي لكم عن طواعية فلماذا كل هذا الارتباك، لقد أخفتني!

- انتظر قليلًا ريثما تدخل الغرفة ولكن قبل ذلك خذ هذا اللثام وضعه على وجهك.

نظر زياد إلى اللثام الذي ربما يمسكه لأول مرة في حياته، فأدرك أن الموضوع جديٌّ، ورغم ذلك لبسه ودخلا معًا إلى الغرفة.

عندها وقع زلزالٌ في صدر زياد وجميع مَن في الغرفة ينظر إلى عينيه، ليس خشيةً من ردة فعله فقد سبق وأن عرَّض نفسه وبيته للخطر باستضافة أخطر المطلوبين لقوات الاحتلال، إنما لمعرفة تأثير ذلك على فرد من عامة الناس يرى أخطر ما يمكن أن تفعله المقاومة تجاه العدو، صحيح أني خشيتُ للحظة من إمكانية سيطرة الخوف عليه وارتداده للوراء الأمر الذي قد يؤذينا بشكل من الأشكال، لكن كلمته الأولى التي أطلقها بعد أن عقل ما تراه عيناه، بددت كل المخاوف لدينا:

ـ الله أكبر

كانت عبارته التي خرجت من قلب قلبه، فردَّدَها مرةً أُخرى:

ـ الله أكبر. يسألنا بلسان طفل: هل هذا جندي حقيقي؟!

ثم يُمعن النظر مرةً أخرى ويردد:

ـ سلَّم الله أيديكم، «**هيك الرجال ويلاّ بلاش**»

ويدور بعينيه تجاه حسن معاتبًا ولا زالت لحظات الانفعال تظهر بين كلماته:

ـ لن يعجبك ما ستراه في الغرفة.

ـ لو كان الذي في الغرفة غير الذي أراه الآن لطردتكم من البيت.

كانت كلمات زياد زخمًا إضافيًا، أشعرنا في أول رد فعل شعبي على أهمية ما نقوم به، لكننا عدنا لحظتها إلى ورطة الكاميرا، فرآنا نتصارع مع أزرارها نحاول الاهتداء إلى طريقة تشغيلها، فعرض خدمته في أذن حسن:

ـ ألا تعرف أن عملي الأصلي تصليح الإلكترونيات؟!

فتقدمت إليه بسرعة:

ـ هل يمكنك تشغيلها؟!

تشعر في تلك اللحظات بكل معاني الخيرية التي ترافق العمل، وأحسب أن ذلك شِرعة المظلومين بأن يُيسر اللهُ لهم من يأخذ بأيديهم، تلك تلمسها عندما يشتد الخطب وتقف دون حراك أمام عجزك.

جلس الجندي على الكرسي، يرتدي زيه العسكري متجاوبًا معنا في قناعة تولدت لديه من خلال تصرفاته، إنها بداية الطريق الوحيد لإنهاء مشكلته عبر توجيه رسالة إلى الحكومة الإسرائيلية يدعوهم فيها إلى الاستجابة لمطالبنا، وأحسب لحظتها أن أي شخص كان يمكنه قراءة ما تقوله عيناه وهو ينظر إلى خمستنا، وكأني به يخاطب قائده في الجيش وهو يصف رجال المقاومة بالجبناء:- أغلق فمك أيها الكاذب، الجبن أن لا تعترف بشجاعة شبان أسروني من بين معسكرات جيوشنا المستأسدة، وها هم يكتبون عجزنا على جدار السماء.

تقدمت نحوه بعد أن فككنا قيد يديه حتى أتأكد من جاهزيته:

- هل أنت مستعد أم نؤجل الأمر قليلًا؟

- لا. لا، أنا جاهز ولكن!

كان يطرح تساؤلًا يدرك بعسكريته صعوبته:

- هل ستطلقون سراحي؟!

- يعتمد ذلك على سرعة استجابة حكومتك لمطالبنا، ثم لا زلنا في اليوم الأول، لماذا العجلة؟!

- أريد أن أذهب إلى البيت، فأبي وأمي ينتظراني

- وآلاف الأسرى من إخواننا لديهم آباء وأمهات ينتظرونهم منذ عشرات السنين، ثم ألم تتذكر شوقهما لك وأنت وجيشك المغوار تذبحون شعبنا؟!

لحظتها نادى عليّ زياد:

- الكاميرا جاهزةٌ للتصوير

وقف صلاح خلف الجندي مرتديًا كوفية حمراء وبيديه بطاقة وسلاح الجندي، فقد اتفقنا أن يقوم صلاح بالإعلان عن العملية بلهجته الغزاوية حتى يكتمل تضليل العدو ويتأكد أن الجندي في قطاع غزة، وبالفعل تم التصوير وفق ما أردناه، وبقي أن نتأكد من الشريط، حيث كان يلزم وجود جهاز الفيديو لفحص المقطع جيدًا، الأمر الذي تكفل به زياد وانطلق إلى القدس لتوفير ذلك والعودة في أسرع وقت.

أعدنا الجندي إلى مكانه الطبيعي بعد إعادة تقييده، ثم اتفقنا على أن أعود غدًا في الصبح لأخذ الشريط إلى مكانه الطبيعي والرسالة والانطلاق إلى غزة.

ليلتها! عاد زياد في وقت متأخر جدًا ومعه جهاز الفيديو حيث تم التأكد من صلاحية التسجيل وعدم وجود مشاكل أمنية قد تقود إلينا.

* * * *

وبعد يوم حافل للغاية، جاء العاشر من أيلول في يوم الاثنين، حيث لا زال الإعلام الصهيوني صامتًا لم يُشر إلى أي شئ يتعلق بالجندي، الأمر الذي أراحنا جزئيًا ومنحنا وقتًا إضافيًا للتحرك بحرية مع فرضية أن يكون الاحتلال قد تحرك للبحث عن الجندي حال الإبلاغ عن عدم وصوله إلى مكان توجهه، إذًا فقد كنا في سباق مع الوقت نحاول التقدم على مخابرات العدو بعدة خطوات.

توجهت مبكرًا إلى البيت في بير نبالا بعد أن وضعت سيارة الأسر ذاتها في مكان بعيد عن المنزل، حيث وجدت المجاهدين بانتظاري، شغفهم للشروع في المرحلة الثانية من العملية جعلهم يسهرون الليل يحاولون ترتيب الأفكار التي سأنقلها إلى غزة هاشم، وبها يتم تجلية الأمور للقائد العسكري محمد الضيف، الذي كان على علم بالمقاتلين المتواجدين في ضيافة المهندس - يحيى عياش- في نابلس، غير أنه كان يجهل تمامًا عملية الأسر والإنجاز النوعي الذي تحقق بعد الكثير من المحاولات التي قامت بها مجموعات القسّام والتي كانت على تواصل معه.

جلسنا نرتب الأمر معًا وقد كان صلاح منفعلًا جدًا وهو يعطيني الرسالة:

- أظن بأنك ستغرف في بحرٍ من القبلات، ليتني أستطيع القدوم معك لأزف لهم الخبر

- لا تقلق، ستكون حاضرًا بما صنعت مع إخوانك، وبما سنحققه بإذن الله بعد أن يخضع المحتل لمطالبنا، ولكن، هل أنت متأكد أنني سأصل إلى عنواننا بسهولة؟!

- إن شاء الله، اذهب إلى الشخص الذي أخبرتك عنه وسيتدبر الأمر بأقصى سرعة.

هنا تدخل عبد الكريم:

- احذر يا أبا عمر، فعندما تتوسع الدائرة، تزداد احتمالية الخطأ والخطر، فأحيانًا نظن بأننا في أمان فنفاجئ بخرق معين قد يفشل جميع ما خططنا إليه، ودائمًا، هناك من يترصد هفواتنا.

- لم يكن ممكنًا أن أغادرهم قبل أن يتحدث حسن الذي كان يلزم الصمت طيلة الجلسة متنقلًا ما بين الجندي وبيننا حيث وجه كلامه لعبد الكريم:

- يا رجلّ توكل على الله ولا تُخف أخاك، أليس كذلك يا عمر؟!

- التوكل فرضٌ علينا، لكن عبد الكريم أصاب الحقيقة بتحذيره، فاعذرني يا صديقي إن خالفتك الرأي، فينبغي أن تظل حلقتنا ضيقة إلى أبعد الحدود والآن، اسمحوا لي بالانطلاق.

- ودعت المجاهدين بعد أن أخفيت الشريط وبطاقة هوية الجندي ورخصة قيادته في ملابسي، حيث توجهت إلى السيارة وخبأت ذلك وراء الجسم البلاستيكي في مقدمة السيارة إلى القرب من الساعات والمقود، ثم ركنت السيارة في مكانٍ ما ريثما أُنهي عملًا مهمًا عن عالم المقاومة وتلك انعكاسات العمل السري الذي لا يمكنك وأنت تمارسه التخلي عن تفاصيل مهمة في حياتك حتى ولو قمت بها لمجرد استمرار الحياة على شكلها الطبيعي

فقد توجهت إلى وزارة الداخلية الإسرائيلية في شارع صلاح الدين لإنهاء معاملات السفر مجددًا إلى قبرص حتى أحصل على أوراق من الجامعة ثم أتوجه إلى إسبانيا في بعثة من الشركة التي أعمل بها للتدرب على طرق العمل الحديثة، حيث أنهيت الأوراق في غضون ساعة ثم توجهت مسرعًا نحو السيارة وانطلقت باتجاه غزة عن طريق أسدود وعسقلان جنوب فلسطين.

في تلك الأثناء كانت نافذة جديدة تفتح في الروايةحيث حضر زكريا إلى المنزل فلم يقاوم استماتته لمعرفة ما حدث، بعد أن جلس البارحة بأسره يطلب المدد السماوي لمسعانا، يستنجد بغارة الله على أعتاب مسجده الأقصى، يُقسم على المولى العظيم أن ينصرنا دفعًا للظلم واستجابة لاستغاثة الشهداء مع وقف التنفيذ هناك في أسر شذاذ الآفاق، تتقدم طفلته الصغرى تمسح الدمع عن عينيه ثم تجلس إلى جانبه رافعة يديها كما يفعل، تقلد بشفتيها الرقيقتين تمتماته، فيستشفع ببراءتها طالبًا عونًا من صدق أحرفها القليلة المتكسرة:

- قولي آمين

فتطلقها وهي تبتسم فيحتضنها وهو يردد:

- حقًا على الله أن يستجيب لكِ يا ملاكي الصغير.

دخل البيت رافضًا ما كان قد طلبه منه حسن بأن يكتفي لمهمته المحدودة على أهميتها، حيث كان يحمل بيديه طعامًا ابتاعه من البلدة القديمة، غير أن نبضات قلبه كانت تتصارع مع عينيّ حسن وهو يسلم على الثلاثة، يطلب إراحة عالمه الذي لم يهدأ منذ البارحة، فأتته الإشارة بالنصر، فسجد في مكانه شكرًا لله، ثم نهض يحاول تقبيل أيديهم والدمع يترقرق في مقلتيه:

- على هونك يا أبا عبد الله

كان حسن يقاتل انفعال زكريا بانفعالٍ مماثل حيث قبّله من رأسه، ثم أشار له بعينيه على مكان الجندي، فتقدم بخطوات سريعة نحو الغرفة، وهناك، وقف يلتقط أنفاس قلبه يطلب ثبات قدميه اللتين تكادان خيانته، فهل تُراه يمر على موقف كهذا دون أن يبكي؟! ولماذا يبكيه أسر جندي غاصب؟! لكنه بكى نصرًا كان يحلم به كل ساعة في الأسر! يرسم أملًا في عتمة الليل، فارسه بطلٌ يحطم جمجمة السجان ويمضي ولكن كيف؟!.

الكيف تلك، يشهد روعتها اللحظة في الغرفة، لكن دمعه لم يتوقف وازداد حفرًا في جدار الذاكرة المملوء بحكايات الألم، عقله يحاور صدره في محاولة لعيش الانتصار وفقط ولكن!:

لا، لا ينبغي أن يهدأ وجعي،

فتهدأ ثائرتي، يجب أن أتذكر دومًا، أن أبكي دومًا، أن أصرخ دومًا، أن تحضرني نعالهم وهي تمر على وجهي مرَّ اللئام تزورني كلما حاولت اتقاء هجماتهم التي لا تعرف ليلًا من نهار، يكفرون بكل شئ إلا بالشيطان، يقولون بأنه سيدهم وينبغي أن أعطيه الطاعة بالاعتراف، ويح إبليسهم اللعين، جردني على أيديهم من ملابسي التي كانوا قد مزقوها ونشروني على جدار الغرفة مقيدًا:

- اعترف فنستر عورتك، اعترف، اعترف، اعترف.

كل الذين خارج الغرفة ماتوا وبقيت وحدي أطلب الموت خيرًا من العذاب فلا يأتي، يمتطي أحدهم ظهري ويطلبني أن أكون الحمار! يضربني، يحثني على النهاق، فأبكي وأبكي، فينتفضوا على جسدي الهزيل بأقدامهم، ببصاقهم، بقبضات أيديهم وبشتائم عالمهم السفلي.

- نعم، لا يجوز أن تسكن ثائرتي

كان حسن يرقب زكريا الذي أطال الوقوف أمام الجندي، يفهم تمامًا ما يمر به، وأحسب أن كل مظلوم سيبكي إن شاهد الجندي:

- هل انتهيت من شرودك؟!.

لم يلتفت زكريا إلى حسن، بل تقدم نحو الجندي وتحدث معه باللغة العبرية التي يتقنها:

- هل تعرف شيئًا عن كسر الظهر؟!

تلعثم الجندي الذي تفاجأ بهذا الصوت الجديد وهو يجيب:

- لا يا سيدي.

- هل تعرف شيئًا يسمى الضرب على الخصيتين حتى الإغماء؟!

اشتد خوف الجندي الذي شعر بأن شيئًا ما تغيّر في التعامل معه:

- لا يا سيدي.

- هل تعرف شيئًا عن القرفصاء لساعات وأنت عارٍ من ملابسك؟! وهل تدري كيف يكون وقع الصفعة على وجهك إن حاولت النوم خلال أيام شبحك؟!

- قل لي هيا، هل جرّب أحدهم أن يحاول اغتصابك بخشبة؟!

لاحظ حسن التوتر الذي أحدثه كلام زكريا على الجندي، فوكزه من الوراء:

- ما الذي تفعل يا رجل؟! الجندي مات خوفًا

لكن زكريا المتألم أكمل حديثه مع الجندي الذي لا زال على حاله يجلس مقيدًا على الكرسي الكبير:

- كل ذلك فعلته مخابراتكم بحق أهلنا؟

ثم اقترب إليه أكثر واضعًا يده على كتفه:

- لا تخف، لن ترى ذلك عندنا، فنحن لسنا مثلكم.

ثم جاء صلاح وبيده رسالة عاجلة إلى نابلس:

ـ تعرف يا أبا عبد الله العنوان فأكيد أنهم الآن ينتظرون الأخبار السارة. وكان أكبر أولاد زكريا اسمه عبد الله.

ـ سارّة وفقط!! أنتم لا تعرفون ما سيفعله صنيعكم هذا، اعذروني الآن، سأطير إلى هناك أزف البشرى ولا تنسوا تناول الطعام الذي أحضرته لكم لا أريد أن تُبقوا منه شيئًا وأطعموا الأسير.

وأثناء ابتعاد زكريا عن البيت، التقى مع ابن أخته زياد داخل البلد:

ـ اسمع يا ابن أختي، خذ زوجتك وغادر فلسطين إلى الأردن دون أن يشعر أحدٌ بذلك!.

ـ ولكن..

ـ من دون لكن، وجودك هنا فيه خطر عليك، امكث هناك ريثما تنتهي العمليةُ على خير.

ـ أنت ترى ذلك يا خال؟!

ـ نعم، فالأمر خطير ولا نريد أخطاءًا غير محسوبة، توكل على الله وسافر اليوم قبل غد.

في حينها كنت على أبواب قطاع غزة بعد مسيرة ساعة وربع من السفر، ولا زالت الساعة الحادية عشر والنصف ظهرًا، حيث دخلت بسيارة الأسر من معبر بيت حانون والذي يطلق عليه الصهاينة معبر إيرز، حيث الحركة النشطة للسيارات التي تحمل لوحات تسجيل إسرائيلية في معظمها تتبع لسكان المستوطنات الجاثمة على أرض غزة، الأمر الذي يمنحنا حرية الحركة على الحاجز دون مضايقة،

على الرغم من الحوادث السابقة التي أثبتت للعدو بأن المقاومة تستخدم السيارات الإسرائيلية للعبور من الحاجز، وهذا الأمر دفعني للرهبة قليلًا ولكن سرعان ما تبدد ذلك لدى دخولي القطاع، حيث شعرت بارتياح عظيم وأنا أسلك الطريق المؤدي إلى منطقة (أ) التي تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية وفق اتفاقية أوسلو مبتعدًا قليلًا عن منطقة المستوطنات وخطوط سيرها والتي حمتها ذات الاتفاقية ولكن!! بعد عدة مئات من الأمتار أوقفني حاجز للأمن الوطني الفلسطيني ولم يكن ذلك غريبًا فالسيارة إسرائيلية.

سألني ضابط الحاجز عن وجهتي، وبعد إجابته نصحني بترك السيارة وعدم الدخول بها إلى غزة؛ كيلا لا أتعرض لخطرٍ ناتج عن سوء فهم من الناس ظنًا بأني مستوطن صهيوني قد ضلّ طريقه، فحاولت إقناعه بأنني متعود على الدخول بسيارتي وأنا أتحمل المسؤولية عن نفسي، فأصر على طلبه على قاعدة الحفاظ على سلامتي، فلم أجد بُدًا من الاستجابة كيلا يشك في إصراري فنقع في مشكلة كبيرة وخاصة أن إفرازات البنود الأمنية في اتفاق أوسلو بدأت تلقي بظلالها على علاقة السلطة الفلسطينية بالمقاومة.

وضعتُ السيارة في موقف خاص بالسيارات بعد أن أخفيت الشريط ووثائق الجندي تحت ملابسي، ولدى خروجي من الموقف القريب من الحاجز العسكري فوجئت بعامل الموقف يسجل رقم السيارة وموعد الدخول كي يعطيني وصلًا بذلك، عندها!! شعرت بالخطر الكبير وأن شيئًا غير صحيح قد حدث، حيث أرعبني

هذا الخرق الذي لم يكن ينبغي أن يحدث، لكنني ما كنت لأتوقف عن مهمتي التي جئت من أجلها، فاستأجرت سيارة إلى حي اليرموك في غزة، وهناك نزلت في الشارع الرئيسي قرب المسجد، وتوجهت مباشرة إلى معمل للبلاط كان صلاح قد رسم لي خريطة الوصول إليه بسهولة حيث سألتقي بصاحبه أبو سامر والذي كان مشغولًا مع زبائنه، فنظر إليّ بعد أن طرحت عليه السلام، وكان واضحًا لديه بأنني غريب عن المنطقة إن لم يكن عن القطاع بأسره:

- أهلًا بك يا أخي تفضل، هل يمكنني خدمتك بشئ؟

- هل حضرتك أبو سامر؟

- أنا بعينه

كان يجيبني بحذر وهو يتفحصني جيدًا، فأوحيت له بخصوصية الحديث:

- أنا من طرف صلاح وأريد مقابلة أبو خالد (**محمد الضيف**).

فابتسم بوجهي مرحبًا، طالبًا مني الانتظار قليلًا ريثما يفرع من زبائنه، ثم أجانبي بعدها:

- هو بانتظارك منذ الصباح

جزمت حينها أن هناك خطأ ما، فلا أحد في العالم باستثناء المقاتلين في بير نبالا يعلم بقدومي إلى القطاع حتى الضيف نفسه، فكيف سينتظرني؟! ومع ذلك لم أسأل التعليق على ذلك، لكنني استغربت كيف يمكن التعاطي مع شخص غريب بهذه السهولة

دون أن يكون هناك شفرة مُتفق عليها، وتحديدًا عندما يدور الحديث عن شخص في حجم «**أبو خالد**»؟! ربما شكل انسحاب قوات الاحتلال من داخل قطاع غزة وأريحا إلى خارجها، بعضًا من الأمان لدى رجال المقاومة فراحوا يترهلون في إجراءاتهم الأمنية! ربما، ولكن ما أهمني في حينها هو لقاء الرجل بسرعة، حيث نادى أبو سامر على ولده الصغير سامر الذي وقف ينظر إليّ بعينين حادتيّ الذكاء ووالده يوصيه بإيصالي إلى «**أبو أحمد**»: أبلغه السلام يا ولدي وأخبره أن عمك يريد لقاء «**أبو خالد**»، كان سامر يشير إليَّ بلقب العم، والطفل الذي لم يتجاوز الثمانية أعوام من العمر، كان يعرف الدرس جيدًا، فتسلم سامر دفة القيادة وأصبحت رهن إشارة سنواته الثماني، كان يمشي أمامي سالكًا طرقًا فرعية مليئة برمال غزة الملهبة، ينظر كل بضع خطوات نحوي، يتفقد خواصري بعينيه مخاطبًا:

ـ أعرف أنك منهم، لا تُنكر! ولا تظن بأنني صغير، أنا طفلٌ من غزة، أشم عبير المقاومين، أرى ما يخفون وراء عيونهم، أقرأ حركة أقدامهم، فقد علمتني أمي الفراسة! مُنذ أن صحوت ذات ليلة على أبي يمتشقُ بندقية جدي ويمضي إلى البيارات.

اخترق بي سامر طريقًا ينتصف البيارات وفي نهايتها كان هناك دكانٌ يبيع العصير، فابتعتُ واحدة لسامر وأخرى لي، فابتسم المقاوم الصغير يخاطبني مرةً أخرى:

ـ لن تعفيك هذه الضيافة مني يومًا، عندما آتيك جنديًا في جيش أبي حتى تأخذني معكم، فلا تُسكت ثورتي بدعوى أني صغير وإلا أضعتك في بيارات غزة

أعترف أنني كنت طفلًا يقوده سامر الرجل، فأطفال غزة رجال يولدون، لذلك ودعته بحرارة عندما أودعني عند «**أبو أحمد حرز**» الذي يملك معملًا للطوب أسفل عمارة سكنية تعود له، حيث كان في الأربعين من عمره، وقد رحب بي كثيرًا بعد معرفته أنني من خارج القطاع حيث سارع لمناداة أحد إخوانه لمرافقتي، وإلى حين ذلك جلسنا أمام منزله نتناول الشاي الذي حضر بسرعة يشاركنا عجوز كان يجلس قبلي في المكان، وكحال المجالس العفوية تبادلنا الحديثَ عن كل شئ ونظرات «**أبو أحمد**» التي كانت من ذات مدرسة سامر الصغير تحكي نفس اللعبة، لكن الذي كشف جزءًا من لغة العيون التي كان يتحدث بها أبو أحمد، حضور طفل صغير لا يتجاوز الثلاثة أعوام:

- هذا الطفل والده محكوم عليه بالسجن مدى الحياة في سجون العدو لعمله في صفوف القسام

كان أبو أحمد يستنطق عزائم المقاومة من خلالي، يرسل استغاثةً عاجلة:

- أبوه أسير مؤبد

ابتسمت حينها، نعم يحق لي أن أبتسم، فليقل أبو أحمد أنني فاقد الإحساس، لا يهم! فالكل مسموح ما دامت الحقيقة موجودة تحت ملابسي! آه لقد ضايقني الشريط كثيرًا ولكن لا بأس، هو وقت قصير وألقى «**أبو خالد**»،

وبعد قليل حضر الشاب وذهبنا معًا في السيارة للبحث عن «**أبو خالد**» والذي كان ينتقل في مواقع عدة حيث فشلنا في العثور عليه بعد أن علمنا بانشغاله في أمر طارئ، فتركنا له خبرًا بضرورة الحضور إلي بيت «**أبو أحمد**»، وعدنا أدراجنا إلى البيت بعد أن تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر الأمر الذي يضيّق علينا الخطوات التي افترضنا أننا نملكها، فصلينا الظهر ثم تناولنا الطعام الغزاوي الملئ بالفلفل الحار، حيث حدثني غزاوي ذات مرة أن الفلفل الحار فاكهةُ الغزاويين على المائدة، فإذا لم يحضر الفلفل اعتبرت المائدة عرجاء، حتى أن صديقًا آخر من مخيم جباليا كشف لي أشياء عن ثقافة الفلفل لدى الغزاويين الأقحاح وأنا أحاول إقناعه بتقليل أزرار الفلفل على مقلاة البندورة التي كنا نعدها للعشاء:

ـ هناك في غزة نسميها مقلاة الفلفل التي نضيف إليها القليل من البندورة، لذلك حرارتنا الجهادية دائمًا مرتفعة.

أضحكني يومها:

ـ ليست فقط حرارتكم الثورية، إنما الديمغرافية أيضًا فقطاع غزة بركان سكاني على وشك الانفجار.

فأجابني وهو يمرر قرنًا من الفلفل أمام أنفه:

ـ لذلك يتمنى العدو لو يصحو يومًا وقد ابتلعنا البحر!

انتظرت حتى صلاة العصر، ولم يكن من الحكمة أن أظل في القطاع أكثر من ذلك، حيث استمتعت خلال الساعات التي انقضت إلى أحاديث «**أبو أحمد**» ووالده العجوز وقد تنقل الحديث بين السياسة والبحر والأطفال الذين كانوا يرسمون لوحة الفوضى في المكان فكانت عكازة العجوز تحاول اصطياد بعضهم دون جدوى فكما قلت: أطفال غزة نوع فريد من الطفولة، يتحرشون بأسرارك، يقحمون شقاوتهم في رأسك، تسأل وأنت ترى ألعابهم التي اخترعوها بأيديهم على شكل رشاشٌ من حبلٍ وخشبة: هل يعرف أبرزهم ذكاءً أن في العالم أطفالًا لا تنام دون ذكر الجنود؟! وأن هناك مدينة للألعاب تخلو من إطلاق الرصاص ورعب الدبابات وصوتها الذي يعسكر على أسرة أحلامهم؟!.

كل شئ في غزة تسكنه الأحاديث حتى وجوه العجائز وأثوابهن المطرزة برائحة الليمون، ترى فيهن يافا وحيفا وبئر السبع واللطرون، فإذا وقفت تسأل عن شجرةٍ كانت في ساحة بيت إحداهن في يافا! تذهلك ذاكرةٌ من حنين، تحفظ من مروا بجوارها يتبادلون أحاديث البيدر والبيارات وقصص الميناء والبحّارة، وحكاية سعاد الجميلة التي انتظرت فارسها هناك فتزوجها رائد الوسيم ابن سميرة القوية التي....!. إذا أردت المزيد اذهب إلى عجائز المخيمات في غزة.

اضطررت حينها لاستخدام الخطوة التالية حيث كان صلاح قد أخبرني بإمكانية الوثوق بـ«**أبو أحمد**» حال غياب «**الضيف**»، لذلك طلبت منه الجلوس منفردين في غرفة جانبية بعيدًا عن الجميع! فاستغرب الرجل لكنه أسرع في تلبية طلبي، وهناك في الغرفة طلبت منه إحضار جهاز فيديو وتلفزيون! فنظر إليَّ بعينين تملأهما الحيرة، وزدت على ذلك طلبًا آخر: قلم وورقة. فامتثل الرجل الذي كان يملك جهاز فيديو في بيته، حيث جلست قبل كل شئ أكتب للضيف ما كنت أنوي ترتيبه معه، وأوله رؤيتنا للمطالب التي ينبغي تقديمها لقاء الجندي وثانيها: الشفرة التي ستكون بيننا وبموجبها يتم التخاطب عبر التليفون، حيث اعتمدت شفرة تجارية أكون فيها تاجرًا لمواد البناء في رام الله، يطلب الغزاوي نقلة من المواد المعنية بمواصفات كذا فيعني ذلك إطلاق سراح الجندي، أما إذا طلب النوع الآخر، فمعنى ذلك تمديد المهلة إلى مدة تتضح مع ذكر الأسعار.

وقد وضعت كل الخيارات في لغة الشفرة حتى مسألة قتله والتخلص من الجثة من عدمها، كل ذلك وأبو أحمد يقف محاولًا تفكيك شفرة الموقف وأنا في تسابق مع الزمن:

- يا أبا أحمد، ما سأخبرك به الآن ممنوع أن يطلع عليه أحد غير «**أبو خالد**»! وأنت محل للثقة.

- توكل على الله يا أخي، أنت وكل ما تقول في أمان.

ثم أخرجت من تحت ملابسي الشريط والوثائق بعد ساعات من الألم!، وسط ذهول «**أبو أحمد**» الذي كان ينتظر الكلمات من فمي وعيناه على الشريط، في هذا الشريط يوجد تسجيل لأحد جنود الاحتلال الأسير لدينا في كتائب القسام....!.

لم أنهي حديثي حتى انقض الرجل عليَّ تقبيلًا وقد ثارت مشاعره حتى قبل أن يسمع بقية الكلام، يردد عبارات غير منتظمة، لكنَّ أوقعها أثرًا:

- الله أكبر ولله الحمد. كانت تخرج من صدره كالطوفان.

- لله درُّك يا صلاح! كان يعلم وقع الخبر تمامًا كما أرى ملامحه الأولى الآن، ولمّا أدرت الفيديو على الشريط، انفجر أبو أحمد بالبكاء كالطفل الصغير، حتى أنني كدت البكاء لبكائه، كان يأكل الشاشة بدمعه ثم نطر إليّ:

- لا يوجد كلام، بل لا ينبغي أن يكون هناك كلام بحد الذي رأيته، الله أكبر ولله الحمد.

- المهم يا أبا أحمد، أن تصل الرسالة والشريط إلى الشيف.

- يا رجل! لو أخبرتني من البداية لأخرجته لك من تحت الأرض، فأنت لا تدري ماذا يعني ما رأيناه الآن على الشاشة، سيهيج البحر الآن.

- أسأل الله أن يتمم الأمر على خير، والآن سأعود من حيث أتيت.

- ما رأيك أن تبقى الليلة عندنا فتحظى بلقاء «**أبو خالد**» بنفسك؟!.

- لا أستطيع ذلك، يجب أن أغادر القطاع فورًا قبل مغيب الشمس ولا تنسَ بأن سيارتي قرب حاجز إيرز.

أوصلني أبو أحمد إلى الشارع الرئيسي ولا زال يتصرف بانفعال لا يمكن وصفه مطلقًا، حيث ودعني كطفل من أولاده، لكنني كنت حينها الوالد وهو الطفل لدرجة مشاعره التي كانت تتحدث عن نفسها بوجهه وحتى في جميع حركاته.

استقللت السيارة وغادرت القطاع كما دخلته، لا. لا لم أغادره كما دخلته، إنما غادرته أكثر وعيًا وفهمًا لما نمتلكه في بير نبالا، والحقيقة التي كان يجهل المرءُ الكثير منها، أن الأمر لم يكن صفقة تبادل وحسب، على أهمية الهدف الإنساني الذي يقف من وراء ذلك، إنما.. لا. سأترك ذلك للأحداث حتى لا يلومني السرد أو نُقّاد الحكاية، فلم يمضِ الكثير على عقد الصلح مع التشويق وأشقائه وأنا طائع لأسياد الحكاية.

كانت نظرات جنود الحاجز في إيرز تودع سيارتي المغادرة والمذياع يهزأ بنظراتهم تلك، وهو يورد خبر اختفاء آثار جندي إسرائيلي منذ مساء البارحة، وكأنه يصرخ: يا لحماقة غفوتكم، هناك كانت ملحمة الأمس لحظة أن صرع الأشباحُ هيبتكم، ألا ترون ما أراه؟! لا زالت رائحته تلصق في كل شبر من السيارة،

كيف لكم أن تقبلوا هزيمة العيون بهذه السرعة؟! انظروا إلينا، هيا أيها البلهاء، راقبوا انفعال السائق وأنا أذيع الخبر، ألا ترون ما أرى؟! أوقفونا بسرعة قبل أن نختفي بين النجوم، إنه يبتسم، نعم يبتسم وأنتم تُسكرون يقظتكم بخمر الغباء، يا لحسرة هيبتكم التي ديست البارحة في هذا المكان.

ابتعدت عن الحاجز والمذياع لا زال يردد فقدان آثار الجندي، وقد اختلطت المشاعر حينها ما بين الفرح الذي سيخرج بعد الآن من دائرتنا الخاصة إلى عالم المظلومين وما بين معركة التحدي التي سنخوضها مع دولة غاصبة لم تستسلم حتى اللحظة، فهكذا نوع من المقاومة النوعية، بعد أن خبرت تجربة قبل عامين عندما أسرت كتائب القسام الجندي نسيم طوليدانو في مدينة الرملة بعد صدمه بجناح السيارة التي كانت تقودها الوحدة الخاصة من أبناء القدس، ليجد نفسه خلال ثوانٍ مقيدًا تحت أقدام الرجل دون أن يعرف كيف أصبح أسيرًا دون إذن مسبق، حيث سارع المجاهدون إلى إخفائه في كهف سري في جبال القدس كان معدًا لهذا الهدف، ثم نشرت الوحدة خبر تنفيذها لعملية الوفاء للشيخ أحمد ياسين عبر أسر الجندي نسيم طوليدانو معطية حكومة العدو مهملة قدرها ثمانية وأربعين ساعة لإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين بوساطة ألمانية ونمساوية وبلجيكية، مع تعهدها بإطلاق سراح الجندي فور تنفيذ مطلبها، محذرة من عدم التجاوب مع شرطها، وكانت المرة الأولى التي تجري فيها المقاومة محاولة جريئة من هذا النوع

بعد أن فشلت محاولات كثيرة في الاحتفاظ بالجندي حيًا مما وضع حكومة الاحتلال في مأزق حقيقي دفعها للتعنت، الأمر الذي كان معناه القضاء على الجندي من جانب الوحدة الخاصة التي كان يقودها المجاهد محمود عيسى بعد انتهاء المهلة، حيث قام المقاتلون بتنفيذ تهديدهم بقتل الجندي الغاصب ورميه على طريق القدس أريحا، ولأن العملية قد اكتسبت خصوصية من حيث الشكل والمضمون فإن ردة فعل العدو كانت هستيرية بامتياز، عندما أقدم على عملية الإبعاد الجماعي إلى مرج الزهور في جنوب لبنان.

كانت عملية اخترقت ارتداداتها فضاء الإعلام في العالم، وقد وصلتنا هناك في فماغوستا، وللحقيقة فإن استحضار التجربة الأولى تلك ونحن في بداية المعركة!....

لحظة، لحظة، ماذا هذا؟! يا إلهي، أين أنت يا حسن ويا عبد الكريم وصلاح، جندي صهيوني يشير إليَّ بيده يريد الصعود، يا إلهي لا يوجد أحد في الشارع، يرجوني في التوقف لاصطحابه، يبدو أنه لم يسمع الأخبار؟! وحتى لو سمع فلن يفيد ذلك ما دام يريد الوصول إلى بيته أو معسكره دون تأخر، تحسرت حينها على تلك الفرصة، لكنني سرعان ما رفضت عروضًا أُخرى طيلة الطريق إلى القدس يدفعني الحذر إلى عدم التهور في تجربة لوحدي، وخاصة أننا ينبغي أن نحسب كل خطوة نخطوها بعد اكتشاف اختفاء الجندي.

لكن تجربة نسيم طوليدانو ظلت ماثلة أمامنا بأبعادها المتعددة، تقرأ في حينها تهديدهم، ثم يقودك التفكير إلى ردة فعله تجاه شعبنا، فقد أقدم يومها على إبعاد مرج الزهور فماذا تراه يفعل في هذه المرة؟! الحقيقة، إسكات العقل عن الإطناب في التحليل أولى وقد أعفانا دورنا التنفيذي من ذلك، ومع ذلك تظل تطاردك الأفكار لتجيب عن بعضها البعض، حيث تجول في خاطري اللحظة مقولةٌ كان يرددها ساسة العدو في تلك الفترة ما بعد مرج الزهور: لقد كنا نتعامل مع حركةٍ مقاومةٍ محلية تتجاوز أصداؤها أحيانًا إلى المحيط العربي، وبتنا اليوم السبب الرئيسي في إظهار هذه الحركة على الساحة الدولية فيا لحماقة قراراتنا الهوجاء، حتى قبائل الزولو جنوب إفريقيا جاءت تخطب ودهم.

ضحكت حينها، أريد الصراخ بأعلى صوتي، حتى يسمع كل العالم، لا يهم ما سيفعله العدو، فلن يفعل أكثر مما أوقعه بحق شعبنا، المهم أنني كنت سعيدًا أتوق إلى رؤية الجندي مجددًا فقد غبت يومًا كاملًا بجسدي عن القدس.

وعندما كنت في طريق عودتي إلى القدس، كانت جبل النار تحتضن بشائر الانتصار أسوة بغزة هاشم، حيث أودع زكريا الرسالة في النقطة الميتة المتفق عليها دون أن يقابل أحدًا ثم غادر المدينة عائدًا إلى القدس، فجاء المسئول عن النقطة الميتة تلك وقام بإفراغها بعد أن وجد لاصقًا صغيرًا موضوعًا على الجدار القريب من النقطة التي كانت عبارة عن سلة قمامة ثابتة ثم وضع الرسالة تحتها،

حيث كان المسئول يأتي في مواعيد محددة بدقة يفحص إن كانت هناك علامة توحي بالشحن، ولما انتهى من التفريغ وغادر بسرعة، عاد زكريا بعد ربع ساعة إلى النقطة ليجد إشارة التفريغ التي لا يمكن تمييزها إلا من اثنين فتأكد لديه التفريغ فطار عائدًا من حيث أتى، أما المقاتل الذي يُحذَر عليه فتح الرسالة المكتوبة بالشفرة فقد توجه بها إلى «**أبو النور**» في معرض الحقائب خاصتهم في البلد القديمة إلى القرب من مركز المدينة، حيث كان في زيارة إلى والده، وبينما كان يقف أمام المعرض يتبادل الحديث مع صاحب المحل المجاور، شاهد المقاتل السري يمر من أمامه، فتبعه بسرعة إلى سوق الخان التجاري الذي كان مليئًا بالمتسوقين حيث انعطف المقاتل يمينًا وقد صعد من درج النصر المؤدي إلى باب الساحة، أحد أحياء البلدة القديمة الأكثر شهرة، وهناك سلمه الرسالة بطريقة فنية عندما تصنع الوقوف على الأرض فساعده أبو النور، الذي مضى إلى حال سبيله بعد أن أصبحت الرسالة المغلقة بإحكام بيده، وهنا.. كان أبو النور يرتل توسلاته للمولى بأن تحمل الرسالة البشرى بنجاح العملية، وقد سهر الليالي السابقة مع المهندس يسألان التوفيق والظفر للرجال، حيث توجه شرقًا باتجاه شارع حطين للخروج من البلد القديمة حتى لا يعود إلى محل والده فيتأخر عن قراءة الرسالة، كان قد اتفق مع حسن وأخويه بأن تتم المراسلة للضرورة،

وها قد هلت بشائر الضرورة، حيث أخذ يستحلف المولى يُقسِمُ عليه أن تحمل الرسالة ما يتمنى، والأمنية في الخير طاعة ويا لها من طاعة ستسجد لها جباه المظلومين، كانت جوارح «**أبو النور**» تطير به عن الأرض حتى وصل إلى سيارته المركونة قرب إطفائية البلدية، وعندما همَّ بتشغيل المحرك، لم يستطِع الإكمال، فنظر من حوله يتأكد من عدم مراقبته، ثم أخرج الرسالة وفتحه! حيث تجاوز المقدمة وصولًا إلى أجمل كلمات يقرأها فصرخ: الله أكبر.

فوقف عجوز جانب السيارة ينظر إلى هذا الشاب الذي يصرخ لكنه سرعان ما ابتعد عنه بعد أن رددها مرة ثانية وثالثة وهو يشغل المحرك وينطلق كالريح يحمل للمهندس أروع الحكايات، فنظر العجوز إلى الوراء مرة ثانية وهو يضع يده خلف ظهره متأسفًا: ماذا حدث لشباب اليوم؟! أيكون امتلاك السيارة أو الأتوموبيل مدعاة للجنون؟! وأسفاه على شباب اليوم. لكن العجوز كان لا يستطيع مجرد التخيل ما كان قد جعل «**أبو النور**» مجنونًا!! أما أبو النور المجنون بعظمة المجاهدين وإنجازهم الذي لا يمكن أن يُقدر بثمن، فقد تذكر أنه يتعذر عليه الوصول للشقة التي يتواجد فيها المهندس في هذا الوقت، فذهب إلى حيث ينبغي أن يكون في هذه اللحظة التاريخية، إلى حي المخفية غرب المدينة إلى جوار جامعة النجاح الوطنية، وهناك! في أقصى الحي إلى القرب من تلةٍ مرتفعة ركن السيارة جانبًا ويمم نظره ووجدانه صوب الأسفل! تمامًا عندما ينتهي سفح الجبل

حيث يجلس قبر كبير جدًا يتسع لمئات المسلحة ببنادق الظلم والاستبداد والقرصنة، إنه سجن جُنَيد، ويا لسوء المحتل وبغضه، عندما يشوه الأشياء الجميلة، فالسجن يقع إلى القرب من مقام الإمام الجُنيد التي سميت القرية المجاورة على اسمه، لينسحب الأمر على السجن الذي ضم بين جنباته التين والزيتون والليمون وحتى البرتقال اليافاوي والياسمين الذي لا تسكن ثورة الحسناوات إلا بعبيره الأخّاذ، رجال هم فلسطين الجميلة ولكنهم!! ليسوا أحرارًا في بساتينها وإن كانوا هم الأشجار ذاتها، حيث وقف أبو النور يود لو يحضر المذياع اليدوي كما كان يفعل إخوانه في الليل، ويصرخ حتى يصل صوته إلى الأبطال هناك، يزف إليهم النصر مع الدموع، يحثهم على حزم الأمتعة، لا لا دعوها مكانها فلسنا بحاجة إلى غير الحرية، فستلبسون ثيابها الرائعة وتبولون فيها -عفوًا- تبصقون على وجوه سجانيكم وتمضون.

لم يكن أبو النور الذي تكاد صرخةُ روحه وقلبه الوصول إلى داخل زنازين السجن! يدري الذي يحدث خلف تلك الجدران التي تحبس داخلها أنسام فلسطين، وقد ظن بأنه المبشر الأول، لكن الحاج أبو هدوان كان عكاشة القوم فسبقه بالبشرى، كان ذلك فجر الأمس عندما أطل بعد الصلاة من بين قضبان نافذة غرفته المطلة على جبل عيبال، وسأل الله وهو يستنشق هواء الصباح بأن يرزقه الرؤيا الصالحة،

ولما نام على ذلك واستيقظ في السادسة صباحًا على غربان يهود تنعق طالبة الاستعداد لعدد الصباح، كان حلمه الذي رآه لا زال ينطبع في مخيلته فخاطب نفسه: إنها الرؤيا الحق وليست أضغاث أحلام، سنسمع خبرًا جميلًا اليوم، ثم نهض عن برشه الأرضي الذي استحقه بحكم السن والمرض، فهو يكاد الاقتراب من الستين أو قل السبعين، فالعمر في السجن يتضاعف إلى الحد الذي يصبح فيه الأربعينيُ شيخًا والذي ينتصف الخمسين كهلًا، تمامًا كهذا المقدسي العجوز الذي لا زال يكتب الشعر في زوجته ولا يهم أن يكون موزونًا على بحور الشعر، كما يقول: فيكفي أبياته فخرًا أن يزنها عشقه لحبيبة فؤاده أم حسن التي أنجبت له البنين والبنات قبل أن يرحل قسرًا عنها وعن أحياء البلدة القديمة في القدس، فعندما تلتقيه في غرفته لن تستطيع الفكاك قبل أن تسمع غزلًا تستحقه أم حسن:

إني أغارُ فليت الناس ما خُلقوا

أو يا ليتهم خلقوا من غير آذان

نظرة منك تسحرهم

أو يا ليتهم خلقوا من غير أجفان

فيضطرب الأسير الزائر لبرشه من صبابة العشق لدى «**أبو حسن**» والذي يناديه معشر الأسرى أيضا بالحاج أبو هدوان.

أيقظ أبو حسن إخوانه جميعًا، فالعدد لدى الزبانية قانون يتكرر أربع مرات في اليوم أهمها الصباح الذي يخشى فيه السجان اختفاء شيءٍ من الأسير، كأنفاسه مثلًا أو حتى واقع أنه أسير، فينبغي أن يذكره دائمًا أنه أسير ممنوعٌ عليه حتى الخيال ولكن!! يضحك أبو حسن وهو يقف على العدد مع إخوانه التسعة وجميعهم ينتظر اللحظة التي ينصرف فيها الضابط وجنوده من الغرفة حتى يعودوا لكسب ساعة من النوم قبل بدء اليوم الذي يتكرر منذ عشرات السنين، فيسأله نائل البرغوثي الذي يصرّ على النوم في البرش العلوي حتى لا يظن أحد بأنه على أبواب الشيخوخة: أيقظتنا قبل أن يدخل العدد إلى القسم وقلنا لا بأس! فلماذا تضحك؟! ألم تنتظر حتى يخرج العدد؟!.

اقترب أبو هدوان إليه مخفضًا صوته حتى لا تتصاعد المطالبات له بالهدوء حيث كان نائل قد صعد هو الآخر على بُرشه: لقد رأيت رؤيا وأظن بأن الإفراج قريب.

ابتسم نائل الذي كان أشقر البشرة وقد أسكنَ البديع في وجهه عينين زرقاوين: خيرًا لاقيت وشرًا كفيت يا حاج، ولكن! قل لي، كم مرة رأيت أحلامًا وكان تفسيرها الإفراج؟!

ـ لا، لا هذه المرة كنت مرتاحًا جدًا، فقد سمعت صوتًا ينادي علينا من بعيد ونحن وسط الماء في البحر نصارع الأمواج العاتية وجميعنا يبحث عن مصدر الصوت ينتظر قدومه لإنقاذنا.

ازداد نائل ابتسامًا وهو يتناول الراديو الصغير من جانبه وقد طارت بقية النوم من عينيه، فعلّق أبو حسن:

- ها.. أرأيت، أنت تبحث عن الأخبار السارة في الراديو، لا تُنكر!.

- يا حاج! أنا أسمع الأخبار دائمًا، فلا تبالغ، ومع ذلك أسألُ الله أن يطمئن قلبك وقلوب هؤلاء المساكين، والآن دعنا نطلع على أخبار العالم.

لكن أبو حسن بقي طيلة اليوم متفائلًا، يحدّث حلمه لمجموعة المفسرين في القسم الذي يعيش فيه، فلا يكاد يخلو سجن أو حتى قسمٌ صغير من المعبّرين الذين تتلمذوا على كتاب ابن سيرين لتفسير الأحلام، فتلك صنعة غير مدفوعة الأجر، حيث اجتمعت آراء المفسرين كالعادة على قرب الإفراج فالتفسير على هذا النحو يبث السلوى في نفس الأسير الذي يشبه الجائع حين ينحصر تفكيره بالطعام فيراه في أحلامه ويقظته، ولما جاء المساء وأبو حسن يتبادل الحديث مع عامل المردوان من الأسرى، كان نائل يسمع الراديو كعادته وقت استراحته من المطالعة، فجأة أطلق ضحكة حتى يسمعها الحاج الذي أتى مسرعًا إليه:

- هيا قل، هل هناك خبرٌ مفرح؟

حاول نائل ممازحة الحاج:

- وماذا ستعطيني لو أخبرتك؟! أتظن بأن الأمر بهذه البساطة!

- سأزوجك حفيدتي عندما تكبر.

فشخصَ نائل حاجبيه وهو يعاتبُ الحاج ضاحكًا:

- ستبقيني عشرين سنة فوق السبعة عشر التي قضيتها؟! ألا تخشى الله يا حاج!

- هيا يا نائل، ارفق بأخيك المريض وإلا شكوتك للحاجه فرحة على الزيارة.

- أمسكتني في مقتل ومن اليد التي تؤلم، الخبر باختصار!.

- هل سقطت طائرة إسرائيلية في لبنان وأمسكوا طيارها؟!.

- اصبر يا رجل، فكل القصة أن جنديًا صهيونيًا اختفت آثاره البارحة قرب مطار اللد.

- ها! ألم أقل لك، ألم أخبرك أنا سنسمع خبرًا سارًا، لقد استخففت برؤيتي..

- معاذ الله يا حاج، لكنك رأيت عشرات الرؤى التي جعلتنا نتحرر ونحن لا زلنا على أبراشنا، هذا بالإضافة إلى الأحلام التي نراها نحن أيضًا.

- لكنك تقول بأن جنديًا قد اختفت آثاره؟!

- صحيح ولكن! كم مرة سمعنا مثل هذه الأخبار ويتم العثور عليه إما منتحرًا أو هاربًا من وحدته أو حتى ثملًا في أحضان زانيته؟!.

وبينما نائل يتحدث، بدأت أصوات الأسرى تتصاعد وهم يتبادلون الحديث على الأبواب وجميعهم يحلل اختفاء الجندي وفرص أن يكون أسر المقاومة أو كما قال نائل مجرد تكرار لحوادث اختفاء سابقة؟!. ومع ذلك انكب غالبية الأسرى على متابعة التلفاز ومحطات الراديو المختلفة.

كل ذلك كان يحدث وأنا أعبر بير نبالا أبحث عن مكان بعيد عن البيت أضع فيه السيارة، غير الذي تركتها فيه آخر مرة، فالحرب الآن أصبحت على جميع الجبهات وبكل الوسائل القتالية العلنية منها والخفية، حيث انتشرت في تلك الليلة ما قبل الإعلان عن اختفاء الجندي حواجز التفتيش المفاجئة ودورياته التي تتحرك تبحث عن أي حركة مشبوهة، لكن الأخطر من ذلك! العدو الخفي الذي تشعر به ولا تراه ويتحرك بين الناس وربما يصافحك وأنت لا تدري، أو ينظر داخل سيارتك بدعوى الفضول فلا تلقي له بالًا ولعله يرفع تقريرًا باختلاف طبائعك اليومية فما دمت ناشطًا سياسيًا أو بتعبير أكثر شعبية! تعمل في الانتفاضة، فإنك خاضع لا محالة لنظام المتابعة الذي يشتد وقت الأحداث المهمة وتحديدًا إذا كنت فاعلًا في المقاومة التي تنتهج النوعية في أساليب عملها، فالخائن أو الجاسوس أو العميل في لغة الانتفاضة، يمكن أن يكون أي إنسان ارتهن لعدوه في لحظة ضعف ولم يستطع التخلص من كاره فغدا حذاءً من النوع الرخيص يرتديه ضابط مخابرات العدو حتى إذا ما أدى كامل دوره خلعه في أقرب مزبلة أو حاوية قمامة، لذلك! لم يكن ممكنًا أن يتغير النظام اليومي لدي ولدى زكريا صورة لافتة وتحديدًا بعد أن نعلن في الإعلام عن هوية كتائب القسام التي قامت بعملية الأسر، حيث تفترض قيام العدو بحملة من الإجراءات إحداها الاعتقالات العشوائية لمحاولة جمع المعلومات يسبقها تفعيل جهاز العملاء. الكلمة الأخيرة تدعو للضحك قليلًا، رغم أنها أصعب الكلمات لدى شعبنا الذي يقرنها بالشيطان

أو أقبح شئ قد يخطر على بال أحد لذلك، يحكم العميل على عائلته قبل نفسه بالدمار الأخلاقي بين الناس حيث السمعة التي لا يغسل ما علق بها البحار والمحيطات، أما أنها كلمة مضحكة! فذلك يكتشفه الفلسطيني عندما يتعامل مع البنوك خارج الأرض المحتلة حيث يطلقون على واضع النقود بالعميل، وهذه التسمية التي نكرهها كرهنا للعدو، جعلت البنوك التي فتحت في الضفة الغربية والقطاع بعد اتفاقية أوسلو تطرح بدائل لهذه الكلمة التي اعتقد لو أن موظفًا مسكينًا قالها لوالد شهيد لأخرج عاموده الفقري من بطنه!.

وصلت عند المقاتلين بعد المغرب، وقد وجدتهم ينتظرون عودتي على أحر من الجمر، حيث كانت حادثة اغتيال الشهيدين إسلام أبو أرميله وإبراهيم سلامة في معبر إيرز ماثلة أمامهم وخاصة حسن الذي استقبلني بحرارة:

- حمدًا لله على سلامتك.

لم أستطع لحظتها الإجابة وصلاح يعانقني، يود لو يستنطق أنفاسي أو حتى بقايا رائحة البحر التي كانت تصحبني:

- هيا يا أبا عمر، أخبرني عن غزة! كيف استقبلت الخبر؟!

كان صلاح يجمع غزة في لوحة رجل يقود المقاومة هناك، تلك فلسفته التي لا يتقنها إلا أصحاب الرؤوس الكبيرة التي تدور فيها فلسطين بأكملها فلا يسجن نفسه في أفق ضيق: أخبرني عن غزة؟!.

- يسألني عن كونٍ من النُدرة لا يمكن لأسئلة العالم أن تجيب عليه، فكل ما في غزة عنيد حد الاستعصاء فلا تقوى على فهمه إلا إذا كنت من أهل عزيمة حركت في القِدم قعيدًا فصنع ثورة:

- أمهلوني دقيقة كي أرتاح.

لكنني حينها كنت أدفع أسئلتهم عني حتى تفسح أجسادهم الطريق لأعبر عند هذا الذي كلما تقدمت الساعات أحدث بوجوده في أيدينا الأفاعيل، فنادى عليَّ عبد الكريم وأنا أمر من بينهم:

- الجندي لم تبتلعه الأرض، ونزيدك من الشعر بيتًا...

ثم سكت ليثيرني حتى أهدأ وأطمئن، وقد أخفى أمرًا فيه شئ جيد يتعلق بالجندي، لكنني توقفت قليلًا:

- إخوانكم في غزة هاشم يقبّلون رؤوسكم، هل هذا يكفي.

كان الثلاثة لحظتها في قمة الانفعال وتحديدًا صلاح الذي طلب المزيد وهو يبادلني الابتسام:

- وهل استوعبوا الأمر من البداية، بالله عليك ألم يبكِ أبو خالد «**الضيف**»؟

- بكى من ناب عنه، أبو أحمد، وأظنه يبكي اللحظة.

ثم شرحت لهم ما حدث معي باقتضاب وأنا أنظر إلى الجندي من بعيد، ثم اقتربت إليه أود لو أقول له:

- شكرًا لأنك صعدت معنا، لو تعلم ما يعنيه وجودك في هذه الغرفة، أو للدقة في أيدي المقاومة! أظنك حينها ستطلب أن تكون أميرًا في قصره إلى حين التبادل، لا يهم، اعتقد ما شئت، لكن ادع بمن تؤمن به أن يستجيب أسيادُك لمطالبنا ويقدروا ثمنك، وإلاّ.... لا، لا أعوذ بالله، من دون إلاّ.

كان الثلاثة يرقبونني وأنا أنظر إلى الجندي، فتقدم عبد الكريم نحوي:

- ضيفنا الأسير يحمل الجنسية الأمريكية.

لحظتها خرجت مني كلمة تعجب كبيرة:

- أف، مرة واحدة؟!

فاستطرد حسن:

- فوجئنا أنه يتحدث الانجليزية بطلاقة الأمر الذي سهّل علينا، فكما تعلم فأنا وعبد الكريم نتقنها جيدًا، فلما سألناه أين تعلمها فأجاب ببساطة أنه أمريكي، يعني أشكنازي!؟

كان حسن يطلق الكلمة الأخيرة بشئ من لفت الانتباه لأهمية الأمر والذي يدركه جيدًا من يعيش إلى القرب من مجتمع الصهاينة، أقول مجتمعًا من الناحية المجازية فلا أعتقد بأن الصهاينة طيلة احتلالهم لأرضنا استطاعوا أن يشكلوا مجتمعًا متجانسًا من الناحية الثقافية وغيرها، وهذا يفسر ملاحظة حسن الهامة، فأسيرنا هذا من أصول غربية تحظى بمكانة الصدارة في التصنيف الداخلي لدى الصهاينة، فيهود أميركا وغرب أوروبا ووسطها يسمون أنفسهم بالأشكناز، ويرون بأنهم أعلى درجة من بقية اليهود من أصول شرقية والذي يطلق عليهم بالسفارديم، لذلك ترى الفشل واضحًا في صهر الأصول المختلفة في مجتمع يهودي متجانس، وهذا ما يعطي أهمية لهذا الجندي الذي ستخدمنا أصوله.

حينها لم أجد بدًا من الضحك، فسألني صلاح عن ذلك:

- تخيّلوا لو أن الجندي من أصول أثيوبية صعد معنا بدلًا من هذا الأشكنازي؟!

فضحك حسن من أعماق قلبه وهو يجيب:

- أظن بأن الصهاينة سيفرجون عن الأسرى شريطة أن لا نعيد لهم الجندي إلى الأبد.

استغرب صلاح:

- ألهذه الدرجة يكرهون بعضهم البعض، فلماذا أحضروهم من أثيوبيا إذا كانوا ينظرون إليهم بعنصرية؟!

هنا تدخل عبد الكريم:

- كانت معركة ديمغرافية تقضي بجمع أكبر عدد من الصهاينة على أرض فلسطين التاريخية وفي أوقات قياسية، وقد تستغرب إذا علمت بأن كثيرًا من هؤلاء ليسوا يهودًا، بل ادّعوا اليهودية للهروب من فقر إفريقيا المدقع، ولما جاؤوا هنا تعاملوا معهم بدونية غير إنسانية تليق بأخلاق الصهاينة.

ولأن الوقفة أمام الجندي الذي كان لا يتقن كلمة بالعربية، قد تطورت على هذا النحو، تذكرت شيئًا كنت قد سمعته في حوار على الراديو، أطرافه يهود صهاينة أشكناز يهاجمون سكان دولتهم الغاصبة من الروس، حيث يقول أحدهم بأن الروس دمروا الطابع اليهودي للدولة عندما تجمعوا في مدن محددة حولوها إلى مناطق روسية بحتة، لا يتحدثون فيها إلا اللغة الروسية، وحتى لافتات محالهم مكتوبة بالروسية، لكنَّ الأخطر من ذلك، أن الكثير منهم نصارى استفادوا من قانون العودة الذي أقرته الكنيست في الخمسينيات ويقضي بمنح يهود العالم حتى العودة إلى أرض إسرائيل، ويستفيد من ذلك كل من له صلة قرابة قريبة أو بعيدة بشخص يهودي.، عندها انفجر صلاح:

- أرض الآباء، والأجداد التي تبعد عنا أمتارًا معدودة.

لحظتها كان لابد من تلطيف الجو:

- لكنك يا شيخ صلاح تدخلها الآن بسلاحك دون أن يوقفك أحد، وليس هذا فقط، بل وتدوس بقدمك على أشكنازيهم هذا، فهون عليك يا أخي، سيأتي اليوم الذي سنعبرها فاتحين.

فردد الثلاثة معي: إن شاء الله.

غادرتهم بعد العشاء، حتى أكون جاهزًا لإجراء أول مكالمة مع «**أبو خالد**» كما اتفقت مع «**أبو أحمد**»، ودائمًا كنت أضرب لهم موعدًا لعودتي لوضعهم في صورة التطورات، وقد أصبحتُ عمليًا خط الاتصال الوحيد مع غرفة القيادة التي ستدير عملية المفاوضات إن تطور الوضع إلى هذه المرحلة، على أن فرص تحقيق ذلك خاضعة بالضرورة إلى مدى تجاوب العدو مع مطالبنا التي سيديرها أبو خالد من القطاع، وللحقيقة فإن عزيمةً لا يمكن وصفها كانت تحركنا لنسف أسطورة خاطئة في الأذهان أن الاحتلال لا يمكن أن يجري مفاوضات للتبادل داخل الأرض المحتلة، رغم أن المحاولات السابقة لم تصل إلى المرحلة المطلوبة، في هذا ما كان يؤذي الأسرى كما أخبرني حسن ونحن في فماغوستا، حيث كانت بعض الآراء التي يتترس خلفها بعض الاتكاليين من العابرين على خط المقاومة عبورًا، والقاضية بحكم خوفهم من دفع الضريبة، أن لا إمكانية لنجاح الأمر داخل فلسطين، حيث يبنون موقفهم على نظريات لم تختبرها التجربة العملية، وللحق فإن رجالًا كان حسن يصفهم بالطيبين من أبناء شعبنا والداعمين لخط المقاومة، يرددون ذلك بدافع إيجاد البديل ودائمًا أنظارهم إلى لبنان تحديدًا حيث إمكانية الاحتفاظ بالجندي وإجراء المفاوضات المريحة دون ضغط العدو المباشر

، لكننا قررنا أن نُحدِث الفرق هذه المرة، وقد رأيت ذلك في صوت «**أبو خالد**» الذي كان ينتظر في الثامنة تمامًا على خط الهاتف المقابل في قطاع غزة، حيث كان يريد الخروج من سماعة الهاتف، تكاد فرحته أن تفضح أمرنا وقد تخليت جيشًا يصطف من خلفه وجميعهم يود لو يهتف على لسانه، يبكي ويضحك، يلحن البشرى أغنية وينطلق في سماء غزة، بل في سماء فلسطين ويصدع: الله أكبر.. ما أجمل فرحة المظلوم.

كان انفعال «**أبو خالد**» يوشي بحقيقة الإنجاز الذي تم، لكنه في ذات الوقت يقرر خطورة الأمر وحساسيته التي تتطلب أقصى درجات الانتباه، وهذا ما دفعه دون تردد للسؤال عبر الشفرة المتفق عليها، عن إمكانية نقل الجندي الليلة إلى قطاع غزة؟! لأسباب يقرها المنطق وقتها عبر توفر الظروف التي يمتلكها الجهاز العسكري هناك والتي لا تتوفر قطعًا في القدس ولكن!! فات أوان ذلك، بعد أن أعلن العدو عن اختفاء الجندي طالبًا مساعدة سكانه من الصهاينة في البحث عنه، واضعًا كافة أجهزة أمنه وجيشه في حالة استنفار انعكست أوتوماتيكيًا على تصرفات قواته على الأرض، وقد أوضحت لـ«**أبو خالد**» أن الأمر كان ليتم بسهولة لو أننا علمنا بذلك مسبقًا، لكن اللامركزية التي كانت تحكم عمل مجموعتنا وبموجبها لا يتم تحديد زمان ومكان العمل وفي بعض الأحيان نوعيته، منعت ترتيب ذلك، لكن المهم لدى «**أبو خالد**» الذي اقتنع بما سقته إليه لحظتها، أن الله قد رزقنا هذا وينبغي أن نحافظ عليه كحفاظنا على أنفسنا وأكثر،

وفعلًا قد رأيت في كلماته التي شكّلت صورة حماسته وإحساسه، ضحكات أطفال الأسرى التي ستشهدها فلسطين بعد ساعات، وبكاء الأمهات وحياء الزوجات اللائي يخبئن فرحتهن وراء دموع الأمل، كان يرجوني دون أن يقلها، أن أُقَبِّل الرجل، وأتوجَهم بواسل الزمن المقاوم وأرتل على مسمعهم كلماتٍ سيقولها طفلٌ يستيقظ كل صباحٍ منذ عشر سنوات، تودعه أمه إلى المدرسة مصطحبًا معه وجهًا عبوسًا يرقب أطفال جيله وهم يحملون على وجناتهم الحمراء قُبلَتين! إحداهما من شخص لم ير شبيهه في البيت ولم يسبق أن حظي بلمسه فضلًا عن شفتيه، تسميه الطبيعة بابا!!، تُخاطبه وجنته ذات صباح: وهل تعدلُ كل الشفاه حنانًا من شفتي بابا الغائب هناك!.

ودعت «**أبو خالد**» بعد الاتفاق على التواصل يومًا بنفس الطريقة، لرصد آخر التطورات وإن كان هناك ثمة توجيه طارئ، حيث سيختار أبو خالد طريقة إدارته للموضوع من حيث التوقيت والأسلوب الذي سيتم فيه مخاطبة العدو بطريقة غير مباشرة.

أما على الجانب الآخر !! أقصد معسكر العدو حتى لا تلتبس الألفاظ مجددًا بعد أن تم تسويقُ العبارة الأولى لتليين العدو الغاصب الذي يقف بدباباته على صدورنا وصولًا إلى قبوله كجانب آخر يحظى بشرعية الألقاب اللطيفة

فضلًا عن شرعية الوجود، المهم! كان التوتر قد بدأ يسيطر على تقارير استخبارات الجيش التي تزايدت لديها الشكوك في إمكانية وقوع الجندي في الأسر، في الوقت الذي فشل فيه جهاز المخابرات -الشاباك- خلال ال**24** ساعة الماضية في تحديد أي شئ يُذكر، سوى تقدير أولي يتفق فيه مع الاستخبارات العسكرية -أمان- على ذات الفرضية، لكن رئيس وزراء العدو -اسحق رابين- ووزير الدفاع في آنٍ واحد، والذي كان يتفقد موقع عملية الأمس في شارع يافا، كانت تشغله معضلة اختفاء آثار الجندي يحاول دفع مجرد تخيل وقوعه في الأسر لخبرته القريبة البعيدة في هذا الأمر ومع ذلك! كان يتلقى التقارير الأولية لعملية البحث كونه وزيرًا للدفاع الأمر الذي دفعه لإصدار الأوامر للتعامل مع الأمور بفرضيته السيئة، حتى جاءه تقرير الأجهزة الأمنية وهو ينظر إلى أماكن الرصاص الذي اخترق جدران طريق بن يهودا الذي يتسكع المارة والمرتادون للمقاهي المصطفة على جانبيه، والقاضي بتغليب إمكانية أسره والتعامل مع الأمر على هذا النحو، حيث غادر المكان فورًا متوجهًا إلى مقر هيئة الأركان في تل أبيب ليشرف مباشرة على الطاقم الذي أمر بتشكيله حالًا لمتابعة سير البحث والتعامل مع التطورات بأقسى سرعة ممكنة، فلا زالت أصداء عملية أسر نسيم طوليدانو وانعكاساتها على شارع الناخبين لديه تلقي بظلالها المخيفة عليه وعلى حزب العمل الذي يقف على رأسه.

وهناك! حيث القاعة المخصصة لاجتماعات هيئة الأركان العامة والواقعة في نهاية ردهة محصنة تتيح إدارة الجيش وقت الأزمات، كان يجلس رئيس هيئة الأركان -يهود باراك- على رأس مجموعة الضباط التي تتعقب آثار الجندي محاولًا إقناع رئيس وزارته بمغادرة المقر للراحة في بيته بعد أن وضعه في صورة الإجراءات التي تم اتخاذها، لكنَّ دوائر الدخان التي كانت تتصاعد من سيجارته السابعة منذ دخوله القاعة التي تتوسطها طاولة كبيرة، قد أجابت مبدئيًا على طلب باراك الذي كان يبسِّط الموضوع محاولًا استبعاد ما توصلت إليه أجهزة الأمن من قناعة:

- اسمعوا جميعًا! لا تعنيني كثيرًا التقارير، أريد خبرًا واحدًا يجعلني الليلة أنام.

ثم نهض ببطئ عن الكرسي وهو يوجه نظره إلى باراك:

- الجندي يجب أن يكون تحت سيطرتنا، حيًا، ميتًا، لا يعنيني كثيرًا، لكنني لا أريده بأيدي المخربين.

كان المتواجدون يدركون عواقب غضب هذا العجوز الذي يرفض أن تلاحقه لعنة المقاومة بعد فشله في إنهاء ظاهرة عماد عقل التي استمرت بعد استشهاده، ثم كابوس المهندس الذي باتت هجماته تؤسس لقاعدة توازن الرعب، لكن أسوأ ما يتمنى رئيس وزراء صهيوني حدوثه، أن يقع أحد جنوده في أسر العدو

، لا سيما وإن كان داخل الأرض المحتلة الخاضعة تحت سيطرته، الأمر الذي معناه فشل مسوغات استمراره في ادعاء استتباب الأمن والقضاء على الإرهاب!.

غادر رابين القاعة تاركًا التوتر يعسكر في وجوه المتواجدين قرب مطار اللد، تلك النقطة التي انقطعت فيها آثاره وفق ما جمعته أجهزة الأمن: مشكلة حقيقية!!.

كان يتحدث مع نفسه بصوت مرتفع وهو يضع كلتي يديه على خاصرتيه في الوقت الذي يندفع بطنه الممتلئ إلى الأمام، حيث سأله أحد مساعديه الذي كان يستقبل كل عشر دقائق تقريرًا جديدًا:

- أي مشكلة يا سيدي؟!.

هذه منطقة مفضلة لدى المخربين وتحديدًا مجموعات الخطف التي نشطت في الآونة الأخيرة، والتي كان أبرزها مجموعة المخرب، هذا الذي أمسكناه مصابًا، ماذا كان اسمه؟!.- فتدخل مندوب الشاباك:

- أيمن أبو خليل يا سيدي.

- نعم، أيمن أبو خليل، ولكن! أنتم في الشاباك- وكان يوجه حديثه إلى مندوبهم في القاعة- ألم تحصلوا على أية معلومة أو إشارة لتتحرك عناصر مشبوهة للقيام بهذا النوع من العمل؟! لقد وترتم بتحذيراتكم الكثيرة والتي في غالبها غير حقيقية، ألم تسمعوا أي شئ؟!

لحظتها اشتاط مندوب الشاباك غضبًا والذي لا يخضع جهازه لرئيس هيئة الأركان بل إلى رئيس الوزراء مباشرة، حيث حاول الرد عليه:

- لكننا يا سيدي نقوم بواجبنا دون التقليل من أية معلومة تصل إلينا.

قالها وهو يقلب الأوراق بين يديه وقد لاحظ الآخرون الاستفزاز في عينيه، لكن غرور باراك الذي منعه من مجرد النظر إلى ضابط الشاباك، جعله يعلق مرة أُخرى وهو يقترب أكثر إلى خطوط السير الملاصقة للمطار:

- لعبة التحذيرات الاستباقية، نرددها حتى لا يلومنا الآخرون إن وقع شئ ولم نحذرهم، لذلك يكثر جهازكم من إطلاق التحذيرات مع جرعاتٍ متفاوتة من بث الخوف والرعب، فإن وقعت عملية في ظل عدم درايتكم كالعادة، تخلون جزءًا من مسؤوليتكم، أليس كذلك؟!

وجه كلماته الأخيرة إليه مباشرة هذه المرة وهو يستدير نحوه، ثم وجه حديثه إلى مجموعة الضباط:

- ستبقى حالة الاستنفار قائمة حتى يظهر الجندي، وسأكون على تواصل دائم معكم، فإن تأكد التخوف الذي نخشى منه، سأكون على رأس خلية الأزمة التي ستتشكل، والآن باشروا عملكم.

ثم غادر تلحقه لعنة الشاباك، لكن استفزاز عنجهيته بقي في القاعة، ولم يخل الأمر من الضحك على كلماته التي تخرج عرجاء من فمه، حيث يلدغ باراك بحرف السين بصورة كبيرة جدًا محولًا إياه إلى الثاء، الأمر الذي وفر للممثلين الصهاينة مادة فكاهية في تقليده، لكن أحدًا في دولة الاحتلال لا يختلف على التاريخ العسكري لهذا الجنرال الذي يعدونه بطلًا من أفضل أبطالهم بامتياز حتى وإن خالف أخلاق الحروب وقيم الإنسان، فكل شيءٍ مباح في شريعة الصهاينة ما دام الحديث يدور عن الغرباء. في الحقيقة! إن قرفًا يصاحب القلم وهو يخط رائحة الإجرام!! نعم، نعم فللقتلة رائحةٌ كريهة تصحب أسماءهم فلا يمكنك التحرر منها، ولا يمكنني هنا ضرب التشبيه، فلا شئ يشبه غاضبًا يقترف جريمته بوضح النهار والعالم يطالبك بقبوله سيدًا عليك ولا زال عرقُ اغتصابه وأظافر حقارته تلصق بالجسد. أحيانًا ترغم نفسك على قراءة وجوههم وأنت تعلم مسبقًا أنك ستتقيئ أسماءهم على أسطرك، لكنها قواعد المقاومة الجادة، وهذا ما دفعني ليلتها وأنا أشاهد تلفاز العدو للاقتراب قليلًا من الشاشة وتدقيق النظر في وجهه، صحيح أن غالبية أبناء شعبنا المنتمين لقضيتهم يعرفون وجه باراك القبيح،

لكنني في ذلك المساء رصدت انفعالًا لم يكن لشخص من غير دائرة المجموعة أن يرصده، حيث كانت عدسة التلفاز تصور جسده المنتفخ وهو يتفقد أحد المصانع الخاصة التي تزود الجيش بمعدات عسكرية، حينها تذكرت ملامح وجهه عام ثلاثة وثمانين، بذاك الوجه الآخر الذي يبرز وقت الجريمة بقسماته الخبيثة وابتسامة ارتوائه من دم ضحاياه، عندما قاد معركة استعادة حافلة الركاب الصهيونية على خط **300** بعد السيطرة عليها من جانب اثنين من أبطال خان يونس، كان يتسلحان بالسكاكين وعزيمة تناطح عنان السماء لتحرير إخوانهم من سجون العدو، حيث تمكنت قوات الاحتلال من قتل أحدهما واعتقال الآخر حيًا!! لكن قراصنة الحياة تأبى قسمة الأخلاق، فقامت بإعدامه وهو مكبل بالقيود، ولم تستطع ذيول الجريمة أن تستر نفسها، ففضحها صحفي كان يتواجد في المكان لحظة اعتقال الشهيد حيًا حيث التقط له صورة بين أيديهم، لكن شيئًا لم يحدث! وبقيت قطرات دم الشهيد الذي ينحدر من عائلة «**أبو جامع**» تخط كلمة مجرم على وجه باراك!.

لكننا اليوم، نهز أسطورة الوهم، هكذا كنا نرى الصورة من زاويتها النظيفة أو المستقيمة، لديهم الشكل ما دمنا نضع الأصبع في عين دولة باراك اللعينة.

في يوم الثلاثاء، كانت الأجواء ستشتد سخونة، هكذا تراها دونًا عن غيرك، تسأل نفسك وأنت في حرم جامعة النجاح الوطنية، والمئات يرمقونك دون اكتراث بنظراتهم العابرة وأنت تقوم بصيانة الهاتف العمومي: ماذا لو دعوتهم جميعًا لشرب القهوة في بير نبالا؟! ما هذه الفكرة الجنونية؟! لا أدري، أهي الفرحة أم الصدمة الإيجابية؟! كل شئ جائز، أو مقبول في عالم الانتفاضة أو للدقة عالم المقاومة، تسمح فيه لنفسك بالجنون للحظات ولو من الناحية الخيالية، يا إلهي العظيم! ماذا سيحدث اليوم؟! تزدحم الخواطر في رأسك، لكنك في غاية الفرحة، أو ما دون الغاية بقليل، حتى إذا ما نجحت خطتنا قلنا عن رؤية الأسرى يتحررون بأنها غاية الفرحة، أما اللحظة التي أعيش! فكانت ارتباكًا لا إراديًا، بعد أن خرجتُ صباحًا، مصطحبًا سيارة التنفيذ إلى مغسلة متخصصة حتى تكون نظيفة من الداخل والخارج، بعدها قمت بإرجاعها إلى أصحابها في القدس الغربية واستعادة أموال الكفالة، والآن، أتجول بسيارة الشركة الخاصة في شمال الضفة الغربية، أقوم بعملي الوظيفي كالمعتاد والمذياع مفتوح على محطة العدو، والرأس أيضًا مفتوح فيه معرضٌ للقطات الساخنة جدًا، لا أهتدي إلى أيها أوقع أثرًا أو تأثرًا عند سماع الخبر ومشاهدته أيضًا؟! تلك الساكنة جدران الأسر؟! أم جدارية الشعر التي تتعرج في تجاعيد وجهها فرحة البرغوثي..

أم.. وأم.. وأم؟! قطع عليَّ المذيعُ لوحة الفكر وهو يعلن خبرًا عاجلًا: أعلنت وسائل إعلام عالمية من قطاع غزة أن الذراع العسكري لحركة حماس «**كتائب القسام**» قد وزع شريطًا مصورًا يعلن فيه أسر جندي إسرائيلي لمبادلته بأسرى فلسطينيين.....!

ـ الله أكبر ولله الحمد، صرخت حتى السيارة بذلك، فعلى الرغم من معرفتك بالأمر، إلا أن ارتجاجة كلمات المذيع والحزن الذي يتصنعه من هيبة الموقف، لا يسمح لك بالهدوء، تمنيت حينها لو أن سيارتي طائرٌ بجناحين يستطيع التحليق في السماء أو يأخذني إلى نافذة غرفة نائل و «**أبو هدوان**»، حيث كانت تجري هناك مظاهرة القلوب والعقول وأيضًا العقود الطويلة، فلم ينفك مقتفوا آثار الأخبار الجميلة، يتابعون كل همسة عن الجندي الذي كثر ذكره في نشرات الأخبار، حتى انتفضت جدران السجن مرة واحدة وقت الظهيرة وكثير الأسرى يستعد للقيلولة التي أصبحت وجبةً يومية، حيث تعالت الأصوات من الغرف: افتحوا التلفاز، افتحوا التلفاز!.

كلمات باتت تتردد كثيرًا في السنوات الأخيرة، عندما أصبحت أصابع الاستشهاديين تهتدي إلى المتفجرة في الخضيرة والعفولة، فتضج زنزانات السجن بفرح المقهورين الذين كانوا يحلمون بألوان قوس قزح ترسمها يد الفلسطيني في سماء كل شبر من تراب الوطن المحتل!، قوس قزح المظلومين والذي لا تستقيم ألوانه إلا عندما يعطره الأحمر القاني، فعندنا كل شئ تلزمه بصمة من دمع ودم حتى يكتبنا التاريخ أحرارًا ونحن نموت، وحتى نلون وجه عدونا ببقية دمنا الذي أراقه بطشًا في شوارعنا وأسرّة نومنا التي بدّلت ألوانها منذ بعيد.

أسرعَ أحد الأسرى إلى فتح التلفاز قبل أن يسمع بقية الخبر الذي بدأ ينشره عمّال المردوان المتخصصون عادة في فن الإثارة، وكل ظنه أن عمليةً استشهادية جديدة قد حدثت، فلم تظهر له علامات ذلك على الشاشة، إنما مجموعة من مذيعي ومحللي قناة العدو الرسمية وقد توشحت وجوههم بالسواد وجلسوا يحللون الحدث لكنه سرعان ما ارتعش جسده وهو يسمع كلمة: جندي أسير.- فنظر إلى سكان عرفته وتحديدًا إلى نائل الذي يتقن العبرية، يستحلفهم الترجمة، في الوقت الذي كان فيه أبو هدوان يصرخ من الحمام وهو يرتدي الملابس دون أن يجفف الماء عن جسده:

- أخبروني ماذا حدث، أخشى الموت قبل ارتدائي البنطال!.

كان الجميع مشغولًا بالخبر، يتخذ موقعه أمام التلفاز، وأبو هدوان يغالب شيخوخته ويتضرع إلى الله: يا رب، يا حبيبي يا الله، يا الله، يا الله.

أما نائل الذي كان يجلس على برشه قبالة التلفاز ويضع الراديو غلى أذنه كالعادة، فكان يرسل ابتسامة لـ «**أبو هدوان**» الذي كان ينظر إليه لدى خروجه من باب الحمام الذي غادرته صفة الحمام منذ افتتاحه فكل الأشياء في السجن تسمى بهذه الأسماء مجازًا: الحرية؟! هيا قلها، أستحلفك بالله قلها.- كان أبو هدوان يستنطق نائل، يريده لو يحرق مراحل الخبر مرة واحدة، دون الانتظار الذي يكرر نفسه منذ بعيد، فلقد ضجت السنون من عودتها على نفسها في هذا القبر، وأبو شادي الذي يرقب بث الشريط من زاوية برشه الأرضي يحاول الضحك وسط هذا الانفعال مطالبًا «**أبو هدوان**» بالصبر لرؤية الإعلان:

- تريد الصبر يا فخري؟! سأصبر، هذه الكلمة قلتها لي في المرة السابقة، لا تقل لي أنك نسيت.

ابتسم فخري ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى ابن عمه نائل، يذكره بالأمس البعيد، عندما استطاع العدو بمكره السئ عام **85** وفي جولة المفاوضات الأخيرة في صفقة التبادل مع الجبهة الشعبية -القيادة العامة- أن يشطب سبعة عشر أسيرًا من قائمة المفرج عنهم، ليكون منهم أبو هدوان وأبو شادي ونائل وأكرم منصور وفؤاد الرازم وحسن سلمه، والبقية التي كانت تردد كلمة الصبر: عشر سنوات يا فخري، لا تقل لي كلمة الصبر، بل الحرية!.

- كان أبو هدوان يستعيد أسوأ لحظات يمكن أن يمر بها الأسير، ليس جزعًا أن يطلب عدم الإتيان على ذكر الصبر، إنما ما صاحبها من ذكرى لا تمحها إلاّ الحرية والحرية فقط.

إن كان الأمر كما يرمزون في التلفاز فاحتمال أن تعود إلى عروسك أم حسن، ألم تشتق لها وللأولاد؟!

قهقه أبو حسن من أعماقه:

- اسمعوا من يتكلم، وكأن المسكينة أم شادي لا تنتظرك منذ سبعة عشر عامًا، الحسرة على هذا الأعزب!

وكان يشير إلى نائل الذي نزل بسرعة إلى وسط الغرفة حيث أعلن المذيع أن الشريط المصور سيبث حالًا، لحظتها دبَّ الهدوء في أقسام السجن وتوقف الأسرى عن توزيع طعام الغداء على الغرف؛ لأن أحدًا لن يستقبل منهم الطعام على الأبواب، فكل سكان القبور أمام التلفاز، وبعد لحظات قليلة ظهر ملثم يحمل بيده بندقية m16 وفي الأخرى بطاقة هوية إسرائيلية، لحظتها انفعل أحد الأسرى قائلًا:

- أُقسم بالله العظيم إنها هوية الجندي!

فصرخ عليه الجميع يطلبون منه الهدوء، ثم بدأ المقاتل بالحديث:

- بسم الله الرحمن الرحيم

نعلن نحن كتائب الشهيد عز الدين القسام الذراع العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس، مسؤوليتنا عن أسر الجندي نحشون فاكسمان بغرض مبادلته بأسرانا الأبطال...!. عندها صرخ أبو هدوان وهو يبكي:

- الله أكبر.

ثم صمت لوحده، وأيدي إخوانه تطبطب عليه، في الوقت الذي استمر فيه المقاتل بالحديث: - حيث يتوقف على حكومة العدو الصهيوني إن أرادت استعادة الجندي، أن تفرج عن الشيخ المجاهد أحمد ياسين،

والشيخ المجاهد صلاح شحادة - مؤسس الجناح العسكري لحركة حماس، والشيخ عبد الكريم عبيد ومصطفى الديراني من حزب الله، وجميع أسرى كتائب القسام، إضافة إلى مئة أسير من حركة حماس، ومئة أسير من حركة فتح، وخمسين أسيرًا من الجبهة الشعبية وخمسين أسيرًا من الجهاد الإسلامي وجميع الأسيرات والعشرات من الفصائل الأخرى، وأننا نمهل حكومة العدو الصهيوني حتى الساعة الثامنة مساءً من يوم الجمعة القادم والموافق **14-10-1994**، للاستجابة لمطالبنا وإلاّ فاوضنا بعد ذلك على جثة الجندي. والله أكبر ولله الحمد- كتائب الشهيد عز الدين القسام.

لم يكد ينهي المجاهد بيانه حتى سجدت الجباه شكرًا لله وأبو شادي يشهد الفرحة تلك، يحاول أن يبالغ في فرحته، لكن الحذر الذي يصاحبه منذ الصفقة السابقة يمنعه من الإفراط، غير أن إنسانه الساكن هناك في قرية كوبر حيث شجرة السنديان الرائعة التي تصدت لعاصفة غيابه فكانت أمًا في النهار وأبًا في الليل، تدعوه لاستحضار صورتها ووجوه أبنائها أيضًا، لكن نائل الذي بدأ يترجم للشباب التحليلات الأولية التي تصدر عن قناة العدو الرسمية، ذهب إلى حيث عجوزه الجميلة التي كانت تستقبل النسوة في البيت، تعانقها أم شادي بحرارة، تودان لو تمتلئ الأرض بالزغاريد لكنهما تخشيان الخيبة مجددًا، يحوم فوق رأسيهما رعب ذلك اليوم، وهما تنتظران هناك في دوار المنارة، تسترقان السمع من بين ضجيج السيارات، لعلهما يصرخان يناديان، يملآن العالم بالجمال،

فكل الأحبة قد عانقت أحبتها وبقي عناقهما مع قمريهما، قمريهما لوحدهما، فيجوز في عرف الثوار احتكار الأقمار التي لم تغب ساعة بين سواد الليل، تشد الحاجة فرحة يد السنديانة التي بدأت تبكي وأطفالها الذين جاؤوا لاستقبال بابا يبحثون عنه بعيونهم، يمسكون بثوبها الذي طرزته لهذه اللحظة، وكأنها تطلب عونها أيضًا، فلم يظهر من بين الأقمار التي خرجت من قبور السواد، لم يرتميا في أحضانهما كوليدين يطلبان فطرة الله بالأمان، تنادي فرحة على نائلها عله يخرج من بين المبعوثين للحياة بعد ممات القبور، لكنه يأبى الخروج، وقد أغلق القبر بوابته قبل الحرية بقليل، ولم تدرِ فرحة أن طفلها وابن عمه لا زال هناك حيث لا نهاية للدموع!.

أما اليوم، حتى العجوز الذي يصدع بالأذان منذ ولادة نائل، قد تخلت أوتار صوته عن بحتها وهو يرنم التكبيرات، يسارع الصحفي إلى كوبر، يريد أن يرى سيدة الأخبار جميعها، تستقبله دون موعد، فالأحرار لا أبواب لبيوتهم ولا بوابين، يلتقط بعينيه قصائد المظلومين التي ينظمها شغف أمٍ وشوق امرأة يسميها العالم زوجة، لا يتكلم، فالكلام أحيانًا يفسد جمال اللحظات الرائعة، يحصي فقط مفردات الأمل بعد الإعلان عن أسر الجندي، يتمنى لو أنه واحدٌ منهم!، نعم منهم، يخاطب جياشة صدره: تُراني أستبدل شرف أن أكون واحدًا ممن يرسمون الحياة على هذه الوجوه الكريمة، مقابل شهرة الصحافة؟!

أأستبدل بسمة عادت تتنقل في وجه الزوجة التي أقسمت الحزن على غائبها، لقاء أي شئ؟! ليتني منهم فأزف إليكِ البسمة يا فرحة، فالعزاء اليوم لمن جلس ينظر إلى أقدامك التي تشققت وهي تسافر بحثًا عن نائلك الجميل في قبور الأحياء ولم يكن واحدًا منهم، والبكاء على عاجز جلس يقرأ الحرمان على وجه شادي وإخوته واكتفى بأحرف حمقى تليق بالأغبياء.

إذًا! كل شئ كان ينتفض مجددًا، عاصفة الإعلان عن الجندي اجتاحت كل الحدود، قلبت مألوف الأشياء وأرغمت ساعة الصهاينة على التوقف والضبط مجددًا على توقيت القسام، تُسرع قافلة رئيس الوزراء للدخول من البوابة الرئيسية لقيادة هيئة الأركان في تل أبيب، متجاوزة خطوط الإعاقة الإلكترونية والأعمدة الإسمنتية التي اختبأت في الأرض لتفسح المجال لدخول السيارة المصفحة التي تخفي داخلها أسوأ الأشخاص خطًا في دولة الاحتلال والذي تابع تفاصيل الشريط وهو قادم إلى المقر، يقف أمام جنديه الأول رئيس هيئة الأركان -باراك-، وخلية الأزمة التي قام بتشكيلها على الفور لحظة التأكد من أسر نحشون فاكسمان، والجميع يقر بالعجز والصدمة والهدف الكبير الذي دخل في مرمى أقوى حارس في المنطقة، يبدأ كلماته القليلة الجديدة التي لا تكتفي بالتقليد في عملها وتصر على براءة الاختراع:

- ما الذي يجعلنا متأكدين أنه في قطاع غزة؟!

- الشاباك يؤكد ذلك. يجيب باراك الذي تسيطر عليه علامات الغضب

ثم تقدم نحو الشاشة الكبيرة التي وضعت على الحائط بعد أن شغلها بالمتحكم الإلكتروني الذي بيده حيث ظهرت صورة قديمة:

- هذا المخرب محمد ضيف، مطلوب لنا منذ سنوات، ويقود الآن الذراع العسكري لحركة حماس في قطاع غزة، لكنه أدار عدة مجموعات في القدس لأسر جنودنا وألقي القبض على معظمها، وهو الذي تحدث في الشريط وفق الأرشيف الصوتي الذي يملكه الشاباك عنه.

- وما هي إمكانية اعتقاله بعملية خاصة؟!.- كان رابين يريد إنهاء المسألة قبل الغرق بالتفاصيل، لكن مندوب الشاباك تقدم للإجابة:

- هذا الشخص يا سيدي لم يظهر حتى بعد خروجنا من مدن غزة وانتشارنا العسكري خارجها، فهو مخرب حذر جدًا ينتمي إلى مدرسة المهندس. وما هي فرضية أن يكون في الضفة الغربية؟!.

- مستحيل، فهو يتحرك في محيط ضيق جدًا وكل التحقيقات التي أجريناها مؤخرًا مع مجموعات أسر الجنود تؤكد وجوده في غزة.

كانت الإجابات تضيق الخناق على رابين الذي نظر بغضب إلى باراك:

- ماذا يفعل جنودك على حاجز إيرز؟! كيف استطاعوا إدخال الجندي إلى هناك؟!

هنا تدخل ضابط الشاباك لاقتناص فرصة الرد على إهانة باراك بالأمس:

- ليس سرًا يا سيدي أن حالة من الترهل والتعب تصيب جنود الحاجز بعد مرور مئات السيارات يوميًا!.

- ما هذا يا باراك؟! إذًا تم إدخال الجندي إلى غزة من تحت أنوفنا؟!

ثم ضرب على الطاولة بيده كعادة القادة المنفعلين: أين ضابط التنسيق الأمني؟!.

تم استدعاءه على الفور وقد كان متوسط الدرجة العسكرية:

- اسمع يا بني أجري اتصالك مع قادة أمن السلطة في غزة وأخبرهم بصورة قاطعة وحازمة، إننا سنجتاح القطاع عسكريًا إذا لم يسلمونا الجندي حالًا!.

- لقد تحدثت معهم قبل قليل وقد أعربوا عن صدمتهم و....

- صرخ رابين في وجهه: لا يعنيني ذلك، أبلغهم تحذيرنا القوي واجعلهم يتحركون بسرعة وإلا قدت القوات بنفسي.

وبعد لحظات من الهدوء، أشعل فيها سيجارته التي لم يعرف عدد سابقاتها، طلب من خلية الأزمة الخروج باستثناء باراك الذي كان يفكر بخياراته المعدودة حيث تعتمد هذه المرحلة على العمل الاستخباراتي للشاباك، ثم طلب دخول «**يوسي جبنوسار**» الذي كان ضابطًا سابقًا وسياسيًا حاليًا يستخدمه رئيس الوزراء للمهمات الخاصة:

- اسمع يوسي، جاء دورك الآن، لا أريد الوصول إلى يوم الجمعة الذي حدده المخربون، تحرك في كل الاتجاهات، اقبل كل الوساطات بصورة سرية، المهم أن تنجز تمديد المهلة، بعدها سنقرر!!.

كان باراك يستمع إلى كاهن السياسة الإسرائيلية وأحد أقطابها المركزيين، فعلق يوسي:

- لكنك تعرف هذا العدو جيدًا، لن يقنعه أحد ما دمنا لم نقدم له شيئًا

هنا احتد باراك:

- ماذا تقول!! هذا لن يحدث مطلقًا، فنحن لا نفاوض الإرهاب الذي يقع تحت سيادتنا.

- إذًا، عليك أن تمنع خطفه أولًا ما دمت تملك السيادة السياسية والأمنية ولا تتكلم هراءً وأنت تغامر بحياة جندي.

لم يتحدث رابين وهو يسمع حوارهما الساخن والانفعالي، لكنه طلب من يوسي المباشرة بعمله فورًا وعيناه تنظران إلى باراك:

- سيدي! أنت تغامر سياسيًا بهذا التفويض الذي منحته ليوسي، سيقولون غدًا، في كل زاوية من إسرائيل، أنك أول رئيس وزراء يعطي الشرعية لمنظمة إرهابية داخل أرض إسرائيل بتفاوضك معها.

كان باراك يتحدث مباشرة إلى رابين وكلاهما يجلس على مقعد كبير، وفجأة طلب الأخير فتح التلفاز على قناة الدولة الرسمية:

- أتسمع ماذا يردد مذيعوا الدولة؟! لا يأبهون بما تقول يشغلهم سؤال واحد! هل سيكون مصير نحشون كمصير نسيم طوليدانو؟! تفضل سيد باراك أجبهم.

- لكننا يا سيدي لا نخضع في اتخاذ قراراتنا إلى حسابات الإعلام وآراء المحللين.

هز رابين رأسه وهو يضع النظارة الطبية على طاولة زجاجية صغيرة موضوعة أمامه:

- عندما تنهي فترة رئاستك لهيئة الأركان، وتدخل إلى المعترك السياسي من بوابة صندوق الاقتراع الشعبي، ستعرف حينها قيمة الأسئلة التي يمررها الناخب الذي أعطاك ثقته من خلال الإعلام.

- أنا أستغرب! أأنت من أمر الوحدات الخاصة والشاباك بالسفر آلاف الأميال واختراق سيادة أوغندا عام **76** وتعريض حياة الرهائن الإسرائيليين في مطار عنتيبي لخطر الموت حتى استطعت تحريرهم بخسائر لا تُذكر؟!.

أشعل رابين سيجارة جديدة ولم تنطفئ الأخيرة بعد والتي كانت في المنفضة ورد بغضب:

- لأنني كنت أعرف مكان الاحتجاز، كما أراك أمامي الآن.

ثم صمت قليلًا قبل أن يهيج مرة أُخرى:

ـ تظنني غبيًا أو ساذجًا؟! لا بأس قل ما شئت ولكن إذا أردت أن تضيق خياراتي وفق نظراتك يا جنرال فدلني على مكان الجندي الآن، قل أين هو؟! في أي بيت؟! ولكن قبل ذلك لا تطالبني بالمغامرة بدم جندي سأدفع ثمن دمه ليس لأسرته فحسب ولكن لغالبية الشارع الإسرائيلي الذي لا زال يحمِّل شامير وحزب الليكود مسؤولية الفشل في إعادة مساعد الطيار رون حين أراد وصولًا إلى اختفائه في فوضى لبنان.

هدأ الجدال بينهما، ثم بادر باراك بالسؤال:

ـ ما هي توجيهاتكم يا سيدي بخصوص عائلته فوسائل الإعلام تصر على لقاء والديه.

ـ أصدر أمرًا للرقابة العسكرية بمتابعة العائلة وملازمة ضابط لبيتهم، لا أريد أن يخرجوا على الإعلام، وأصدر أمرًا للرقابة تحت بند السرية التامة بمنع الضغط على الحكومة في موضوع الثمن حتى لا يستفيد الإرهابيون، ثم تحرك الآن وأوعز لوحدة هيئة الأركان -متكال- لأن تكون جاهزة في أقرب نقطة لغزة.

نظر باراك متعجبًا لهذا الكهل، لكن رابين ضغط على يده:

ـ اعمل المستحيل مع الشاباك لإيجاده قبل يوم الجمعة وإلا ضاع كل شئ فنحن نتعامل مع عدو يحترم كلمته، وسأضطر إلى الخيار الأصعب الذي تكرهه، تمامًا كما حدث في صفقة التبادل عام **85**

ومرة أخرى سكت وهو يضع كلتي يديه على رأسه ويتبسم بحسرة:

- سأعترف لك بأمر لم أقله يومًا لأحد رغم أن الإعلام تحدث عنه، ولكن أريد أن أسألك قبلها، ماذا تظن الأسباب الرئيسية التي دفعتني للتوقيع على تلك الصفقة؟!.

- واجبنا المقدس تجاه جنودنا والميثاق الغير مكتوب باستعادتهم أحياءً كانوا أم أموات، ثم روح التضامن اليهودية المدعومة دينيًا وأخلاقيًا باستعادة المفقود بأي ثمن، وأيضًا الإبقاء على معنويات جنودنا مرتفعة وقوية.

رجع رابين إلى الخلف وهو يقول:

- جميع ما قلته صحيح ولكن! هناك أمر لا يستطيع رئيس وزراء مقاومته كانت تمثله والدة أحد الجنود الثلاثة التي دخلت في أحد الاجتماعات إلى مقرنا وألقت بنفسها أمامنا ثم كررت الأمر في الشارع، حتى حظيت بدعم جماهيري كان يراني شيطانًا إن لم أستجب لدموعها، أنا لا أريدك الآن التعليق بانفعالك العسكري على هذا الاعتراف، إنما أبقه معك للمستقبل فربما تتذكره يومًا، والآن انطلق لمهمتك.

وانتهى الاجتماع لحظتها.

ولأنني كنت أعيش في القدس الشرقية التي تفرض علينا الاحتكاك اليومي بالصهاينة، مكنني ذلك من رصد حجم الزلزال الذي أحدثه أسر الجندي داخل العدو بكافة قطاعاته، حديثهم الأساسي عن حياة الجندي ومصيره الذي سيتحدد يوم الجمعة،

وفشل حكومتهم سابقًا في إنقاذ حياة الجندي نسيم طوليدانو الذي وقع في أسر حماس لذات السبب الذي أُسِرَ من أجله نحشون فاكسمان الآن وهو تحرير الشيخ أحمد ياسين، حيث يتساءل محللٌ سياسي مشهور في راديو الشبكة الثانية للأخبار:

- كم جنديًا ستضحي حكومتنا العتيدة ريمثا تطلق سراح ياسين؟! لو كان الجندي المخطوف ابنًا لرئيس الوزراء أو أحد أقاربه، هل سيتعامل مع الموضوع كما يتناوله باستخفاف الآن؟! أين القيم اليهودية؟! ثم سأخبركم الذي سيفعله رئيس وزرائنا! سيهدد باقتحام غزة إذا لم تعمل السلطة الفلسطينية بجدية للعثور على الجندي، أبشركم أن ذلك لن يفيد!.

في الحقيقة، كنت أهم كل لحظة للبكاء وأنا ألمس ما أحدثته عملية أسرنا للجندي، لكنني كنت أستبدل ذلك بالدعاء أن يوفقنا الله بتحقيق هدفنا، ثم الانقياد بكل جوارحي وقدميّ تحديدًا إلى بير نبالا، فقد توجهت بعد المغرب إلى الشباب فوجدتهم في أروع حالاتهم ابتسامًا وقد تابعوا أخبار اليوم جيدًا حتى أنهم قاموا بالسماح للجندي بالاستحمام، حيث قادني عبد الكريم إلى الغرفة حتى أنظر إلى المشهد الجديد:

- هذا الذي يثور الصهاينة من أجله وقد أصبح نظيفًا، يرتدي الملابس المدنية.

لا أدري حينها ما الذي جعلني لا أُبدي ردة فعل إيجابية رغم أن المقاتلين تعاملوا معه بإنسانية تليق بإنسانية هدفهم من أسره، حيث لاحظ صلاح ذلك:

- ما الذي حدث يا أبا عمر، ألم توصنا به؟!. ها قد نال الحمام الساخن الذي لم نحلم به قبل عشرة أو عشرين يومًا في زنازين التحقيق، ثم ألم تميّز هذه الملابس؟!.

ضحكت حينها عندما ميزت ملابسهم التي ألبسوها للجندي ورغم ذلك وددت لو بقي مرتديًا زيه الذي يبقي وعيك يقظًا للجرائم التي ارتكبها من يسكنون هذا الزي، صحيح أن ظاهر الأمر وباطنه سيان في حالة هذا الأسير، لكن المشهد تصغير حقيقي لحالة بدأت تُستساغُ تدريجيًا لدى البعض عندما استبدل العدو بزته العسكرية بابتسامة وربطة عنق فأصبح شريكًا في عملية السلام ولازال يخفي تحت ملابسه البندقية:

- أتدري يا صلاح ما الذي يدور خارج هذا البيت؟!

ابتسم وهو يُعدِّل موضع رشاشه الذي كان يحمله على كتفه:

- تابعنا بعضًا من ذلك على التلفاز ولكن! أعرف شيئًا واحدًا أن الحياة بدأت تدب في وجوه الأسرى وذويهم ويكفيني ذلك.

- هل تعتقد بأنهم سيخضعون لمطالبنا؟

عندها تدخل حسن الذي دعانا لشرب الشاي في الصالة في الوقت الذي كان فيه عبد الكريم يتابع التلفاز على قناة العدو باللغة العربية:

- سيخضعون بإذن الله، لا يساورني شك في ذلك.

- قادة العدو يؤكدون أنهم لن يفاوضوا الإرهابيين!.

- عندما كنت في الأسر، أخبرني نائل أنهم قالوا ذلك وأكثر، عندما طالبت القيادة العامة بالتبادل، لكنهم بدءوا بالخضوع تدريجيًا، أتدري كم عدد الأسرى الذين عرضوهم مقابل الثلاثة جنود؟!

- عشرة أسرى أو أكثر بقليل، وتدري كم عدد الأسرى الذي خرجوا في صفقة التبادل هذه عام **85**؟!

- ألفٌ ومئةٌ وخمسون أسيرًا.

كان حديث حسن مليئًا بالحماسة والإرادة، لكن صلاح عقّب بالقول:

- لقد أخذنا بالأسباب ولم ننتظر تحرير إخواننا بأيدي كائنات من الفضاء ولو بقينا نعوّل على الخطابات لما ظفرنا بهذا النصر الجزئي، لكنّ النتائج على الله ولا أظن بأن أحدًا سيلومنا إن لم يستجب العدو أو حدث أي شئ غير التبادل!!.

كان صلاح يخاطبنا بفقهه الجهادي، لكن كلماته جعلت أنظارنا تلتقي معًا في وجهه وبعد صمته للحظات استأنف بحزم:

ـ ولكن! على العالم أجمع أن يمر فوق جثتنا قبل أن يصل إلى هذا الجندي، أتوافقني الرأي يا عبد الكريم؟

أطلق صلاح كلماته الأخيرة ليخرج من حالة الجدية التي أدخلنا فيها من خلال حديثه. فالتفت إلينا عبد الكريم:

ـ لقد تحركت الوساطات أيها الشباب!.

فانتفض صلاح وهو يردد:

ـ الله أكبر، بدأت البشائر بالظهور.

ـ لقد توجه عضو كنيست من عرب الثمانية والأربعين إلى غزة والتقى بأحد أعضاء القيادة السياسية للحركة طالبًا منه إقناعنا بتمديد المهلة.

ـ سأل حسن بسرعة: وماذا يقولون في الأخبار، هل أجابه القيادي بشئ؟!

ـ ضحك عبد الكريم قبل أن يجيب: طالبه بالاستجابة لمطالب القسام، ليس هذا فقط إنما تحركت شخصيات عديدة للوساطة، ما أقبح هذا الواقع!

استغربنا من حديث عبد الكريم، فالمفروض أن تفرحنا هذه الأخبار التي كنت سأعرفها بعد ساعتين من جلستنا عندما أتحدث مع «**أبو خالد**»، فسألته عن فحوى استيائه:

- غريبٌ أمرك يا عبد الكريم، أنت سعيد أم حزين؟!.

- كلاهما معًا، فبعض هؤلاء الوسطاء الذين سارعوا للتدخل لا يعرفون حتى أعداد الأسرى في سجون الاحتلال، الجميع يثور لمساعدة هذا الجندي القاتل، بينما إخواننا وأبناء شعبنا تأكلهم جدران السجون منذ عشرات السنين، أيوجد أقبح من هذا الواقع!

وهناك لم أكن أعلم أننا ذاهبون إلى الدخول في نقاش مسألة أعمق مما طرحه عبد الكريم، وذلك عندما قال حسن معاتبًا عبد الكريم:

- أتطلب أمرًا في غير مكانه؟! ففاقد الشئ لا يعطيه، فهذه الشخوص ليست ملزمة بأسرانا، يكفيها أن تصمد في أرضنا هناك، ولكن العيب فينا، نعم فينا نحن.

لحظتها كانت ردة فعلي عاتبة على كلام حسن:

- يا رجل، والذي نحن فيه الآن ماذا تسميه؟!.

- أسميه فرض عين لا نمنُ به على أحد، لكنه كان ينبغي أن يحدث عشرات المرات قبل اليوم، وبصورة يصبحُ فيها تحريرُ الأسير ثقافةً لدى الرضيع قبل أن يولد، وواجبًا نؤديه كالصلاة ما دام إخواننا في الأسر.

ـ يا حسن! أنت تتحدث وكأنك لست من الحركة التي أسرت الجنديين آفي سسبورتس وإيلان سعدون عام تسعة وثمانين ونسيم طوليدانو أواخر عام اثنين وتسعين، وفرنيكال وسيماني اللذان أسرتهما مجموعتكم الأولى

ـ هنا تدخل عبد الكريم مضيفًا: ولا تنسَ الجندي الذي أسرته مجموعة شقيق زوجتك مروان أبو ارميله، والكثير من المحاولات التي لم تنجح.

ـ اعتدل حسن في جلسته وهو يبتسم كعادته: والله يا إخوة أن الذي قلته لا يتناقض مع الجهد المبارك الذي تم بذله ويستمر الآن، لكنه لا يُقارن مع حجم المصيبة الموجودة داخل الأسر

أثناء حديث حسن، كان صلاح يضع كلتي يديه على ذقنه يفكر أو هكذا ظنناه حيث دخل في النقاش:

ـ ما يقوله حسن صحيح، فحجم الجهد الذي بُذل لا ينسجم مع حجم المشكلة المتواصلة، وأعتقد أن القضية لا تتعلق بعدد محاولات أسر الجنود التي تكاد تنحصر في فصيل واحد! إنما في فقدان ثقافة تحرير الأسرى، لذلك ليس مستغربًا أن تتناول اتفاقية أوسلو التي عقدت بين العدو الصهيوني وأحد أكبر فصائل الشعب الفلسطيني جميع القضايا باستثناء قضية الأسرى، على الرغم من أن أسرى هذا الفصيل المناضل رغم اختلافنا مع نهجه السياسي، يأتون في الترتيب الأول من حيث العدد والأقدمية.

عاد عبد الكريم للتعقيب على حديث حسن وصلاح:

ـ لن يختلف معكما أحد في مسألة أوسلو، لكنك يا صلاح أجبت بنفسك على جزء من سبب المشكلة وهو أوسلو الذي تقضي بنوده الأمنية للقضاء على المقاومة والتي إحدى صورها تحرير الأسرى بالطريقة المثلى التي يفهمها العدو، وهذا معناه تحييد جزء مهم من شعبنا لم يعد يؤمن بطريقتنا لتحرير الأسرى! وبالتالي بقاؤنا لوحدنا نتحمل هذه المسؤلية.

في الحقيقة كنت أستمتع بهذه الحوارية الجادة التي كان ينبغي أن تكون في مواقع صناعة القرار وأحسب أن قارئ هذه السطور سيقول كما يخطر على بالي الآن: ومن هذا الذي يزعم صناعة القرار بوجود هؤلاء العمالقة؟! كنت أستمع إلى عبد الكريم الذي كان أثناء دراسته في كلية الأمة رئيسًا للكتلة الإسلامية فأسأل نفسي: ماذا لو لم يكن هذا الرجل في هذا البيت وكان في حقل السياسة؟! ربما كسب الجناح السياسي للمقاومة كادرًا مميزًا إلى جانب الكثيرين ممن يتقنون هذا الدور المهم ولكن!! كم هم الأشخاص الذي سيقومون مقامه في هذا البيت ويتقنون هذا الفن؟!. وذات الأمر مع صلاح الذي استجمع أفكاره مجددًا وقال:

ـ «**هنا مربط الفرس**» الذي أتمنى على حسن الذي كان يتواصل مع الأسرى قبل مطاردته. أن يخبرنا عن موقفهم مما نتحدث

استجاب حسن فورًا:

ـ أود للدقة فقط أن أشير إلى أنه منذ صفقة التبادل عام **85** أي ما قبل أوسلو بتسع سنوات، لم يقم أحد بشئ غير الذي ذكره أبو عمر قبل قليل، وهذا الذي كان يقتل جميع الأسرى وهم يشعرون أن بطولتهم التي يتغنى بها القادة، حدودها أسوار السجن ولم تعد حريتهم سوى شعار تلوكه ألسنة الخطباء في المناسبات، وقد حدثني أسير محرر من رام الله تم الإفراج عنه من بين المئات كحسن نية من الاحتلال للسلطة الفلسطينية وينتمي إلى معسكر أوسلو، أنه تم الإفراج عن جميع الأسرى الذين حوكموا على كافة القضايا باستثناء من قتل أو شارك في قتل يهود حتى ولو فعل ذلك قبل مليون عام وليس قبل أوسلو فقط، طبعًا بالإضافة إلى أسرى حماس والجهاد الإسلامي الذين يُستثنون من كل شئ، والقضية الأهم في نظر من تجاوزتهم السنين الطويلة والاتفاقات السياسية، أنهم الآن يضعون حياتهم في رقابنا بعد أن حسم الاحتلال أمره بوصفهم: ذوي الأيدي الملطخة بدم اليهود. وهذا الذي يجعل المرء يتساءل بتجرد كامل، هل ما نبذله كمقاومة جادة يتناسب مع حجم المسؤولية؟! لقد حدثني ذات مرة فؤاد الرازم وهو من سكان القبور الدائمين ويقبع في الأسر منذ العهد البرونزي! عندما التقيته في سجن عسقلان، عن خطورة عدم ترتيب الأولويات لدى قادة المقاومة، حيث تساءل عن مكانة تحرير الأسرى في هذا الترتيب؟! وكيف يريدون استمرار المقاومة المجدية ولم يأخذوا قضية تحرير من أشعل المقاومة على محمل الجد؟!.

ـ أذكره عندما انفعل وهو يخبرني بأمر: يا حسن! إذا التقيت يومًا بصانع قرار في المقاومة أخبره عن طفل سأله عمه على شبك الزيارة: هل ستصبح مجاهدًا مثل عمك؟! فأجابه الطفل البالغ من العمر عشر سنوات وقد وُلِدَ بعد أسر عمه بقليل: نعم يا عمي ولكن لا أريد أن أمكث مثلك في السجن فجدتي تبكي عليك كل ليلة، ولا أريد لأمي وأبي أن يبكيان عليَّ كثيرًا!!. وأخبره أيضًا عن أسير يضعه العدو في خانة الإرهابيين الخطرين وقد سأله أسير آخر كان يتقاسم معه الزنزانة: يا أبا فلانة، وكان متزوجًا ولديه ابنة في عمر الزواج قد تركها في عمر سنتين: لو كنتُ خارج السجن وبعثت لك أريد الزواج من ابنتك وأنت تعلم أنني يمكن أن أقع في الأسر ويحكم عليَّ العدو بالمؤبد، فهل ستزوجني إياها؟! سكت فؤاد وهو يخبرني القصة ولم يكمل، فسألته عن جواب الرجل؟! فقال لي: عندما تلتقي بصانع القرار هذا، اسأله" لو كنت مكان هذا الأسير ماذا كنت ستجيب؟!

سكت حسن وثلاثتنا ننظر إلى دمعه الذي امتزج مع الكلمات التي كان يخرجها من صدره، وأحسب أن مقصده في كل حديثه قد وصل على أكمل صورة إلينا، ولا أرى من يقرأ هذه الأسطر ببعيد عن فهم ما أراده حسن وصلاح وحتى ما قصده فؤاد الرازم الذي لا زالت عزيمته تناطح عنان السماء.

وفجأة كالعادة، دبت الحيوية في البيت وأربعتنا سارعنا إلى رؤية الجندي، وبلقطة لا شعورية سجد صلاح شكرًا لله وكأنه اكتشف للتو وجود الأسير بحوزتنا، فضحكنا جميعًا ثم أخذني حسن معه إلى المطبخ حيث كان قبل مجيئي قد بدأ بإعداد وجبة العشاء التي أحضر زكريا حاجاتها صباحًا، وبدأ بالحديث عن معلمه زكريا:

- هذا الرجل يريد أن يدفعني للجنون!.

- لماذا؟!.

- يصر أن يطعمنا بيده، فإذا رفضنا تأدبًا أوهمنا بزعله فخضعنا له، يعتبرنا أولاده وهذا يجعلنا نتعلق به كثيرًا وهذا الذي ينبغي أن لا يكون.

- يا أخي هذه نعمة من الله أن يرزقكم مثل هذا الرجل المجاهد.

- صحيح، ولكن من أجله فقط، فغدًا سنرحل عن هذه الدنيا ويبقى يتأثر علينا؟!.

- أمرك غريب! أشعر أنك تود قول شئ، فهذه ليست لغتك، فأنت تعرف زكريا منذ سنين طويلة

حرّك رأسه وأدخل شفته العليا في فمه:

- نعم، باختصار يجب أن تغادر إلى إسبانيا فورًا، فقد أديت دورك على أكمل وجه، وزكريا سيقوم بمتابعة الاتصال مع «**أبو خالد**».

نظرت في وجهه نظرة يعرفها جيدًا ولم أتحدث، فقال بعد أن وضع المقلاة من يده ونظر بعينيّ:

- يا أبا عمر! لا نعرف ما الذي سيحدث معنا، فلماذا لا نخفف من الأضرار؟! وأنت قمت بدور عظيم وسيكون أعظم إن حافظنا على سلامتك.

- اسمع يا ابن خان الزيت، أنا خليليٌّ الأصل مثلك، فإن كان رأسك لا يخترقه الرصاص فأنا لا تخترقه قذيفة مدفع، فأنصحك أن تحتفظ باقتراحك لغيري فلقد بدأت الأمر معكم وسأنهيه بصحبتكم إن شاء الله، ثم قل بربك، أيُّ رجلٍ سأكون إن قبلت عرضك بعد ما سمعته منك اليوم؟!

هز رأسه وهو يفقس البيض في المقلاة ويتمتم: كنت أعرف ذلك.

عندها ضربت على رأسي وأنا أنظر إلى الساعة، حيث اكتشفت تأخري عن موعد الاتصال مع «**أبو خالد**» والذي كان من الضرورة الحفاظ عليه، فاستأذنت للمغادرة فورًا وحسن يطالبني المكوث لمشاركتهم وجبة العشاء، وأثناء انتقالي من المطبخ باتجاه الصالة التي تتوسط الغرف نادى عليّ عبد الكريم الذي كان يجلس عند الجندي يسأله إن كان يريد شيئًا قبل العشاء:

- يا أبا عمر! أقبل للإجابة على أصعب سؤال في الشرق الأوسط

حاولت الاعتذار لكنه أصرّ أن أسمع سؤال الجندي الذي شعر بوجودي، فدخلت عندهما:

- نحشون! أعِد سؤالك مرة ثانية.

فتحدث الجندي بلغته الانجليزية:

- هل استجابت حكومتي لمطالبكم؟!

كان يعتقد في صيغة سؤاله أن حكومته لم تتردد في إنقاذه فسارعت لإنقاذ حياته بقبول شروطنا، ولم تنفِ صيغة سؤاله أيضًا، رجاءه بأن يكون الجواب نعم، لم أشأ حينها زيادة توتره الذي كان واضحًا:

- اطمئن، الأمور تسير بصورة جيدة.

وعندما هممت للخروج سارعني باقتراح:

- إذا أردتم أن أسجل شريطًا آخر فأنا مستعد، فأنا متأكد أنهم يعملون الآن على تلبية مطالبكم

دفعني الفضول لمعرفة سبب ثقته هذه:

- وما الذي يجعلك متأكدًا إلى هذه الدرجة؟!

تلعثم قليلًا قبل أن يجيب:

- لأنهم علمونا عقيدة ثابتة في الجيش تقول: لا نترك جنديًا في أرض الخصم والمعركة.

كنت قد سمعت هذه العبارة أثناء متابعتي لردود أفعال الصهاينة فأحدثت في نفسي هزة عنيفة بعد أن تبدلت الأشياء في هذا العالم!، فشذاذ الآفاق يحرصون على هذه القيمة العليا حفاظًا على تماسك صفوفهم في مواجهتنا، وهي في ديننا فرض عين

وعبادة نتقرب بها إلى الله، وقومنا يا لحسرتهم ضعُفَ فيهم إرث النبوة «**فكوا العاني وأطعموا الجائع وعودوا المريض**»، أفعال أمر قالها النبي الأعظم قبل أربعة عشر قرنًا، فصدح بها الفاروقُ عمر بن الخطاب، «**لئن أستنقذ رجلًا مسلمًا من أيدي المشركين، أحَبُّ إليَّ من جزيرة العرب**».

غادرت البيت الذي احتشد هذه الليلة بالأفكار ولعلني أثقلت بالتفاصيل على الحكاية فضجر الباحثون عن الإثارة وعن لوحة الجمال التي تسكن بين ثنايا القصة، لا بأس، ستعذرني فتاةٌ جميلة سألت نفسها اليوم عن رجال يطلبون حرية أبيها: من أين أنتم يا أساتذة العزة؟! أخبروا دمع عينيّ عنكم، ماذا تكتب ألسنتكم من كلام؟! وتخط عزائمكم من ألحان؟! أنا ابنة أبيها التي قالت: خذوني أجفف عرق جباهكم بعد المعركة، أو لعلي أجمعها ليصنع منها طفلي قنبلة، وقد أنظم من كلماتكم قصيدة لم تعرف العرب أختًا لها، قافيتها يا لروعتها عظيمة وبحرها كبحر يافا يغسل الأحرف قبل تشكلها تسألني انتفاضة شوقي إليكم: كيف تركتم أنوثةً ترصد رجولتكم في الطرقات؟! وذهبتم تبحثون عنا في غير أماكننا، أخبروا فاتنةً كانت ترقب حبيبها في كلية الأمة! تصطاد أنفاسه عندما يصد الجيش عن الأسوار، تطلب يده، تخطبه، ترجو جمال عينيه أن يحييها بنظرة، تود لو تكسر عُرف الأشياء وتصرخ وسط حشود المعجبات: أُحبكَ يا سليل الأنبياء، يا طُهر الشرفاء ويا باسلًا احتضنت شفتاه نقاء الكلمات. لكنه رحل عن مقلتيها الساحرتين وقد أسكن نفسه في عيني القدس!. يا ويح العذراوات

، تيتمت أرحامهن، وقد جلست إحداهن ليلًا تناجي الله في وجل: سألتك يا مولاي ذارعًا يُسكنُ سلالة العظماء في قلبي ويرحل، لن أشكو فراقه وأبكي جزعًا، إنما أذرفه دمعًا حتى الموت. آهٍ يا أبي! ليتك تخبرني أنت، كيف يبيع رجالٌ جمالنا ويطلبون حريتكم على خطوط الموت؟!.

وأشرق صباح القدس على يوم الأربعاء، ودقات قلبها فلسطين تزداد بسرعة، والسرعة في جانبي الصراع واحدة، مع فارق المبعث الإنساني الساكن بين ضلوع المظلومين وما بين مبعث قراصنة العصر المرتعدين على هيبة ظلمهم الموسومة على زي أسيرهم الذي تقترب ساعات مهلته على الأفول.

سرت يومها في باب العامود، لا أزعم أن أحلام الطفولة قد غادرت مخيلتي وأنا أشاهد الجنود يغتصبون المكان، فقد كنت آنذاك ألوّن مشهد صفعي لجندي على وجهه وإمساكه من أذنه حتى يقبّل حذاء بائعة «**المشمش**» التي دأب الدوس على رزق أطفالها ويضحك، لكنني اللحظة لا أريد!، تلومني أحلام الطفولة التي داهمتها كوابيس الجنود، تتهم عزمي بالقعود، فأضحك وأضحك وأبكي فرحة ثم أضحك وأمضي إلى عملي، فوحدي دون المارين في باب العامود، يعلم الحقيقة.

دخلت مستشفى المقاصد، أفحص بعضًا من الآلات التي تدخل في تخصصنا، وحديث المرضى وزوارهم عن أسر الجندي، حيث وقفت في أحد الممرات لصيانة ماكينة كهربائية ومجموعة من الرجال تنتظر السماح لها بعيادة مريض، وقد شدني النقاش العفوي الذي دار بينهم ومحوره الجندي، فأبطأت عملية الصيانة لسماع ذلك وأحدهم كان هدفًا لانتقادات الجميع:

- الأسرى فوق جميع اعتباراتك التي تصلح لسكان المريخ.

قال شابٌ يدعوك للاعتقاد أنه مثقف وقد وجه حديثه لهذا الذي يزعم الفهم.

- يا جماعة، نحن في بداية عملية السلام وعندما تأتي مرحلة المفاوضات على المرحلة النهائية لن يتبقى أسير واحد في السجون.

- فأسكته رجل خمسينيٌ كان يجلس القرفصاء وظهره للحائط:

- اسكت يا رجل، ودعك من هذا الكلام الفارغ، لو كانوا معنيين بالأسرى لما نسوهم في الاتفاق الذي تقول عنه.

- صدقوني أن هذه العملية ستعيق مزيدًا من استرداد الحقوق وقد يقتحمون غزة من أجل العثور عليه، عندها لن تستفيد شيئًا، ثم ألا ترون أن هذ سيحرجنا أمام العالم الذي سيتهمنا بتخريب الاتفاقية؟! ألا تعلمون أن القيادة تتحدث في كل المحافل لإطلاق سراح الأسرى؟!

- ضحك الرجل الخمسيني وهو يضبط العقال على حطته التي اعتمرت رأسه: أنصحك أن لا تذكر هذا الكلام أمام زوجة أسير أو أمه، عندها ستعلمك السياسة بحذائها وتسألك سؤالًا بسيطًا: لو كان أبوك أو أخوك في الأسر هل سيكون موقفك هكذا؟! صدقني يا ولدي إنك تُغرد خارج السرب، فلا أظن وطنيًا في شعبنا لا يدعو لهؤلاء الأبطال الذين عجز سلامُك عن فعل ما قاموا به، فلتذهب كل الاتفاقيات إلى الجحيم، المهم أن يرى الأسرى النور.

وددت لو أقبل رأس هذا الرجل الذي لخّص الحكاية دون تعقيد، والحق أن أي قضية لم تحظ بإجماع شعبي قدر ما حظيت به قضية الأسرى، لكن المشكلة دائمًا في ثقافة تحريرهم بالصورة التي فهمها حسن وصلاح وعبد الكريم ويأبى أن يفهمها الكثيرون، فغادرت أحمل دعاء الرجل، لكن تراكض بعض الممرضين والممرضات إلى غرفة جانبية دعاني للوقوف قرب بابها الذي ظل مفتوحًا، حيث نظرت إلى الداخل فوجدتهم يتجمهرون أمام التلفاز، ودعاني أحدهم ممكن كان يعرفني:

- أقبل يا باشمهندس، سيذيعون تسجيلًا للجندي!.

أقبلت وقلبي قد سقط على الأرض، تراني سأصمد دون أن تفضحني تعابير الوجه أمام أهل الطب؟! كنت أسأل نفسي قبل قليل: هل صحيح ما أراه من تفاعل الناس مع الحدث؟! أم أنني أُبالغ لمعرفتي المسبقة أو حتى أمنيتي أن يكون الناس كذلك؟! لا يهم، أو لم يعد يهم، فالحقيقة يراها الناس الآن.

وقفت مثلهم، لكنني ذهبت عنهم أبحث عن سادة العدو وكيف سيقرؤون المشهد بعد رؤيتهم للشريط؟! بالأمس وحتى اليوم صباحًا رفضوا جميع البيانات والتصريحات الرسمية الصادرة عن السلطة الفلسطينية التي تنفي وجود الجندي في قطاع غزة واستمروا بالتهديد باقتحام غزة إن لم تتحرك أجهزة أمن السلطة المرتبطة باتفاقية أمنية وتتقدم في البحث عن الجندي، والآن يجلسون جميعًا في مقر هيئة الأركان، يرسم مشهدهم غضب لا حدود لحجمه، حيث يصر رئيس الوزراء للإشراف على التفاصيل بنفسه، يستمع لكل التقارير المخابراتية، يرصد وقع الأمر على الشارع الصهيوني الذي بدأ يتذمر من قلة الحيلة لدى الحكومة ورئيسها، واللحظة ينتظر مع رئيس هيئة الأركان وخلية الأزمة رؤية الشريط المصور الذي تلقته وكالة رويترز للأنباء، وأثناء ذلك وصلت السيناريوهات التي وضعتها الشاباك لعملية الأسر حيث عمد الخبراء على محاولة فهم ما حدث علّ ذلك يقود إلى الإمساك بأول الخيط، لكن الجميع أنصت فجأة والمذيع يعلن بث الشريط، ليظهر بعدها ملثمٌ بالكوفية الحمراء يحمل بندقية m16 ويجلس أمامه الجندي.- عندها تلوّنت الوجوه وسكتت الأنفاس حتى بدأ المقاتل بالحديث:

- تعلن كتائب الشهيد عز الدين القسام عن أسر الجندي نحشون فاكسمان

- لحظتها كان الجندي ينظر إلى صلاح وهو يذكر اسمه ثم عاود النظر إلى الكاميرا والصدمة تظهر في عينيه، وكان لهذا المشهد الصغير وقع الإذلال على الجالسين حيث صك باراك على أسنانه، لكنه ضبط ما تبقى من أعصابه لاستماع البقية:

- «**ونطالب حكومة رابين بإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين وتلبية كامل مطالبنا وإلا سيلقى الجندي مصير نسيم طوليدانو**» ثم قام صلاح بوكز الجندي من كتفه حتى يتكلم، وبصوت يرتل الهزيمة ويعلن سقوط نظرية الجيش الذي لا يُقهر. بدأ الجندي بالحديث:

- أنا الرقيب نحشون فاكسمان والأصدقاء في حماس قاموا بأسرى.

- ثم قام بتوجيه حديثه لرابين:

- وادعو رئيس الحكومة للاستجابة لمطالب القسام حتى لا يتم قتلي.

ثم سكت وهو ينظر من حوله، وقد نسي رسالة أمه، فاضطررت لتذكيره:

- ماذا تريد أن تقول لأمك؟!.

- أماه أنا حتى اللحظة! جيد.

وبعد كلمته هذه انتهى التسجيل، ليدب الصمت المقرف في الغرفة، والجميع يتحاشى النظر في عينيّ رابين الذي لم تعجزه جيوش بأكملها فقاد النصر في حرب عام **67** عندما كان رئيسًا لهيئة الأركان، والآن تُخضع عنجهيته العسكرية مجموعات شبه عسكرية تحاصره من كل مكان، رغم أنه لا يراها، لكنه يشعر بأرقها، ببأسها، بحزم رجالها، يسأل رئيس الشاباك ذات يوم:

- كيف يستطيعون صناعة مقاتليهم دون عقائد عسكرية وكليات حربية؟!.

يحار رئيس الشاباك في الإجابة، لكنه يقول:

- هم ليسوا بحاجة لذلك يا سيدي ما داموا يعتقدون بأن قتالهم لنا عبادة يتقربون بها إلى ربهم.

فيزجره معقبًا:

- لا أقصد هذا أيها الذكي فأنا أعرفه، لكنهم يحسنون عملهم بأدوات بسيطة وهذا بالقياس مع إمكانيات جيشنا وجنودنا أعتبرهُ تفوقًا علينا.

كسر رابين حالة الصمت والوجوم بإعادة الحيوية للعمل، حيث طلب من خبراء المخابرات البدء في عرض تصوراتهم للطريقة التي تم فيها أسر نحشون، لكن المنسق الأمني مع أجهزة أمن السلطة في غزة، دخل فجأة إلى الغرفة:

- عذرًا يا سدي ولكن جاءتني أخبار أكيدة تفيد بقيام أمن السلطة في غزة باعتقال الصحفي أحمد جاد الله الذي يعمل في وكالة رويترز وذاته الذي حصل على التسجيل من حماس.

هنا تدخل مسؤول الشاباك:

- هذا الصحفي يا سيدي شقيق المخرب صلاح جاد الله المطلوب لدينا منذ فترة ويعمل مع محمد الضيف.

ثم أكمل المنسق الأمني حديثه:

- والخبر الأهم، أنهم أيضًا بدؤوا باعتقال ثلاثمائة من قيادات وعناصر حماس النشطة في القطاع.

وبعد أن انتهى ضابط التنسيق الأمني من إطلاع خلية الأزمة برئاسة رابين على التطورات المهمة في القطاع، غادر القاعة مسرعًا لمتابعة عمله، ليبدأ رئيس خبراء الشاباك بالكلام:

- لقد قسّمنا يا سيدي السيناريوهات إلى قسمين، الجيدة التي تعمل لصالحنا مع الوقت ومن خلالها نستطيع الوصول إليهم من خلال الأخطاء، والسيئة التي ستجعل مهمتنا صعبة...!.

قاطعه رابين الذي بدأ الصداع يسيطر عليه وقد استعان بمسكنٍ للآلام:

- ابدأ بالأخيرة ولا تضيع الوقت.

عدّل الخبير المخابراتي من نظارته في المرة الأولى التي يقف فيها أمام رئيسٍ للوزراء:

- تسير سيارة متوسطة الحجم قرب المطار، تقل الجندي الذي يطلب توصيله إلى الرملة، يطمئن عندما يركب السيارة لأنها خالية من المسافرين، حيث يتعذر عليه الركوب إلى جانب السائق بسبب حاجيات موضوعة على الكرسي، السائق يتقن عبارات باللغة العبرية وقد يكون من عرب إسرائيل أو من سكان القدس وبالتالي إتقانه للغة، وبعد مسافة ليست بطويلة، تقف السيارة حتى تقل راكبًا متدينًا يجلس إلى جانب الجندي،

- وذات الأمر يتكرر بعد ثلاثمائة متر عندما يقف السائق لصعود اثنين من المسافرين، يجلسان في المقعد الخلفي وراء الجندي والمتدين، فلا يستطيع الجندي إرغام السائق على عدم إصعاد أحد في سيارته، وفي لحظة معينة يحددها السائق يسيطر الثلاثة على الجندي، وقد لا تحتاج المجموعة التخريبية إلى هذا التكتيك إذا أحسنت التخفي والتنكر بملابس متدينين يهود أو حتى محافظين يضعون القلنسوة التقليدية على رؤوسهم، حيث سيطمئن الجندي ويركب دون تردد، وبعد إتمام عملية السيطرة الكاملة وتخدير الجندي بعد تقييده جيدًا ووضعه في مكان مخفي في السيارة يذهب قائد المجموعة بالسيارة لوحده بعد انتهاء مهمة الأعضاء المتبقين الذين لا يعلمون وجهة القادة، وفي مكان ما تم تحديده من جانب المسؤول عن هذا القائد والمتواجد خارج حدود سيطرتنا، يترك السيارة بعد وضع إشارة متفق عليها في مكان ما في السيارة حيث يغادر المنطقة كليًا ويعود بعد ثلث ساعة ليجد السيارة فارغة من الجندي وموضوع إشارة التفريغ التي تنحصر معرفتها به وبالمفرغ والقائد في الخارج الذي لا يثق بأحد.

وهنا تحدث باراك:

- لقد شاهد الطرف الثاني السيارة، وهذا خرق لصالحنا للوصول إلى المجموعة الخاطفة في حال القبض على الطرف الثاني.

نظر رابين إليه يود لو يصفع حماقته أو تسرّعه، في الوقت الذي استأنف فيه الجندي الحديث: - هذا إذا كان الأمر كذلك، لكنهم أذكى في هذه الحالة فإذا لم تكن السيارة إسرائيلية مسروقة فإنهم قد ابتاعوها بوثائق مزورة، المهم أن أحدًا لا يعرف هوية صاحب السيارة والتي في أغلب الأحيان سيقوم قائد المجموعة بحرقها مهما كلف ثمنها.

تدخل رابين الذي أوكل جميع مهماته الحكومية إلى نوابه ووزرائه وتفرغ للعثور على الجندي: - ومَن الذي أخذ الجندي؟!.

- نسميها مجموعة التخزين، وهي أخطر حلقة في العملية وفق هذا السيناريو، حيث يُلقى على عاتقها إخفاء الجندي في مكان بعيد عن الشبهة، وقطع الاتصال بأي طرف كان حتى لا تتعرض للضربات من أي جهة كانت، كذلك لن يثقل عليها القائد الذي تواجد في منطقة الأمان بأي طلبات.

- يحتد رابين: لكنهم وزعوا شريطًا مسجلًا لنحشون؟!

- صحيح يا سيدي، لأنهم اتفقوا على ذلك مسبقًا ووضعوه في نقطة ميتة لمرة واحدة قد تتكرر في حالات نادرة متفق على آليتها.

- وكيف سيفيدنا هذا الأمر ما دام الجندي قد أصبح في غزة؟!.

ـ وفق هذا السيناريو لست متأكدًا أنه في غزة، رغم أن الفرضية الأكبر أنه هناك، وستقول لي أن وثائق الجندي الشخصية موجودة هناك وأن الذي أوصلها إلى محمد الضيف لن يعجز أن يسلمه الجندي، لكن فرضيات أخرى قد تكون أفضل بالنسبة إليهم!.

ـ مثل ماذا؟!.

ـ كأن تأخذه الحلقة الثانية وهي عبارة عن شخصين، ينتهي دور أحدهما بعد نقله إلى سيارتهما التي ينطبق عليها ما جرى على السيارة الأولى، حيث يذهب به إلى مزرعة تقام في أي مكان أو بيت كامل وحتى مشروع صغير لتربية الماشية ثم تجهيز بناء في الأرض كان يُفترض أن يكون بئرًا لدى بنائه

وهنا استشاط باراك غضبًا:

ـ وماذا يفيدنا هذا الكلام؟!

في تلك الأثناء كان الجميع يفكر في هذا السيناريو المرعب، لكنهم يستمعون باهتمام:

ـ يسلمه إلى مجموعة المشروع التي ستقوم بتخزينه لديها لفترة طويلة جدًا، حيث بعدها مباشرة يغادر إسرائيل متوجهًا إلى الخارج في عقد عمل أو دراسة، قاطعًا بذلك كل الخيوط التي من الممكن أن تؤدي إلى الجندي.

كان رابين يفكر في تلك اللحظات التي انتهى فيها تخيُّل السيناريو، بالهلع الذي بدا على وجه الجندي وكيف سينعكس ذلك على الشارع الإسرائيلي الذي لن يعلق به المشهد الأخير، فهم لا يذكرون تحريره لأكثر من مئة من الصهاينة في عنتيبي وإسهاماته الكبيرة في حروب إسرائيل، لكنهم يتذكرون جيدًا نسيم طوليدانو الذي يحوم شبحه في الأُفق، ومع ذلك! ممنوع أن يفقد السيطرة لذلك يجلس بنفسه لمتابعة التطورات، حيث يسأل: والآن؟!.

- لحسن حظنا يا سيدي، فإن دراستنا لكافة عمليات المخربين الأخيرة وطرق عملهم تجعلنا نشك في تطور عملهم إلى هذه الدرجة وبالتالي تكرارهم لنفس الأَخطاء التي وقعوا بها وهذا ما سيساعدنا في رصد سقطاتهم الأمنية.

- أخبرني شيئًا عمليًا، لا أريد البقاء في التصورات!.

- ولأن الأحداث بدأت تتسارع، فقد استأذن ضابط الاتصالات الذي كان يستقبل الرسائل من كافة الأطراف التي تعمل في الميدان، للحديث:

- سيدي! لقد توجه طاقم التلفزة إلى السجن لمقابلة الشيخ أحمد ياسين، والتقارير تفيد عن قبوله توجيه رسالة للمخربين ولكن!

وهنا تلعثم الضابط قليلًا، فأمره باراك بإكمال حديثه:

ولكن هناك دعوة من عائلة الجندي والمتضامنين معها لصلاة حاشدة غدًا الخميس في حائط المبكى!

عندها وقف رئيس الوزراء على قدميه وهو يعاتب باراك:

ـ ألم أطلب منك ضبط العائلة؟! ألم ترسل ضابطًا يلازم بيتهم؟! ألا تعرف أن هذا يضغطنا ويزيد من تصميم الخاطفين؟!

ـ يا سيدي لم نستطع منع الدعوى على الرغم من أن الرقابة العسكرية «**تسنزوره**» استطاعت إلزام وسائل الإعلام بعدم نشر أي شيءٍ من شأنه إعاقة عملنا.

ـ لقد بدأ الموضوع يخرج عن السيطرة ولا أستبعد غدًا أن يخرج أبواه على الإعلام لمطالبتي بتنفيذ مطالب المخربين.

أخفض ضابط الاتصالات رأسه فلاحظ رابين ذلك:

ـ ما بك؟! تحدث، هل هناك شيءٌ جديد؟!.

ـ بالفعل، لقد دعاك أبواه قبل قليل بعد مشاهدة الشريط لإطلاق سراح ياسين وقد تسرّب ذلك إلى الإعلام الذي لم يستطع الالتزام أمام هذا الخبر.

ـ أرأيتم يا سادة، ها قد بدأ الضغط الداخلي.

ثم أغمض عينيه قليلًا قبل أن يتوجه إلى التليفون ليطلب مبعوثه الخاص يوسي حيث تحدث معه بغضب:

ـ أين أنت؟! هل توصلت إلى شئ؟!.

ـ هناك أطراف عربية تمارس ضغوطًا على السلطة في غزة للعثور على الجندي وقد تسرّب ذلك إلى الإعلام العالمي، وقد طلب راعي عملية السلام رفع مستوى التنسيق الأمني إلى أقصى درجة ولا بد أن منسقنا قد أخبركم بالتطورات، أما مجموعة الوسطاء الذين تحركوا لإقناع حماس بضرورة تمديد المهلة، فبعضهم تم رفض تدخله من جانب الحركة، فقط عضو كنيست عربي استطاع لقاء أحد الرموز السياسية لديهم لكنه فشل في هذه المرحلة في تحقيق شئ وربما لاحقًا سينتج عن مسعاه شئ!.

ـ وماذا ترى الآن؟! لقد اخترتك حتى تعطيني الحلول.

ـ أقترح الانتظار إلى مساء يوم غدٍ الخميس، عندها سنضطر إلى المساومة كخيار أخير وعليك إلى حينها تهيئة الأجواء الحكومية لاتخاذ القرار، ولكن!.

وهناك كان رابين يلعن الساعة التي أصبح فيها رئيسًا للوزراء، فسأله بصوت ازداد حشرجة: ـ ولكن ماذا؟!.

ـ على الشاباك أن يبذل قصارى جهده ويستنفذ جميع طاقاته، فربما لن يضطر إلى ما أخبرتك عنه، وأقترح أن تزيد الضغط على أجهزة الأمن في غزة حتى تحصل على معلومات من عناصر حماس التي اعتقلوها اليوم ولو استخدموا جميع الوسائل، ولا بأس أن تهددوا قيادة السلطة.

انتهت المكالمة ولم ينتهِ اضطراب رابين، فعاد إلى خبير الشاباك طالبًا منه إكمال حديثه: الخلايا التخريبية التي عملت على خطف الجنود في الآونة الأخيرة، تكونت من نشطاء في الانتفاضة يحتلون مركز الصدارة في العمل الحركي، لذلك طالبت الاعتقالات العشوائية بعضهم كالمخرب محمود عيسى قائد الخلية التي خطفت نسيم طوليدانو.

- وهل بدأتم بالاعتقالات أم لا؟!.

- منذ أن تأكد لدينا اختفاء الجندي باشرنا ذلك، بل وحركنا جميع عملائنا على الأرض لمتابعة تحركات النشطاء الفاعلين وما إن طرأ تغيير مفاجئ على نظام حياتهم المعتاد، وقد وضعنا هواتفهم المنزلية وأماكن عملهم وترددهم تحت المراقبة الدقيقة، فحتمًا سيخطئ أحدهم ولو بتصرف صغير أو كلمة عابرة، ولا بد أنك تعلم يا سيدي نظام المراقبة الإلكتروني الذي يصطاد أي كلمة من الكلمات التي وضعناها ضمن قائمة الكلمات المشبوهة لدينا والتي يكثر المخربون من استخدامها في شفراتهم.

تقدم رئيس الوزراء قليلًا بجسده إلى الأمام وهو يحمل قلمًا بيده ويشير به إلى الطاولة:

- هل تعتقد أن «**الضيف**» يعرف شخصيًا بمكان الجندي؟ وإذا كان كذلك! كم سيستغرقنا الوقت حال تمديد المهلة للوصول إليه أو اعتقاله من جانب الأجهزة الأمنية في غزة؟!

فكّر ضابط المخابرات قليلًا قبل أن يجيب:

- يا سيدي! إذا افترضنا أن الجندي في غزة....!.

قاطعه رابين صارخًا:

ـ لا تتفلسف كثيرًا، إذا لم يكن عندك دليل على عدم وجوده هناك، فالسكوت أفضل.

أخفض الضابط عينيه وسط شعور الجميع بالتوتر:

ـ أمرُك يا سيدي، فهذا الموضوع حساس بالنسبة لهم وقد اعتدنا على أسلوب عملهم، فالمجموعة الخاطفة هي التي تحتفظ بالجندي وتجري كافة الاتصالات ظنًا منهم بأن ذلك سيضيّق دائرة المعرفة، لكنه في حقيقة الأمر يزيد من أخطائهم، وهذا ما سيعجل وصولنا إليهم سريعًا.

وهكذا! بدأت جبهة العدو تزداد سخونة، والمقطع التسجيلي الذي استمر زمنًا قصيرًا جدًا، حرّك الصهاينة الذين تعودوا على مشهد الانتصارات وجعل من صورة الإذلال التي ظهر فيها الجندي وهو يرتدي زي الجيش الذي أخضع جيوش العرب مرتين، نقمة على الحكومة التي لم تستطع حتى اللحظة العثور عليه في وقت توشك فيه المهلة على الانتهاء، وقد زادت رسالته القصيرة لأمه التي أكد فيها أنه بخير حتى اللحظة! من ثورة الإعلام والانتقادات الشعبية حيث أحس الجميع بخطر الموت في كلامه وكأنه يحمّل الجميع مسؤولية حياته حال عدم الاستجابة لمطالب المقاومة.

وعلى النقيض لدى شعبنا، كانت أعراس الكرامة والعزة والإباء، تُقام في كل البيوت والمدارس والجامعات، وحتى الباعة في الشوارع، الكل يحتفل على طريقته بهذا الظفر الذي جعل الفلسطيني أخيرًا يثأر للقليل من الظلم الذي يقع عليه منذ عشرات السنين، وقد يحتج أحدهم ممن لم تقع رقبته تحت سيف الظلم بالقول: وهل نحن شعب يبحث عن الثأر أم عن التحرير؟!

عجيب أمر المتفرجين: أو إن شئت المخصيين كرامةً، لم تذق أجسادهم طعم الرصاص المتفجر -الدمدم- ولم تُغتصب لياليهم الطويلة وهم على كراسي الشبح في أقبية التحقيق، لذلك تعجز أدمغتهم التي غسلتها مرحلة الخيانة الشعورية، الإحساس بامرأة ودعت ولدها الوحيد شهيدًا قتلته رصاصات جندي كهذا الذي تراه بين أيدي المجاهدين، فلا تملك السيطرة على فرحها فتزغرد لولدها للمرة الثانية بعد الأولى التي كانت يوم شهادته، حيث يطفئ مشهد العزة شيئًا من حزنها الذي سيصحبها حتى الموت.

وهناك في المقابر، انتفضت العظام واكتست لحم الأمل مجددًا واتخذت لها أسماءً من جديد، فالكل على موعد مع الحرية! كيف ذلك؟ والجميع يدرك أن جنديًا واحدًا لا يمكن أن يحطم أسر مجموعة من الأسرى جلست في زاوية الساحة هناك في مقبرة نفحه، الواقعة في صحراء النقب جنوب فلسطين المحتلة عام ثمانية وأربعين:

ـ صحيح أنني معتقل منذ خمس سنوات مصاب وأعاني من إعاقة دائمة، لكنني لا أُقدم هذا السبب حتى أكون في الصفقة، إنما لقتلي أربعة صهاينة، أي- ورفع كلتي يديه في وجوه أصدقائه وهو يبتسم: يداي ملطخة بدماء الصهاينة، أليس هكذا يسموننا؟! فإن لم يطالبوا بي في هذه الصفقة فمتى سأخرج؟!- فيرد عليه أسير متحمس آخر تكاد الابتسامة تخرج من عينيه اللتين شاهدتا الشريط قبل قليل:

ـ أنا قلبك بسنتين، متزوج ولي ولدين، ولا تنقصني المؤبدات كما تعلم، فإن كان الصهاينة يتهمون يديك بدمائهم فإني قد تقدمت عليك بذلك، فقدميّ أيضًا قد اتهموهما بدمائهم، ولكن! لا تنسَ يا صديقي أن شقيقي شهيد.

ووسط الساحة التي يدور فيها الأسرى في نزهتهم المسائية «**كالبرغي**» الصدئ الذي لا يتوقف فيبقى يدور حول نفسه، كان كل واحد يكيّفُ الأسباب المنطقية حتى يكون واحدًا من هؤلاء الذي سيولدون مجددًا، ولا أحد في هذا العالم يمكنه أن يوقف أمل مظلوم بالتحرر، كل الأمور مباحة، لكن أسيرًا قديمًا نسبيًا، كان يدور في الساحة دورة البرغي الصدئ، ويستمع لحديث الأسرى الأوحد، أشغله دعاء داخلي لطالما صحبه في صلاته وهو يتذكر النبي يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت الذي يشبه السجن: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يبكي وهو يردده دون أن يرى أحدٌ دموعه،

وهو يعلم أنه واحد ممن طالب به آسروا الجندي، لكنه يعلم أيضًا أن العدو سيقف عند اسمه الذي أوجع العدو في مقتل، لذلك يتذكر سيدنا عمر فيقلب المقولة: والله لو كان هناك شخص سيبقى في الأسر لظننته أنا، ولو كان هناك شخص سيخرج إلى الحرية لتمنيت أن أكون أنا.- لكنه سرعان ما يخشى على نيّته، فيخاطب السماء: أرجوك يا إلهي أن لا تحاسبني على ضعفي ولكن رحمتك أوسع لي ولإخواني.- يهزه من سرحانه أسير آخر: وحد الله يا رجل، أنت ممن تنطبق عليك شروط الأقدمية والحكم العالي.- فيجيب بصفاء قلب وعقل: وأنت وهو والمئات من خيرة رجالات المقاومة، متى ستنطبق عليكم الشروط؟!.

يصمت الشاب وكأن كلام الأخير قد أيقظ عنده تخوفًا لم يخرج للعلن قبل الآن، فيفضل السكوت وابتلاع الحقيقة المرة.

لا أدري يومها، أي جزء من شعبنا أشد فرحًا، هؤلاء التاريخ الناصع المقدس الذي كتب كلماته بالدم واستحق عضوية الأقمار ما دون السماء السابعة بقليل عندما ذاد عن براق النبي العظيم وجنة الله على أرضه فلسطين فاستحق كلمة أسير، أم تلك التي عادت تقف مجددًا أمام جمالها الذي أخفته غيبةُ الحبيب؟!. سؤال قد لا يختلف عليه الناس ما دون زوجة الأسير، فالذي يقبع بين القضبان حبيس الأنفاس والحرية لا يتقدم عليه أحد بالفرح، ولكن! لدعاء الجميلة التي كانت حبيسة الحزن على فراق زوجها طيلة عقدين، قول آخر لا يمكن أن يدركه أحدٌ سواها.

يا لحلاوتها وهي تركض من غرفة إلى أخرى وقد حولتها كلمات المقاومة إلى فاتنة أنزلت عن جسدها بؤس السنين الطويلة، تصرخ باكية وهي تتلمس مطالب العزة بتحرير فارسها، تُردد الحب والعشق والهيام وأشياء تتقنها الأُخريات، تقف أمام مرآة طويلة في غرفة نومها التي هجرها الدفء منذ عصر الديناصورات، تخجل في البدء وهي تنظر إلى امرأة تسكن جسدها وقد أخفت سحر الأُنوثة هناك، لكنها تكسر كل محرمات الواقع الذي جعلها أيضًا في زنزانة الحرمان، فتضحك وتدور حول نفسها، تضع كلتي يديها على شعرها فيضج وجهها بالحياة، فقد كانت تتهم قسمات وجهها بالموت بعد أن ذبلت عيناها وسكت فمها عن حديث الليالي الجميلات، أما الآن! تنتفض عذراوات السماء ونساء القوقاز وجميلات الجميلات، باريس وساحرة في صحراء الجزيرة العربية، يقمن مهرجان التتويج لملكة العالم في الصبر. ترجع «**دعاء**» إلى الخلف قليلًا، تخاطبه وهو مقبل نحوها: حبيبي!. ثم تراجع عن هذه الكلمة: لا لا، سأبدو سخيفة، سأناديه بروحي! تضحك، ثم تكررها: روحي، روحي، مرحبا بروحي.

لكن جسدها يرتعش وهي تفكر بتلك اللحظة التي تلامس فيها وجهه: يا إلهي لا تمتني لحظتها، أبقني في دنيا الحقيقة، لقد انتظرت عشرين عامًا أحلم بلحظة اللقاء، لقد كنت أَراهُنَّ يقبضن أذرع أزواجهن ويمضين، وأنا وحدي خلف النافذة أبكي، يأتين عندي بأحاديث لياليهن الجميلة فأكابر

وكأني لست امرأة وعندما يذهبن، يبقين وجعًا وحسرةً وحرمانًا لا يُطاق. كنت أتمناه جالسًا بقربي، يطلب فنجانًا من القهوة أو كأسًا من الماء، أو حتى لا يتحدث، فأسمع صوت أنفاسه وأشم رائحة عرقه، أرقب انفعاله وهو يشاهد مباراة لكرة القدم، لا بأس! سأحب كرة القدم من أجله، سأضع رأسه على صدري حتى يعُد مليارات الدقات التي كانت تنتظر عودته، ولن أكون ساذجة فأخرج معه إلى الشوارع حتى تراني الدنيا معه فأدخله به إلى معرض العم أبو حسن فأنتقي أغلى ثوب في المحل فيخرج محفظته ويدفع دون أن يفاصل، لن أطلب أن يأخذني إلى المنتزه، فنجلس على طاولة خرقت صديقتي أُذني وهي تحدثني عنها، إنما سأعود إنسانة تطلب أن تسمع كلمة ماما مجددًا قبل أن يفوت قطار الأُمومة، فسأصبح جدة وأنا للتو قد أقفلت الأربعين من العمر.

تخرج «**دعاء**» مسرعة من الغرفة بعد أن ارتدت ملابس الخروج من البيت فتوقفت لتطفئ التلفاز، لكنها تسمرت مجددًا أمامه وهي تشاهد إعادة بث الشريط المسجل للجندي، فتقترب إلى الشاشة وتطبع قبلة على وجه صلاح وهو يعلن عن العملية قائلة: والله ما استحقها أحد من بعد زوجي إلا أنت ورفاقك.

- ثم رفعت يديها إلى السماء: يا رب! أحفظ هؤلاء الشباب.

- ثم خرجت من البيت تبحث عن تلك العروس التي تركها زوجها وهي حامل بابنتها الوحيدة، فالتقطتها نسوة الحي: مبروك يا دعاء.

حتى أن عجوزًا كانت قد أقسمت لها أن تزغرد لحظة تحرر زوجها من الأسر، نادتها من شرفة منزلها: يا دعاء!.

ـ فالتفتت نحوها، ودون مقدمات، أطلقت العجوز زغرودتها الضعيفة، فوضعت دعاء يدها على فمها وهربت من الموقف، فلقد عادت شابة في العشرين، تتورد وجنتاها الناعمتان وتتعثر في مشيتها حد السقوط إلى الأرض.

ـ أين سأذهب؟! إلى ابنتي؟! لا لا، عندها زوجها الآن، سيكون لديها الكثير من الوقت مع أبيها، سأبحث عن تلك الألوان التي كان يحبها يوم أن تزوجنا، أتراه لا زال يحفظ الألوان؟! سأشتري كل الملابس التي كانت النسوة يرينني إياها، سأنتقم لجسدي الذي بكى الغيرة، سأبتاع السوق بأسره.

ـ كانت تضحك على نفسها: لا بأس! فلتقل القدس أني مجنونة، ما يضيرني إن كان حبيبي سيعود إليّ، حبيبي! سأناديه بها مدة عام وفي العالم الثاني سأناديه بقلبي، آه، تذكرت، سأذهب أولًا إلى صالون التجميل، سأقص شعري كما كان قبل عشرين عامًا وسأبتاع مساحيق التجميل جميعها.....

وغابت شمس الأربعاء، ولا زال الأمر على حاله، نترقب أي جديد سيخبرني به خالد في الاتصال اليومي، حيث أسرعت عند المقاتلين في بير نبالا بعد أن سمعت بأن الشيخ المجاهد أحمد ياسين سيوجه رسالة متلفزة لنا،

وقد وجدتهم ينتظرون رؤية الشيخ وسماع صوته، والجندي على حاله في الغرفة، وجوده يعطينا حافز التصميم والإرادة، يسألني حسن عن القدس، فيهزمني سؤاله: أنت في القدس وتسأل عنها؟!.

- يبتسم وهو ينظف رشاشه: يا أبا عمر! القدس.....!.

- ثم يسكت دون أن يُكمل، وقد أكملت عنه خفقات قلبه ولمعان عينيه، فيتدخل عبد الكريم: يبدو أن حسن العاشق يسأل عن أخبار الأحباب في رأس العامود؟!.- فيضحك حسن، وما ظننت أن شوقه لزوجته التي لم يرها بعد المطاردة أشد شوقًا عليه من القدس ولكن! أي قدس يريد؟! تسأل نفسك عن هؤلاء الرجال: كيف يحبون القدس؟! وكيف يرونها في عقولهم؟! وكيف تراهم هي؟! لا أزعم أني أعرف الجواب، لكن فرقًا كبيرًا بين الذي يزعم الانتماء لها دون ثمن، والذي يسرج قناديلها بدمه، فهؤلاء ليسوا عبثًا من الرجال العابرين على قارعة القدس أو سواحًا من أبناء جلدتنا يرونها مرارًا للسياحة والعبادة وحسب، هم أصداء التكبيرات التي لا زالت تنطلق من جبل المكبر، يرون الموت مهرًا لبواباتها العتيقة ومواضع حوافر خيل الفاروق عمر، ولعجوز سرق شذاذ الآفاق بيتها في حي المغاربة، ولأطفال يلعبون في أحيائها المرابطة، أبو ديس وعين كارم والعيسوية وصور باهر والقسطل وكل شبر تدب فيه قدم طفل قال الله أكبر روحي فداكِ يا قدس.

- يصرخ صلاح: الشيخ، الشيخ، سيبثون كلمته الآن.

حيث ظهر الشيخ على الشاشة، لم أقصد حينها الالتفات إلى وجوه الثلاثة، لكنني نظرت إليهم بصورة عفوية، فقرأت أشياء غير لهفة ما سيقوله الشيخ، وقد تحدثنا عن ذلك مطولًا فليس عبثًا أن يسمح المحتل لشيخ الانتفاضة بالإطلالة على شعبه دون أن يكون لهم هدف كبير من ذلك، وأظننا فهمنا ذلك جيدًا، لكن الوجوه الآن تحكي حُبًا لهذا القعيد الذي هزم عجز جسده بالإرادة، ما أحمق قادة العدو، حساباتهم رقمية ما دون إدراك ما تفعله شاشة هذا الذي تقوده عجلة متحركة، يريدوننا من خلال كلماته التي سيقولها، هكذا اعتقدوا أنهم يفعلون الصواب، لكن ضحكة كانت تغالبني قبل أن يتحدث الشيخ وأنا أتذكر مقولة له استطاعت الهروب من السجن: والله لو أمروني بأكل البطيخ لما فعلت.

وبدأ المذيع بسؤاله عن عملية أسر الجندي والمطالبة به وماذا تود أن توجه للخاطفين؟

فقال بصوته المميز ذو البحة التي تخرج من أعلى الحلق:

- أطالبهم بالحفاظ على حياته ومعاملته معاملة الأسير في الإسلام.

لم يفلح المذيع من انتزاع ما أراده الجالس هناك في مقر هيئة أركان العدو حيث صرخ في وجه مسؤول الشاباك:

- ألم تجدوا غير هذا الغبي لإجراء المقابلة؟!. لم نستفد كثيرًا!

فرد عليه بشئ من الحدة:

- يا سيدي حتى ولو قال لهم أطلقوا سراحه، لن يجدي ذلك، فهذا القعيد ليس الحاخام عفاديا يوسف يأمر أتباعه فيطيعونه على حساب عقولهم، هؤلاء يحترمون شيخهم ويستعدون لفدائه بأنفسهم، لكنهم لا يقدّسون كلامه، هكذا علمه بنفسه.

لم يكد يُنهِ الشيخ كلمته حتى تقدم عبد الكريم يخاطبه:

- والله يا شيخ أحمد، نطعمه من طعامنا ونُلبسه من ثيابنا.

ثم أكمل صلاح وهو يضحك:

- وأُقسم بالله العظيم أن حسن أشربه الكوكا كولا بيده، وأنا قمت.....!

سكت صلاح وهو يحك رأسه فأكمل حسن:

- كان له السبق في تمكينه من قضاء حاجته.

قهقهنا جميعًا فعقب صلاح:

- أخشى أن يتذكرني الناس في هذا المقطع فقط، على كل حال، أعلن يا سادة المقاومة أن أشغل هذه المهمة طالما بقي أسيرًا داخل سجون العدو، وقولوها عني، سأشربهم الكوكا كولا بدلًا من حسن المهم أن تصلني دعوة صادقة من قلب أم عاد إليها غائبها من الأسر.

ثم عاد المجاهدون إلى مهماتهم في البيت وبقي طيف الشيخ في المكان، غادرتهم كالعادة في الوقت الذي كان فيه حسن يأخذ قسطًا من حراسة الجندي، حيث جلس قبالته يحاوره دون أن يتحدثا كلمة واحدة:

ـ أعرف أنك ربما لم تقتل أحدًا، مع أن ذلك غريب! لكنك حتمًا شاركت بذلك بطريقة أو أُخرى، ماذا أخبروك عن شعبنا؟! عربٌ مخربون يسعون للقضاء على الشعب اليهودي المختار فإن لم تقضِ عليهم قضوا عليك، فاضربهم بقوة ولا ترحم. لم تتعب نفسك بسؤال عقلك، فقد علموك أن لا تفعل ذلك، لكنني أشفقت على غبائك، قد تستغرب؟! لكن هذه هي الحقيقة، أرأيت يومًا وحشًا مثلي يشعر ويفكر؟! لقد لقنوك أننا بشرٌ من الدرجة العاشرة؟! ألم يخبروك أبجديات العقل: أين ومتى وكيف ولماذا؟! تسألني اللحظة بسخف عنجهية قومك: ألستم ضد السامية واستمرارٍ لهتلر؟! فلماذا تصرون على العيش بأرضِ إسرائيل وتسعون لطردنا منها؟!.

ـ أضحكتني، هل سألت نفسك من أين أتينا ومتى حدث ذلك؟! وكيف استمررنا بالعيش هنا آلاف السنين دون انقطاع؟! ولماذا لم نغادر هذه الأرض رغم أن دماءنا سُفكت طوال التاريخ من جانب الغزاة العابرين؟! لن أقول لك اسمي حتى تبحث عن شجرة عائلتي التي تمتد إلى مئات السنين

ـ فهذا لم يخبروك به، لأنهم يخشون على مزاعمهم الكاذبة أننا طوارئ على هذه الأرض، إنما سأطلب منك أن تفكر قليلًا: ما الذي يدفعنا للقتال بأجسادنا والحجارة في مواجهة جيشكم الجرار نتلقى الرصاص بصدورنا ونموت ونحن نبتسم؟! ألا ترى أن شيئًا تفوق أهميته حياتنا يستحق ذلك؟! ثم أأنت مستعدٌ للموت من أجل وطن عمره أقل من خمسين عامًا زعمت وهمًا انتماءك له حديثًا بعد وطنك الأصلي أميركا؟! لا تكذب، لم أتهمك بالجبن، لكنك إذا استطعت أن تكون صادقًا مع نفسك ستفهم لماذا نموت على أرضنا ونحن نبتسم.

وجاء يوم الخميس، حيث يفترض أن تصل درجة توتر العدو إلى ما قبل القمة بقليل، فلا زال هناك يومٌ واحدٌ للمهلة، وقد ناموا ليلة الأمس على إحباط كبير بعد أن قصروا خياراتهم المحدودة ما قبل ورقة الخضوع للتفاوض، على نتيجة التحقيقات التي تجريها أجهزة الأمن الفلسطينية في غزة مع عناصر حماس.

خرجت كالعادة للعمل، ونفسي منذ الصبح تدفعني للتمرد، فعدلت عن الذهاب إلى مقر الشركة وليقل المدير ما يشاء، فوجدتني أسير باتجاه باب العامود نزولًا إلى البلدة القديم حيث لا طعم للقدس، تكتشف شيئًا جديدًا قد فاتك معرفته من قبل، ومن يزعم الدراية بكنوز القدس جميعها فهو مخطئ إلا هؤلاء الرجال الذين استعدوا لفدائها بأرواحهم، أعترف أنني دائمًا كنت بحاجة للنزول إلى هناك

وقد زادتني أسئلة حسن المتكررة عن القدس، قناعة بأن قوة فيها تجذبك كالمغناطيس، إذًا! أديت فروض الطاعة بالمرور من البوابة العملاقة وسرت مخترقًا باعة الفاكهة والخضار المنتشرين في الطريق، وأشهد أن رهبة تلازمك كلما عدت إلى عمق التاريخ هذا، وفي الأمام، كانت المعدة تدعوني للوقوف على المفترق لتناول بعض أقراص الفلافل من محل «**الهدمه**» وللأسماء عندنا نكهتها الخاصة تمامًا كطعم الفلافل ذى الماركة المسجلة، كان على شمالي طريق الواد الذي يؤدي إلى طريق الآلام والمسجد الأقصى المبارك، لكن أقصى الشمال يلزمك انتباهه لتلاحظ زقاقًا ضيقةً تؤدي إلى حارة السعدية وعلى يميني كان سوق باب خان الزيت الذي اخترته هدفًا لصبابتي في ذاك الصباح، لكن الزقاق الجميلة التي تفاجئك دومًا بما تحوي من أسرار تدعوك لضيافتها حيث يقع زقاق يؤدي إلى حارة النصارى، افتتحت به النظر وأنا أدخل سوق باب خان الزيت، بعد أن ودعت بائع الفلافل، وفي اللحظة التي تعبر فيها المكان! تبدأ الروائح الثقافية المميزة باختراق أنفك، نعم! لست ألعب بالألفاظ، فرائحة المخللات المسكرة بلذة طعمها لا تترك لك مجالًا للشك بأن اللوز والزيتون والخيار والملفوف والزهرة جزء من ثقافة هذا البلد المقاوم، لكنك تغيّر بعد عدة محال في السوق، صبابة ذوقك الغذائي عندما تقصفك رائحة القهوة العربية الأصيلة وسيدها في أول السوق -زحيمان-

وكما قلت فالثقافة عندنا تؤخذ كما هي، فلا تستطيع الاستمتاع بهذه القهوة دون أن تتلفظ باسم صاحبها وإلا لا تقل أنك زرت القدس فستضحك عليك جميلةٌ لا يرق لها الصباح دون قهوة باب خان الزيت وبعد بضع خطوات يقف محارب بسيفه لا تستطيع الإفلات منه دون أن تدخل عنوة لأكل الكنافة عنده، فجعفر هذا تود أن تلتهمه بعد أن تقضي على كنافته الرائعة، لم يكن بوسع معدتي وأنفي استيعاب كل هذا فأسرعت إلى الأمام، وأثناء مسيري كان هناك درج على يميني نسميه بدرج البطيخ ولا بد أن اسمه ارتبط يومًا بالبطيخ حيث يؤدي إلى حارة النصارى وقبالته دخلة تنزل منها إلى حي الواد حيث يتواجد هناك المنزل الذي احتله شارون وكان فيما سبق هدفًا لحسن وإخوانه، ولأن رائحة شارون الكريهة يلزمها كل مزيلات الأرض، فإنك سرعان ما تذوب في رائحة الزعتر الفلسطيني الذي قرن اسمه بالزيتون فهما دلالة حية على التاريخ العربي الأصيل لهذا البلد، وقد انتشرت محاله المتعددة في السوق، ولكن! تعود القهوة مجددًا لتصطادك مرة أخرى عند «**صندوقة**» وتحار في هذا الفن، أرجو أن لا يعترضني أحد، فكل الأشياء في بلدي هي عندي فن وجمال وثقافة وأيضًا حضارة، هكذا أرى الأمور ببساطة. بالطبع عليك أن تنتبه دومًا للمداخل والتفرعات المترامية على جانبيّ السوق، كهذه الدخلة على شمالي نزولًا ونسميها عقبة المفتي وتؤدي بك مباشرة إلى حي الواد الذي ينقلك بسرعة إلى أحد أبواب الأقصى -باب الغوانمة أو باب المجلس.

وفجأة وجدت نفسي أقترب من محل أبو حسن ومحلات عائلته، فلم أشأ الدخول حتى لا أضطر لقول شئ يخالف الحقيقة حفاظًا على هذا الرجل الطيب، لكنني رأيته من بعيد وعدت أدراجي دون أن أكمل وقد تذكرت حديثًا أسرَّه لي حسن قبل أن أغادره ليلة أمس، ربما كان السبب في عدم مروري لإلقاء التحية على والده، لله درّ هذا الحسن! يأتيك دومًا بجديده الذي يفاجئك، فقد أخبرني عن عقده مع المهندس عندما كان في نابلس حيث يتم تنفيذ بند العقد الوحيد بعد إتمام عملية التبادل بنجاح، وعندما سألته عن هذا العقد الغريب فقال: عملية استشهادية، أدمي فيها قلوب الصهاينة وأرد فيها على جزء من دم أهلنا الذي سُفك في مجزرة الحرم الإبراهيمي الشريف.

لم أجد حينها كلامًا يُقال، فالكلام هنا شئ من العبث لا يستقيم مع الموقف، حيث يصر حسن أن يكون جزءًا من الخطة الخمسية التي أعلنها المهندس وإخوانه للرد على المجزرة وقد بدأها الشهيد رائد وأركانه في العفوله وتبعه بأسبوع الشهيد عمّار عمارنه في الخضيرة حيث قُتل وأُصيب العشرات من الصهاينة المحتلين، وحسن يطلب الشهادة مهاجمًا في أروع صور الفداء.

في مقر هيئة الأركان، كانت التطورات تسجل منحنىً آخر جعل المهمة أكثر تعقيدًا على خلية الأزمة، عندما جاءت نتائج التحقيقات من غزة وتقطع بأن الجندي ليس في القطاع وأن الشريط أحضره شخص غريب، ومثلما جرى في الأيام القليلة السابقة فإن حضور رئيس وزراء العدو الدائم إلى المقر رفع من حالة الاستنفار العصبي لدى خيرة العقول الأمنية والإستخباراتية في دولة الاحتلال وقد أُسقط في أيديهم بعد أن توقفت اعترافات عناصر القسام في غزة عند حد معين لا يمكن من خلاله كشف هويتي وأنا الطريق الوحيد للوصول إلى الجندي، وهنا عاد سيناريو نسيم طوليدانو المخيف والمرعب الأمر الذي دفع إسحق رابين لرفع سماعة الهاتف:

- يوسي! جاء دورك الآن، أخبره أننا مستعدون لإطلاق سراح ياسين مقابل استعادة الجندي حيًا.

ثم أغلق السمّاعة وهو يدرك أنه يقبل على أمر لم يسبقه أحد إليه، وفي القاعة المضطربة كان الجميع ينتظر انفجار رابين في وجوههم:

- أين الجندي؟! أخبروني الآن أين الجندي؟! إذا لم يكن في غزة ولم يدخل إلى هناك، فأين هو؟! كان يوجه أسئلته إلى وجوههم ثم أكمل: يعني ربما يكون في نابلس أو الخليل أو حتى في أم الفحم.

توقف عن الكلام وهو يمشي، ثم استأنف حديثه: لم لا؟! لعله هنا تحت أنوفنا موضوع في مزرعة كما افترضت سابقًا يا حضرة الضابط، أو في بيت على أطراف الناصرة.

بعدها جلس على الكرسي يفكر، ثم طلب تقييم الشاباك:

- يا سيدي نحن الآن نحاول حصر الدائرة التي من الممكن أن تكون المسئولة عن اختطاف الجندي، فالمخرب صلاح جاد الله شقيق الصحفي الذي وزع الشريط، يتواجد في الضفة الغربية وربما في القدس، وتقديراتنا تفيد أنه ربما انضم بعد كشفه إلى المخربين حسن النتشه وعبد الكريم بدر وهؤلاء الثلاثة كانوا ضمن مجموعات خطف الجنود التي عملت مؤخرًا في القدس!.- أنصت رابين باهتمام إلى كلام الضابط: ونحن الآن نحاول أن ندرس تفاصيل عملهم السابق فربما نستطيع الوصول إلى شئ.

صرخ رابين عليه:

- أيها الذكي! ليس لدينا وقت، اعتقلوا جميع معارفهم في القدس، راقبوا أهلهم جيدًا ازرعوا عملاءنا في كل شارع، ثم أخبرني خطوة عملية غير هذا الكلام.

توجه الضابط إلى اللوحة وأشار بيده:

- مجموعات الخطف السابقة، تشكلت جميعها من عناصر حماس في مدينة القدس وضواحيها. وهنا قاطعه رجلُ شاباك آخر كان يستمع جيدًا للكلام فانتبه إلى قضية:

- المخرب طارق أبو عرفه الذي اشترك مع أيمن أبو خليل في اختطاف اثنين من جنودنا وقتلهما، كان يستخدم سيارة الشركة الإسرائيلية التي يعمل فيها لتنفيذ العمليات، وذات الأمر تكرر مع مجموعات متصلة بهذه الدائرة، حيث يستخدمون سيارات شخصية كما حدث مع أيمن أبو خليل الذي كشفته سيارة شقيقته.

سأل باراك:

- ماذا يعني ذلك؟!

وقبل أن يجيب، تحدث جدعون عزرا مسؤول الشاباك في مدينة القدس والذي حضر الجلسة: أولًا: يجب البحث عن عناصر حماس في القدس الذين يمتلكون سيارات متوسطة الحجم كالتي يستخدمها المخربون أثناء عملية الخطف. ثانيًا: التعاون مع وحدة مكافحة سرقة السيارات في الشرطة لمعرفة أنواع السيارات التي سرقت خلال الأسبوع الفائت تحديدًا، والوصول إلى تجار السيارات المسروقة لمعرفة ما إن كانوا قد باعوا سيارة وصلت بطريقة ما إلى أيدي المخربين. ثالثًا: التركيز على أجهزة الأمن في غزة بضرورة فحص السيارات الإسرائيلية التي دخلت القطاع يوم الاثنين، فربما شاهدوها لأنهم حتمًا سيوقفونها على الحواجز، فالمخربون استخدموا السيارات الإسرائيلية سابقًا للدخول والعبور ولا يوجد إمكانية لديهم غير هذه الطريقة للتحرك. وأخيرًا: يجب أن نفحص معارض السيارات العربية في القدس فربما استأجروا سيارة الخطف من هناك!.

التفت رابين من وله ثم صرخ:

- ماذا تفعلون؟! تحركوا لتنفيذ ما سمعتم الآن.

بعدها طلب تقييمًا لما يحدث في الشارع الإسرائيلي والإعلام:

- سيدي! وصل عدد المصلين من أجل سلامة نحشون في حائط المبكى إلى خمسين ألف والإعلام يبث ذلك بصورة مباشرة.

وبعد أن نفث دخان سيجارته سأله بهدوء:

- ما هو رأيك النهائي في ذلك؟!

أجاب الرجل الذي كان مستشارًا إعلاميًا له:

- يجب أن نستمر في إصدار التصريحات التي تؤكد حرصنا على استعادة الجندي حيًا وسالمًا إلى أهله وأننا نبذل كل جهودنا الأمنية والدبلوماسية لتحقيق ذلك ولكن!! ينبغي التأكيد على أننا لن نخضع للإرهاب.

ضحك رابين الذي مرت عليه هذه اللعبة منذ القدم، لكنه أراد أن يختبر حنكة مستشاره الإعلامي. وإذا نفذ المخربون تهديدهم بعد انتهاء المهلة ماذا سنقول للناس والإعلام؟! تلوّن وجه المستشار لكنه أجاب:

- حينها سيكون لنا حديث آخر.

صفق رابين بيديه:

- برافو حضرة المستشار أنت وصفة ممتازة لكل مسئول يبحث عن الانتحار السياسي.

ولم يكد ينهي حديثه، حتى اتصل مبعوثه الخاص إلى رئيس السلطة في غزة:

- سيدي، الموضوع الآن في يده بعد موافقته على الوساطة ومبعوثوه بدؤوا بالتواصل مع القيادة السياسية لحركة حماس، لكنني أود إخبارك بأن عضو الكنيست العربي استطاع أن يحصل على موافقة ضمنية لتمديد المهلة ولكن!!.

تفاعل رابين مع أهم خبر انتظره طيلة الأيام السابقة:

- ولكن ماذا؟!.

- يجب الحذر! فالاعتقالات التي حدثت في غزة وتحدث في الضفة والقدس قد لا تضمن التزام المخربين في الجهاز العسكري بتمديد المهلة إذا ما شعروا بالخطر يقترب إلى الجندي.

- وكيف ترى الأمور من جانبك؟!.

- إذا بقي الأمر على حاله، لا مفر من المفاوضات لاستعادة الجندي وعليك أن تواجه الانتقادات الداخلية بحزم.

في هذه الأثناء، كنت على موعد للقاء زكريا بعد صلاة العشاء في مسجد شعفاط في القدس، حيث صلينا معًا وانطلقنا إلى سيارته، وقد لاحظت القلق في عينيه وهو يتحرك بيننا إلى مكان بعيد عن الأنظار، وهذه ليست عادته المرحة التي درج على إبدائها وسط الصعوبات ويذكر ذلك المقاتلون في بير نبالا الذي كانوا يأنسون بزياراته اليومية عندهم فقلت لحظتها لعل أمرًا عائليًا يزعجه أو حدث عارض، لكنه قطع عليّ التكهنات لدى توقفنا في أحد الشوارع الخالية:

- يجب أن ننقل المجموعة مع الجني إلى مكان آخر! أقلقتني جدًا لهجة حديثه وكأن أمرًا ما يحدث دون أن أعرفه

- يا لطيف! هل حدث شئ للشباب؟! يا إلهي لم أذهب عندهم اليوم كالعادة.

- لا لا، لا تقلق إنما شعور داخلي يدفعني للخشية، ألم تسمع باستشعار الخطر؟! أنا ألمسه الآن.

- هل هناك شئ تبني عليه خوفك؟! أم مجرد شعور.

- لا أدري، ولكن قد يكون إجراءً احترازيًا لا غير، فأنت ترى ضخامة الهجمة والتي توجب علينا أن نسبق العدو بخطوات.

لحظتها صمتنا قليلًا فالحديث منطقي ولكنه حساس، فسألته:

- هل لديك مكان مناسب؟!.

- يوجد بيت في بلدة الرام، ليس كبيت بير نبالا، إنما لا بأس به.

- ماذا تعني بذلك؟!.

- هو قيد الإنشاء، لكن المجموعة تستطيع الاختباء داخله.

- ماذا تقول يا رجل؟! أأنت مستعد لأخذ هذه المخاطرة على عاتقك؟! لن تستطيع تحريكهم إلى أي مكان إن لم يكن جيدًا للاستمرار من الناحية الأمنية أو على الأقل بنفس مقاييس البيت الراهن.

- امتعض زكريا قليلًا، لكنه سرعان ما قال: أنت ترى ذلك؟!.

- بالتأكيد يا أبا عبد الله، فمهمة الشباب في الحفاظ على الجندي يلزمها وضعٌ خاص والذي قد لا يتوفر لدينا الآن.

- بالمناسبة! ما الذي سيكون عليه الحال غدًا بعد انتهاء المهلة؟! تتردد تخوفات كبيرة في الإعلام الصهيوني حيال ذلك، على الرغم من بعض التسريبات المنسوبة للصحافة العربية باستعداد الحركة لتمديد المهلة، فما هو الرأي؟!.

- أخبرني أنت أولًا؟!

وقبل أن يجيب، خرج صاحب المنزل الذي كنا نركب سيارتنا قرب سور بيته الذي يقع في شارع معزول ظنًا منه بأننا رجالُ الليل السيئون، فتحركنا إلى مكان آخر:

- صحيح أن تمديد المهلة يضعف موقفنا لكننا مضطرون لذلك في ظل استماتة العدو للتمديد وخاصة بعد أن أخبرك أبو خالد بوجود إشارات لاستعداد رابين للتفاوض الغير مباشر.

- لكن في المقابل، تعلم أن العدو يسعى لكسب الوقت ريثما يصل إلى طرف خيط يقود إلينا

- يا أبا عمر، الورقة الرابحة بأيدينا وهو الجندي، فقط علينا أن ننتبه جيدًا والبقية على الله ولندع تكتيكات التفاوض للمجاهدين في غزة.

- لقد ذكرتني بموعد الاتصال مع «**أبو خالد**» فينبغي أن يسمع موقفنا.

- توجهنا معًا إلى قمرة هاتف عمومي وهناك اطمأننا على سلامة «**أبو خالد**» بعد حملة الاعتقالات في غزة، وأخبرناه بعدم استعجالنا بتنفيذ التهديد غدًا لدى انتهاء المهلة، فالوضع عندنا مطمئن مما يتيح الفرصة للاحتفاظ بالجندي شهرًا أو شهرين، المهم أن ننجز مهمة تحرير إخواننا.

ارتاح أبو خالد كثيرًا من موقفنا واستعدادنا وأنهينا الحديث على عدم إجراء أي شئ غدًا الجمعة، والحقيقة أن الموقف لم يكن يحتمل قرارًا غير هذا الذي اتخذناه بعد الذي أحدثه أسر الجندي لدى شعبنا وتحديدًا شريحته الباسلة من الأسرى وذويهم، فالجدية في مواقفنا قد خبرها العدو في المهلة التي أعطاها المجاهدون في حالة الجندي نسيم طوليدانو، ويراها الآن في وجهه الآخر من خلال إعطاء فرصة للمفاوضات حول التبادل، فالهدف ليس قتل الجندي الأسير إنما إنقاذ أبناء وبنات شعبنا من سجون العدو بأي ثمن.

أوصلني زكريا إلى مكان قريب من المنزل دون أن يرانا أحد وكانت الساعة الحادية عشر ليلًا على أن نلتقي غدًا بعد صلاة الجمعة في المسجد الأقصى المبارك، حيث جلست مع شقيقي التوأم على التلفاز نتابع الأخبار الساخنة بخصوص الجندي وحديث الإعلام الصهيوني عن نوعية الأشخاص الذي يطلبهم آسروا نحشون والحيرة التي يقع فيه المجتمع والحكومة حيال مبادلة جندي حي على ذمة الدولة التي رهن حياته من أجلها، مقابل إرهابيين قتلوا إسرائيليين،

حيث يدافع الفريق الأكبر عن رأيه بضرورة إنقاذ الجندي من خطر الموت المحقق وعدم الانتظار ريثما ينفذ الخاطفون تهديدهم، بينما يرى الفريق الآخر غير ذلك حيث يتصدر اليمين الصهيوني المتطرف وبعض أهالي القتلى الصهاينة، جبهة المعارضة لإطلاق سراح المخربين، التى أيديهم ملطخة بدماء اليهود -وفق تعبيرهم- ويطرحون حلولًا راديكالية باعتقال جميع قادة حماس وعناصرها والتهديد بتصفيتهم إذا لم يُطلق سراح الجندي فورًا، فيرد عليهم الفريق الأول باستخفاف نظرًا إلى أن ذلك لن يحل المشكلة بل سيعقدها لأن قائمة الأسرى عندها والتي يطالب الخاطفون بها مقابل الجندي سيُضاف إليها الأسرى الجُدد، كما أن العزف على وتر القتلى لن يعيدهم أحياء إنما قد يهدد حياة جندي لا زال حيًا، وقد أيدت أسئلة الطيار رون أراد الذي وقع في أسر المقاومة اللبنانية لدى سقوط طائرته في لبنان عام ستة وثمانين، مطلب عقد الصفقة خشية من تكرار ما حصل مع ابنهم الذي تركته حكومة اليمن إلى مصيره المجهول والذي يذهب الجميع إلى أنه مات في الأسر وفُقدت آثاره.

لقد كانت نقاشات الصهاينة في الإعلام على درجة كبيرة من الأهمية، حتى أنني شعرت بقيمة قرارنا تمديد المهلة، وقد دفعني نقاش الصهاينة الحامي الوطيس إلى التفكير بهؤلاء العظماء الذين يقبعون في الأسر وماذا يفعلون في هذه اللحظة التي يسمعون فيها الجدال بشأنهم.

فلم تكن غرف السجون جميعها لتنام دون أن تتابع جميع البرامج والأخبار التي تتناول الحدث بالتفاصيل، حيث جلس سكان غرفة تسعة في سجن عسقلان والبالغ عددهم ثمانية عشر أسيرًا يتابعون التلفاز كما كنت أتابعه وقد علق أحدهم قائلًا:

ـ هذا ما يسمونه بعربدة القوي، يتحدثون عنا وكأننا المعتدون وهم الضحية، يتباكون على قتلاهم الصهاينة من الجنود النظاميين، والاحتياط ممن يرتدون الملابس المدنية ويسمونهم بالمدنيين زورًا، وعددهم لا يُذكر مقابل جرحنا، ويتناسون آلاف الشهداء الذين ذبحوهم بالرصاص المتفجر وغالبيتهم من الأطفال ما دون الثامنة عشر من العمر.

يبتسم عجوز الغرفة من الأسرى وهو يعلق:

ـ المشكلة ليست في موقفهم هذا فهم يعلمون جيدًا أن جميع شهدائنا قتلهم رصاص الجنود، وهم عزل من السلاح وقد تصدوا لبطشهم بصدورهم والحجارة، إنما المشكلة الحقيقية أن جرمهم الأكبر يكمن في عدم رؤيتنا من بني البشر، يتحدثون عنا وكأننا لسنا من لحم ودم ولا ننتمي إلى عائلة الإنسانية، انظروا إلى قادتهم المدانين بجرائم مباشرة لمجزرة قبية التي نفذها المجرم أرئيل شارون عام ثلاثة وخمسين وراح ضحيتها العشرات من أبناء شعبنا، ورابين ذاته ونائبه شمعون بيرس فهما غارقان بدمائنا ومع ذلك استطاع المفاوض الفلسطيني أن يصفح، لكن العدو لم يصفح، انظر إليهم....!

ـ قاطعه أسير كان يصبُ الشاي لمن طلب أن يشرب لأن غالبية الغرفة تستعد للنوم وليس من عادة الأسرى شرب الشاي قبل النوم:

ـ أرجوكم أن تتركونا من هذه السيرة، فنحن نعلم الحقيقة، أن هؤلاء المجرمين يخوضون حربًا وجودية ضدنا وحتمًا سيظلون يعتبروننا لا شئ إلا إذا دفعوا الثمن جيدًا، وكما تقول جدتي «**أول الرقص حنجلة**» وهذا ما كان بالأمس في العفوله والخضيره وقبلهما في بيسان ويحدث اليوم من أجلكم يا «**شريبة الشاي**».

ـ وبدأ توزيع الشاي.

لكن اثنان من الأسرى كانا ينزويان لوحدهما في قرنة الغرفة، يجلسان على البرش الأرضي بعد أن تابعا قليلًا من الأخبار، يسأل أحدهما وكان أعزبًا قد خطفه العدو قبل سبع سنين:

ـ حدثني يا أحمد عن هذا المخلوق الجميل الذي نسميه المرأة.

يضحك أحمد من أعماق قلبه وهو المتزوج منذ تسع سنوات:

ـ ما هذا السؤال الأحمق؟!

كان أحمد يستفز بإجابته صديقه الأعزب.

ـ أنا ذاك الأحمق، فاجعلني أتحلل من حُمقي قبل رؤيتي الحرية، فربما سأموت عندما أرى أول ابتسامة على وجه امرأة.

-

- أمرك خطير للغاية، تحتاج إلى إنعاشٍ عاطفي.

اقترب الأعزبُ قليلًا إلى أحمد:

- وأنت إلى ماذا تحتاج؟! لا تهرب من الإجابة.

ابتسم أحمد وهو ينصاع إلى زميله الإنسان:

- الحرمان يا صديقي يضيف إلى الصورة المعتمة أصلًا، ضبابية إضافية، صحيح أن صورتها لا تفارقني، أراها في اليقظة في الأحلام حتى في وجه مذيعة الأخبار، وإن شئت في نسمة الهواء التي اصطادها وقت الحر، لكنني أموت في اليوم عشر مرات كلما خفق هذا الساكن بين الأضلاع، يذكرني أنني لا زلتُ إنسانًا يطلب فطرة الله في خلقه، فأخاف بل أرتعد خوفًا من فكرة أن تشيخ المشاعر في الأسر ثم تموت.

ضرب العازبُ على رأسه:

- يا رجل أتيت بك في هذه الأيام الجميلة حتى تفرحني بالحديث عن النساء، والنساء فقط، ففتحت لي مأتمًا، ماذا جرى لعقلك، نقول لك بأن صفقة التبادل قاب قوسين أو أدنى، فتعود إلى الوراء!

- أتدري؟! سأحدثك ولكن عدني أولًا إن كتب الله لك الحرية قبلي، أن توصل هذه الكلمات إلى من يهمه الأمر

ـ قل له: عندما تخلد إلى جانب زوجتك تذكر أن فراش أخيك امتلأ بدموع زوجته وأن المشاعر تيبّست فيها الحياة بعد أن انقطع عنها مطرُ الحب، فإن قال لك: ما باليد حيلة، فأجبه عني: إذًا اهجر فراش زوجتك حتى تتوفر لديك الحيلة، فبالأمس صنع أخوك الحيلة عندما تقدم الصفوف طواعية وفراشه لا زال يملؤه الدفء فغدت مقاومتك قمرًا بين النجوم.

ـ فإن قال لي أحدهم: هم أبطال يدفعون ضريبة انتمائهم لدينهم والوطن!

ـ أجبه: البطولة في ميدان القتال والحُر تقتله جدران الأسر حتى وإن لم يُظهر ضعفه لعدوه، ثم أتلو عليه قولة شيخ الانتفاضة القعيد ـأحمد ياسين: «**الحركة التي تبقي أبناءها أكثر من خمس سنوات، عليها أن تحل نفسها**».

ضحك العازبُ حتى تفجرت الدموع من عينيه وأحمد يرجوه الهدوء، ثم وضع يده على معدته:

ـ على هذا ستحل كل الفصائل الفلسطينية نفسها، وتقرأ على تاريخها الفاتحة، والآن دعنا من هذا وأخبرني عن لقائك بزوجتك بعد خمس سنوات عجاف من حرمان الزيارة.

ـ لقد عرفت أنك ستسألني عن ذلك، لا بأس أيها العاشق مع وقف التنفيذ، لم نتحدث كثيرًا ولم نهن شوقنا بالكلمات، فللمحبين لغة خاصة تتخاطب بها الأرواح والعيون وتنقلها لمسات الأصابع التي تتسلل من شبك الزيارة، أعترف أن غيابها المتواصل طيلة السنوات تلك قد أثقل قلبي بالهموم وجعلني على حافة الموت الذي لا يُرى،

ـ لكن امتثال سحرها أمامي بعثني من جديد، تلاطفني بابتسامة ثغرها الذي قهرته السنون الطويلة تأبى أن يحتفل السجان برؤية دمعها، وتنتصر على ضعفها وأنا أعلم أنها تبكي هناك في موطن القلب والروح، فنساؤنا يا صديقي، حرائر من نوع خاص، تسرُ إليَّ همسًا:

ـ لقد اشتقت إليك!. يقولها الناس في قوالب العادة صادقين، لكنها على شفاه حرائرنا حكايةٌ أخرى: اشتقت إلى ظلك يا حبيبي، إلى أمانٍ تمنحه لخوفي في الليالي القاسيات، أحتاج رَجُلَك يدفع عني الذئاب التي تترصدني في كل طريق وعند كل باب، الكل يخطب جمالًا هو حصر لصدرك، فأسرع يا قلب إلى جمالك الذي يقرئك شوقَه القتّال.

كان العازبُ يستمع متأثرًا، لا يدري أيُعجَبُ بهذه الرومانسية الجميلة أم يبكي على فجيعة الحرمان؟! لكنه قرر التخلي هذه الليلة عن نون النسوة إشفاقًا على أحمد:

ـ أكيد أن لقاءك بطفلتيك كان عظيمًا؟! أرجوك أن لا تقلبها تراجيديا، فالليلة لا أريد النوم على وجهي، فحدثني عن فراشتيك الجميلتين.

اتسعت وجنتا أحمد من الابتسام وقد أسره العدو وطفلته الكبرى لم تبلغ السنتين بعد، أما الصغرى فقد ولدت بعد أسره بثلاثة أشهر: يومها جلستا في قاعة الزيارة تحيط بهما النسوة في غياب والدتهما الممنوعة من الزيارة، وقلبي يسبقني إليهما ركضًا، فأربع سنوات ونصف فصلت عينيّ عن رؤية وجهيهما الملائكي والشباب يحتفلون معي بهذه الاحتفالية العالمية.

وقعت عيني عليهما تجلسان معًا، فأبيت أن أفزع براءتهما بحضوري، فرحبت بهما بسرعة وتوجهت بوجهي لتحية النساء اللائي كن يرصدن الموقف، لكن عيني كانت تلتقط انفعالية وجهيهما الساحرين وهما تأكلانني بنظراتهما العميقتين، وبعد أن عدت بنظري إليها لأقع في أسوأ ثانية في حياتي تفوق سوء المؤبدات التي حكموني بها، عندما أعجزني الفراق عن التمييز بينهما، لكنني سرعان ما فككت شفرة الأبوة فخضعت إلى أروع هجوم على وجه الأرض، بابا، بابا، بابا، وصدري يطلب المزيد، فقد نطقتا كلمة بابا عشرات المرات وأنا كذلك، استحلفهما بقلي، ردداها مرة أخرى لا تتوقفا اقتلنني لا بأس ولكن انطقنها في كل ثانية، سأبقى في السجن ولكن ابقيا على كلمة بابا، لم أدرِ حينها كيف مرَّ الوقت علينا وفجأة! حدث زلزال بدرجة تسعة بمقياس ريختر عندما نادتني الصغيرة قبل أن تضع يدها على فمها بسرعة: خالي.- يا إلهي نادتني بلقب خالي فأطلقت سهمًا على قلبي، لكنني لم أشعرها بأنني انتبهت وأنا أتحدث مع شقيقتها الكبرى وبعد قليل من الوقت عاودت قتلي مرة أخرى: خالي.- فكادت البكاء وهي تضرب فمها البرئ الذي لا تتحمل مسئولية خروجه عن النص. ولما تكررت الزيارات، تكررت الأخطاء حتى تلاشت مع الوقت لكنها بقيت إلى اللحظة في الصدر، إنما غفر لبراءتها موقفًا من ذهب

عندما سمحوا لهما بالدخول عندي لبضع دقائق، حيث اصطدت وجنتيّ الكبرى بأسناني عضًا كما كنت أفعل قبل الأسر فأخذت تصرخ وهي توزع الابتسامات، أما الصغرى التي كانت أطول قامة فقد حملتها بين ذراعيّ ودرت بها حول نفسي وهي تحسرني بهدوئها وكانت المرة الأولى التي أحملها فيها، ولما كسر الشاباك الحصار جزئيًا عن زوجتي وسمح لها بالزيارة مرة واحدة في كل عام، أخبرتني كلمات قالتها الصغيرة عندما عادت من زيارتي تلك: لقد أصبح عندي بابا ويحملني بين يديه!.

نهضت مع شقيقي التوأم نضال للنوم وقد انتصف الليل، حيث توجه إلى غرفته والنعاس يداهمه، وبدوري وقفت على سجادة الصلاة بعد الوضوء وتغيير ملابس النهار، وعندما كنت أهم بتكبيرة الإحرام، أوقفني طرقات شديدة على باب المنزل، لم تكن من النوع السلمي مطلقًا وغير متوقعة في هذا الوقت من الليل، فتوجهت لفحص الأمر من خلال العين السحرية في الباب! وهناك، شاهدت جيوش التتار الداهمة، حيث رشاشات القوات الخاصة المزودة بالليزر موجهة نحو البيت في حالة استعداد قتالية، لم أتردد للحظة واحدة وأنا أفتح لهم، مستبعدًا أن يكون حضورهم بسبب الجندي.

وبسرعة خيالية قاموا بالسيطرة عليّ وسط الصراخ والإرهاب الذين يحدثونه عمدًا في المكان، واقتادوني إلى غرفة الضيوف بعنف مبالغ فيه وقد امتلأ المنزل بالجنود حيث أداروني إلى الحائط بعد وضع بشكير على رأسي والوجه، وفي غرفة شقيقي نضال كانوا يصرخون عليه حتى يستيقظ، فأسرعت أمي إليه توقظه محاولة تهدئته ووضعه في صورة الأمر، بعدها اقتادوه إلى المطبخ بعد تقييده كما فعلوا معي ثم وضعوا غطاءً على رأسه ووجهه.

أصبح البيت في غضون ثوانٍ معدودة ثكنة عسكرية يملؤه المقنعون الذين دججتهم دولتهم بسلاح الرعب والإرهاب، لتبدأ لحظتها عملية تفتيش دقيقة وسريعة في منزلنا ومنازل الجيران، أثناء ذلك كانت تجري عملية تشخيص لي ولشقيقي التوأم نضال، حيث تنقل بيننا شخص ملثم بالقناع وبالخيانة يفحص وجهينا جيدًا يود تأكيد هويتي من هوية شقيقي، ورغم حالة الحرب التي أحدثتها هذه الغارة الليلة، لم تتحرك قناعتي عن أول خاطر يأتيني لحظة رؤيتهم في العين السحرية أنها اعتقالات عشوائية، ولا يخفي المرء رغم توقعه لهذه العنجهية البربرية المكررة والمتوقعة، أن يتسلل الخوف إليه وخاصة أنهم أفزعوا الحي بأسره واعتقلوا شقيقيَّ الآخرين من منزليهما وسط الذعر الذي أحدثوه في غرف الأطفال، وبعد أن تأكدوا من هويتي بدأ التحقيق الميداني:

- اسمع، ليس لدي وقت لأقضيه معك، أجبني باختصار وسرعة، ماذا فعلت في الأسبوع الفائت؟!

كان محدثي رجل مخابرات يهودي يتحدث العربية ولم يسمح لي بإدارة وجهي نحوه فأبقاني مقيدًا ووجهي إلى الحائط:

- لم أفعل شيئًا

- يا شاطر، لا تتحاذق معي، أريد برنامجك خلال الأيام الماضية، الأماكن التي ذهبت إليها والأشخاص الذين التقيتهم وعملت معهم.

أراحتني أسئلة المحقق والتي لم تكن خارج سياق البحث المستميت عن طرف خيط يقودهم إلى الجندي حيث حاولوا ذلك مع كثير من المعتقلين في الأيام الماضية:

- ذهبت إلى جميع المدن في الضفة والتقيت أصحاب المصانع المرتبطة بالشركة و....

قاطعني بوخزه على ظهري من الخلف:

- أريد غير ذلك، اللقاءات الأخرى التي تهمنا ودعك من هذه الألاعيب.

ظللت أكرر روايتي على مسمعه حتى انقضت نصف ساعة على التحقيق الذي لم يكن بتلك الجدية المعهودة في التحقيق الميداني والذي يستخدم فيه العدو أقسى أساليبه عنفًا لانتزاع اعتراف سريع يبني عليه خطواته اللاحقة والقريبة،

تفاجأت بعدها باقتيادي العنيف إلى خارج المنزل وأنا أشعر بحركة العشرات من الجنود الذين كانوا يتصرفون بشئ من التوتر والحذر حيث وضعوني داخل سيارة عسكرية، انطلقت بسرعة جنونية تخترق شوارع القدس التي أحفظها عن ظهر قلب، تسير نحو مكان تعرفه نفسي رغم كرهها لساكنيه، فلا يجوز في عُرف الأحرار أن يكره الحر شبرًا من وطنه حتى ولو أذاقه الغاصبُ فيه ألوان العذاب!.

مركز تحقيق المسكوبية، حجرة مستنسخة من الباستيل في فرنسا أو إن شئت من رأس شيطان صهيوني عطسَ الإجرام فتشكلت زنازين هذا الجحيم، وقفت الجيبات العسكرية وسيارات مدنية أخرى في ساحة المركز، ثم اقتادوني بلمح البصر إلى الداخل ولم أشعر كيف أصبحت داخل غرفة التحقيق. وهناك، أزالوا عن وجهي عصبة العينين:

ـ أهلًا جهاد، يسمونني الميجر «**بيني**» مسئول تحقيقات القدس وهذان الضابطان أحدهما مسئول تحقيقات الخليل والآخر تحقيقات رام الله، وباختصار شديد، أعيد عليك نفس السؤال الذي سألتك إياه في البيت:

ـ الأماكن التي ذهبت إليها خلال الأسبوع الفائت، الأشخاص الذين التقيتهم وعملت معهم؟!

لم أتخيل وهو يحقق معي في البيت أن يكون شكله هكذا حيث رتابة الملابس التي توحي أنه جاء على عجل من مكان غير العمل، على كل حال، لم أغيّر روايتي التي قلتها له سابقًا، حتى بدأت تتصاعد حدة الحديث وصولًا إلى التهديد والصراخ والثلاثة يضغطون من كل جانب، يمطرونني بذات الأسئلة والجو مستوعب جدًا لا مكان فيه للقلق وبعد مرور وقت منذ مناوشاتهم تلك! دخل شخص بسرعة إلى الغرفة وبصره لم يحد عني مطلقًا، وكان يكبر الثلاثة عمرًا:

- اسمي رونين مسئول تحقيقات الضفة الغربية والقدس.

ومباشرة بعد أن أنهى تعريفه السريع اقترب إلى وجهي كثيرًا:

- أين الجندي؟! هل لا زال على قيد الحياة ؟!

لم يغيّر سؤاله من قناعتي أنه اعتقال عشوائي:

- ليس لي علاقة ولا علم بهذا الموضوع

- لكن الأمور قد انكشفت ولا داعي للإنكار.

- أنت تضيع وقتك مع العنوان الخطأ.

وبعد كلماتي الأخيرة، رجع إلى الوراء قليلًا وهو يأكلني بغضب عينيه، حيث وقفتُ بين أيدي المحققين الثلاثة الذين قيدوني للخلف بالأصفاد الحديدية وأحدهما يمسك بأعلى قميصي ناحية العنق ويهزّني بصورة عنيفة جدًا جعلت رأسي يشبه خلاطة الطعام وجسدي ساحة رماية للرصاص الحي، حيث فقدت كامل توازني وأحسست أنني سأفقد حياتي اللحظة، لكنه توقف لراحة يديه فأمسكني آخر من أصفاد يديّ بعد أن رماني على الأرض وأخذ في محاولة خلع الكتفين برفع يدي بصورة عكسية ناحية الجهة الخلفية للرأس بينما الضابط الثالث يضع قدمه على رقبتي والصراخ يملأ الغرفة، ليس صراخ وجهي الذي لا يُطاق فحسب إنما صراخهم عليّ:

ـ اعترف، أين الجندي، سنقتلك الآن، أنقذ نفسك من الموت.

لم أعد أميز مصدر الضرب الذي طال أنحاء جسدي بالكامل وقد بدا أنني تحولت إلى كيس ملاكمة وكرة تتقاذفها الأرجل، حيث بدأ الألم يقترب بي إلى فقدان الوعي، لكنهم كانوا يعرفون عملهم جيدًا فيقفون عند نقطة معينة حتى جاءت اللحظة التي اقتطعوها من جهنم عندما أقعدوني على كرسي غير مسنود الظهر وأحدهم يجلس أمامي ويضع قدمه على أصفاد قدميّ وآخر يقف خلفي:

ـ أين الجندي؟! تكلّم وإلا قتلناك الآن

كنت أصرخ بوجعي نافيًا معرفتي شيئًا، فيأمرني بالرجوع بظهري إلى الخلف وكلما وصل رأسي قريبًا من الأرض، ضربني بقبضة يديه بين فخذيّ فأحاول الرجوع بسرعة فيمنعني الضابط الآخر، الذي كان يجلس بقدمه على صدري، كانوا يكررون الضرب على هذا المكان الذي لم أقاوم ألمه فأُغمي عليّ، ولما أفاقوني بسرعة، قال شيطانهم الأكبر رونين:

ـ الحكومة الإسرائيلية ورئيسها وقيادات الدولة الأمنية والعسكرية ينتظرون نتائج هذا التحقيق، فتحدث أين الجندي؟ ولا تظن بأن هويتك الزرقاء ستمنحك الحصانة، ففي هذه الغرفة كل الصلاحيات ممنوحة لانتزاع ما نريد بالطريقة التي نريد.ـ ثم أمسكني من شعري وهو يصرخ: الزمن ليس في صالحك ولا تعتقد أننا يمكن أن نصبر عليك كثيرًا فالحديث هنا يدور عن جندي في جيش الدفاع.

ثم عاد التعذيب المتواصل مدة ساعتين فقدت الوعي فيهما عدة مرات، حتى جاء محقق خامس بعد مغادرة الوحوش الثلاثة وجلس على كرسي أمامي:

ـ تستطيع الصمود تحت الضرب والتعذيب وربما ستموت في هذه الغرفة وتلحق بعبد الصمد حزيران الذي كان عنيدًا مثلك تمامًا، لكنك لن تستطيع بأي حال إنكار الإثباتات التي نملكها عنك!

كان يتحدث بشئ من الوثوق، لكن ذلك ليس من الصعوبة بمكان فهؤلاء يحترفون هذا العمل ويتقنون أدوارهم جيدًا، ورغم الألم الشديد والإرهاق، أجبته:

- لم أفعل شيئًا.

- بل كذبت، وهذا فعل يدل على أنك تملك ما نريد، إلا إذا كنت مصاباً بمرض الزهايمر، أتعرف مرض الزهايمر؟!.

- لم أشأ حينها بالاسترسال معه فنفيت: لا أعرفه.

- هو فقدان الذاكرة، وأنت تلعب علينا دور مريض الزهايمر رغم أنك كذبت في البيت وهنا، عندما أخفيت متعمدًا الأماكن البارزة التي زرتها ولا يمكنك نسيانها بالإضافة إلى أعمال أخرى قمت بها ولم تذكرها

توقف عن الحديث ثم نظر إلى تعابير وجهي الذي بدأت تظهر عليه علامات التعب، فضغطت على نفسي:

- لقد قلت كل ما عندي ولم أخفِ عنكم شيئًا.

- لا لا، لا تخطئ أيها المتحاذق، فالكذب يظهر في عينيك وأنا خبير في العيون وتحديدًا عيون المخربين، فأنت ذهبت إلى مكان بعيد لا تذهب إليه كل يوم وأخفيت ذلك عنا.

رغم ضراوة التعذيب وكلام هذا المحقق الذي كان يحاول التلميح لي دون أن يصرح، إلا أنني بقيت معتصمًا بموقفي:

ـ لا تتعب نفسك كل الأماكن التي ذهبت إليها قد ذكرتها لكم.

وفي تلك اللحظة بعد انتهاء كلماتي، دخل الوحوش الثلاثة، والمجرب بني يحمل بيده رزمة من الصور الفوتوغرافية، كان من الواضح أنه سيقدم على خطوة لم أستطع فهمها، لكنني تفاجأت طيلة الساعات القاسية التي بدأت في الواحدة ليلًا، من انتهاج أسلوب واحد في التحقيق الذي يعتبرون فيه الأسير قنبلة موقوتة ينبغي الحصول منه على اعتراف بأي ثمن لكسب الوقت.

تقدم إليّ المحقق بني طالبًا مني سحب صورة من الرزمة التي كانت بين يديه، فرفضت ذلك، سيرًا على مبدأ السلامة وعدم الدخول في ألاعيب الشاباك الخطيرة، فتعرضت للضرب مجددًا وعقلي بدأ يحلل هذا البطش المصحوب بالرغبة المحمومة لانتزاع استسلامي بهذه السرعة:

ـ لماذا تخاف من الصور ما دمت لا تعرف عنها شيئًا؟! إلا إذا كنت تخفي عنا أُمورًا نحن بحاجتها؟! لماذا لا تتكلم؟! تحدث يا باشمهندس، أليس هكذا يسمونك؟! تحدث وإلا جعلنا الدماء تتحدث عنك.

ـ دعني من ألاعيبكم، فأنا ليس لي علاقة بشئ.

ـ ممتاز، فقط اسحب صورة وسنرى بعده إن كان لك علاقة بشئ أم لا.

- وتحت ضغطهم المتكرر ولأنني لم أُعطهم ما أرادوا بسهولة، قمت بسحب صورة بعد أن فكوا قيد يديّ اللتين كانتا قد انفصلتا عن جسدي بعد تجمد الدماء فيهما، وقبل أن تمس يدي التي تحركت فيها الأصابع بصعوبة، الصورة، سألتها: صور من تكونين؟! هل تعلمين لماذا يصرّون أن يرون لحظة وقوع بصري عليكِ؟! أأنت صورة الجندي؟! لا بأس، كوني صورة الجندي وفقط، وأعدكِ أن تكوي في بيتي، حتمًا ستكونين في بيتي بعد أن يتحرر إخواني، يا إلهي! أتودين أن تفضحي أمرنا، سحبت الصورة بهدوء تام، وفي اللحظة التي وقعت عينيّ عليها ابتسمت! وأطلقت عبارتي بسرعة قبل أن يتحدث أحد:

- من أجل هذه الصورة تعذبونني؟!. لو سألتموني عنها منذ البداية لأخبرتكم. شعرت لحظتها بخطورة انهيار أحجار الدومينو، لكنني بادرتُ بهجوم ضروري عليهم وأن أتخلق برأسي قصة سريعة: لماذا لم تخبرنا أنك استأجرت هذه السيارة؟!

كانت صورة السيارة التي نفذنا فيها عملية الأسر، قنبلة انفجرت في صدري، أحدثت انهيارًا جزئيًا في جدار صمودي، وأنا أدعو الله أن يساعدني، فالموقف أصبح حرجًا:

- لم تسألوني عنها حتى أخبركم، فقد استأجرتها دون علم الشركة التي أعمل بها، حتى لا تطردني من الوظيفة لأنني كنت أنقل العمال عليها كوظيفة ثانية!.

صفق المحققون لي مستهزئين بهذه الرواية:

ـ العب غيرها، لقد انتهى أمرك، أعطنا قصة يقبلها المنطق قبل أن تفقد حياتك.

ـ الحقيقة ما أخبرتكم به

وما إن نطقت الحرف الأخير حتى انفتح جحيم العذاب أقسى من المرات السابقة وبفنون بطش لا حدود لها، حيث رفضت عرضًا آخر بسحب صورة ثانية رغم دفعهم إياي بالقوة لفعل ذلك لكنني بقيت على موقفي، أسأل الله الثبات فالحكاية بدأت تتعقد جدًا وعدوي الذي تحاربني دولته مجتمعة في هذه الغرفة فصمم على التقدم بسرعة في تحقيقه في افتراس جسدي وأنفاسي:

ـ أين ذهبت بالسيارة، هيا تكلم، ومن كان معك فيها؟!.

ـ كنت أنقل العمال...

ـ اخرس

ثم يتناوبون بالقفز على بطني وظهري، يحاولون خنقي، يرتاحوا ثوانٍ معدودة فلا أرتاح معهم والألم يبقيني تحت المقصلة والقيود تأكل من جسدي الذي تورّم ليشكل شخصًا آخر لم أكن لأعرفه لو أتاحوا لعيني رؤيته، حينها كان تفكيري الذي لا سلطان عليه يخبرني أنهم يتحدثون عن ذهابي إلى غزة، لكنني لم أخضع وبقيت جولات تعذيبهم مستمرة ومعها يكشفون دلائل جديدة:

ـ لقد ذهبت بالسيارة إلى أماكن محددة كشفتها المسافات التي قطعتها فلا تنكر

أوشك الصباح على الطلوع وهم مصممون على انتزاع الكلام من فمي، وأنا أكاد الجنون:

كيف وصلوا إلى السيارة؟!

* * * *

كانت الساعة التاسعة ليلًا من مساء الخميس، عندما جاء هاتف عاجل إلى خلية الأزمة في مقر هيئة الأركان في تل أبيب بحضور رئيس الوزراء إسحق رابين:

- سيدي! لقد أمسكنا طرف الخيط

صاح رابين طالبًا الهدوء:

- تكلم بسرعة.

- لقد وصلنا من تحقيقات غزة أن سيارة إسرائيلية عبرت القطاع يوم الاثنين وركنها صاحبها في مصاف للحافلات قرب معبر إيرز عدة ساعات قبل أن يعود مساءً لأخذها عائدًا من حيث أتى.

- وهل عرفتم صاحبها؟!

- نعم يا سيدي، كانت سيارة مستأجرة من معرض سيارات يهودي في شارع يافا والقوات تضع خطة في هذه الساعة للقبض على مستأجرها وقد حولنا السيارة إلى الفحص الجنائي.

- قامت ضجة من الفرح في القاعة والجميع سمع المكالمة التي حولها رابين على سماعة الهاتف الخارجية، حيث صرخ جدعون عزرا:

ـ لقد قلت لكم أن نفحص معارض السيارات في القدس....

قاطعه رابين: معارض السيارات في القدس الشرقية لدى العرب، وليس الغربية يا جدعون!، والآن، اذهب وخذ كل خبراء التحقيق لدينا واجعل هذا المخرب يلد الكلمات من فمه، امنح المحققين جميع الصلاحيات، المهم أن لا يموت قبل أن يتكلم، فإذا تكلم افعلوا به ما شئتم فهو رقم لا غير.

وبالفعل، كنت بين أرجل الاجتياح الذي لم يحدث في التاريخ، وقد طلع الصباح ولم أزل على قيد الحياة:

ـ لقد قطعت السيارة مسافة محددة من القدس إلى تلك المدينة، هيا انطق اسمها، قل أين نحشون فاكسمان، وكيف اختطفته؟!.

لم أعد أقاوم الألم والتعب وجولاتهم لم تتوقف منذ الليل، وتفاصيل السيارة والمسافات الدقيقة أضعفت موقفي:

ـ لقد استأجرت السيارة نزولًا عند رغبة مجموعة من المطاردين ولا أعرف ماذا فعلوا وأين ذهبوا بها.

لم يصدقوا روايتي واشتد لتعذيب بموازاة التحقيق المستمر مع أشقائي الثلاثة الذين كانوا يستخدمونهم ورقة ضغط عليّ، حيث لم أعد أحتمل التعب فأقريت بالحقيقة: لقد أسرت الجندي مع حسن النتشة وعبد الكريم بدر وصلاح جاد الله وهو موجود مع الشباب في بير نبالا.

كانت أسوأ كلمات تخرج من فمي مكرهًا، وددت لو أنني لقيت الله شهيدًا تحت تعذيبهم ولا أضطر للاعتراف بأمر سيبكينني طويلًا بعد أن كنت مع إخواني المجاهدين ننوي إيقاف بكاء الأُمهات والزوجات والأبناء وبعث الأموات من قبور أسرهم، كنت أتوق لأن أكون بلالًا في صبره فلم أستطع، فأصبحت ألتمس عُذر عمار بن ياسر ڤ.

ودون توقف لالتقاط الأنفاس والساعة الحادية عشر ظهرًا، دخلت مجموعة من الشخصيات الصهيونية الرفيعة تسأل عن أمر واحد:

- هل الجندي على قيد الحياة أم تم قتله؟!.

كانوا مستميتين لمعرفة وضعه الحالي، يسألون عن التفاصيل الصغيرة، وبسرعة البرق، تم نقلي إلى معسكر للجيش في بلدة الرام إلى القرب من بير نبالا، في الوقت الذي أحدث الاعتراف بمكان الجندي ثورة في مركز تحقيق المسكوبية والذي انتهى دوره عند هذه النقطة ليتحول إلى مركز القيادة في تل أبيب حيث حضر رابين مع كبار قادته إلى مقر هيئة الأركان العامة يتقدمهم باراك، كانت وجوه القادة توحي بالارتياح، لكن وجه رابين اشتد توترًا وهو يسأل عن أهم نقطة في اعترافي:

ـ تعرفون عملكم جيدًا لكنني أود معرفة أكثر الأمور حساسية قبل الشروع بالتنفيذ؟!.

تحدث باراك الذي شعر بأن لحظته الحقيقية قد حانت: لقد ذكر المخرب، أن المجموعة ستقوم بتصفية الجندي إذا تأخر عن موعد الذهاب إليهم وذات الأمر سيحدث إن شعروا بحركة غريبة حول المنزل.

صمت رابين كعادته قبل أن يتكلم ثم سأل ضابطًا آخر:

ـ هل حصلنا على التفاصيل الهندسية للمنزل؟!.

ـ أكيد يا سيدي، فقد زودتنا بلدية العاصمة بالتفاصيل الداخلية لغرف المنزل وجميع أركانه.

ـ باراك! لقد كنت أحد المخططين لعملية تحرير الرهائن الإسرائيليين في عنتيبي، كيف ترى إمكانية تحرير نحشون؟!.

ـ سيدي! لقد سيطرت قواتنا على الموقف في عنتيبي في غضون خمسة عشر ثانية ولن يلزمنا أكثر من نصف هذه المدة، لكنني أُفضِّل أن نتريث قليلًا فربما نستطيع الحصول عليه خارج المنزل وبذلك نضمن سلامته.

- كيف ذلك؟!.

- فلندع هذه المهمة لفريق التفاوض الذي يحاول في هذه اللحظة تحصيل ذلك من المخرب.

- وهل جهزت وحدة الأركان -متكال-؟!

- نعم يا سيدي، إضافة إلى الوحدة الخاصة في الشرطة الإسرائيلية.

- دعك من الأخيرة واذهب الآن للإشراف بنفسك على تدريب الوحدة في محاكاة لاقتحام البيت وخذ باعتبارك نوعية هؤلاء المخربين ويقظتهم.

ثم اتصل بمبعوثه يوسي: يوسي

- استمر في عملك حتى أُخبرك بالتوقف ولا تحدث أي تغيير مهما سمعت من أخبار.

بعدها اجتمع بمستشاره الإعلامي ومندوبي الشاباك:

- هل لديكم خطة تتناسب مع الموقف؟!.

- تحدثنا في ذلك يا سيدي، وسنستخدم تكتيكنا الإعلامي في اللحظة المناسبة.

- وبعد أن انصرف الجميع، طلب من باراك العودة، ثم أمسكه من قميصه العسكري:

- باراك! لا أريد تهورًا، خطط جيدًا واعمل على إحضار الجندي على قيد الحياة.

في تلك اللحظات الأكثر سخونة في الشرق الأوسط، كانت المتناقضات تتفاعل جنبًا إلى جنب: أعصاب مشدودة داخل مقابر الأحياء والكل هناك يبحث عن أمنية وجوده بين المولودين أو المبعوثين من قبور الموت، فلا أحد يحرم إنسانيته من هذا الحق الذي خلقه الله له، وأقوى الأسرى تحليلًا لا يُقَدِّم خطر الفشل على أسباب النجاح في تحقيق أهداف الصفقة، فمقومات التحليل هناك تختلط بالرغبة والأمنية والأمل، ولا حيادية مطلقًا، فسجينٌ متشائم على نفسه إن أتى برأي غير النجاح، أما محلل التفاؤل ورسم السيناريوهات الجميلة فذلك محجة الأسرى طيلة اليوم، وعلى الجانب الأجمل من الصورة، هناك حيث الحاجة فرحة وزوجها العجوز أبو عمر وإلى جانبها أم شادي وأولادها وكذا دعاء وابنتها وزوجة أحمد وابنتيهما البريئتين وجميلة الأعزب التي يحلم بها كل ليلة ولم يلتقها بعد وأيضًا زوجة «**أبو هدوان**» وذريته، هم جميعًا لوحة فرح ترتسم اللحظة في سماء فلسطين، لا غير حرية أقمارهم يسكت دمعهم، يبكون حتى في ظل فارسها، فيلتقي القسَمُ مع مناجاة «**أم حسن**» في محراب صلاح الدين في الأقصى.

أما في غزة، فبيوت الصفيح تهتز من ضراعة المظلومين طلبًا لعون السماء، وقد أخفت تحتها جناح المقاومة المفاوض والذي لن يستطيع رصد التطور الخطير قبل موعد المحادثة ليلًا، والثقة معقودة على ضمانة الأمس بأن يبقى الجندي ما بعد يوم الجمعة، وهناك في بير نبالا، حلقة الفداء الرائعة، كانت تسير الأمور

وفق إيقاع المقاتلين وقد تعاهدت قلوبهم وأرواحهم قبل أجسادهم على فداء إخوانهم حتى يأذن الله بفك قيدهم، أصابعهم لا تغادر قبضات بنادقهم ووعيدهم بالنار لمن يحول دون تحقيق هدفهم، ولم يدروا أن حملة صليبية تعتمر قلنسوات خيبر وبني النضير تتحرك الآن باتجاههم، أما أنا يا لحسرتي قبل أن يصلوا إليه فيخبر المجاهدين قبل أن يفاجئوهم، حيث كان ينتظرني قرب الشجرة في ساحات الأقصى المبارك.

وجلس زكريا تحت الشجرة في باحة المسجد الأقصى، وعيناه تحاولان اصطيادي من بين آلاف المصلين، أما عشاق الشجرة فأخذوا يتوافدون على جدتهم الحانية يتصافحون تحت ظلالها المقاومة، وزكريا يقدمهم لها: إنهم أحفادك يا سيدة الشهداء، من ستودعين اليوم؟! أشهيدٌ أم أسير؟! هاك حرمك القدسي يئن يا لحسرته ألمًا، وقبة صخرتك تستجير، فاختاري شهداءك بصمت، فالفداء لا يحب الضجيج، تسألينني عنهما؟! نعم، نعم هما على عهد الفجر، صلاة الفجر الأخيرة! وقد صافحا جسدك برفق وغادرا يطلبان حرية مسجديك والسماء، حسن وعبد الكريم، ترينهما في سجدات العابدين ودندنات الصبية يرتلون القرآن على ألحان البندقية، هما الآن يعزفان قصيدة العزة يا لفخرهما وفخر صاحبهما صلاح الدين.

وبعد أن تأخرت عليه، تحرك للبحث عني، متوجهًا إلى بيتي في بيت حنينا، مستقلًا سيارته وإلى القرب من المنزل! شعر بأمر غريب وهو يلاحظ حركة جنود الاحتلال في المنطقة وازداد ارتيابه عندما شاهدهم يحاصرون البيت فابتعد بهدوء وهو يحاول استراق النظر لفهم ما يحدث ثم توجه إلى بقالة شقيقي كخيار أخير للسؤال عني كما اتفقنا سابقًا، فوجدها مغلقة وهنا! غادر المنطقة مسرعًا بعد أن تأكد حدوث أمر خطير أدناه اعتقالي، ليبدأ صراعٌ اندلع لحظتها في رأسه: اعتقال عشوائي! نعم فالكثيرون اعتقلوا في اليومين الأخيرين ولكن! لماذا يحاصرون المنزل؟! هذه ليست طريقتهم إلا....! إلا ماذا؟! لا لا، أعوذ بالله ما هذه الأفكار السوداء، فالليلة الفائتة كنا معًا ولم يحدثني عن أي خطر علينا، لكن بقالة أخيه المفتوحة دائمًا مغلقة! أهي النهاية؟! يا إلهي! أمعقول قد انكشف أمرنا؟! ترى ما حال الشباب في بير نبالا؟ وهنا أوقف السيارة قليلًا وهو ينظر إلى الطريق المؤدية إلى بير نبالا، فاتخذ قرارًا سريعًا بسلوكها، ثم توقف مستديرًا بسيارته من حيث أتى: يا رب ماذا أفعل؟!.

- كان زكريا أمام اختبار ليس بالسهل تكاد الحيرة أن تقتله وبسرعة تحاول دفعه للجنون.

تكاد الحيرة أن تقتله وبسرعة تحاول دفعه للجنون وهو يجلس وراء مقود سيارته مندفعًا بها إلى غير هدى، لا يدري ساعتها مَن يقود مَن، لكنه كان يغرق في دوامة طاحنة يشترك فيها العقل والضمير في معركة سيتوقف على نتائجها أمر عظيم، يصرخ داخله: لن يستفيد أحد بذهابي إلى بير نبالا فربما انكشف الأمر جميعه باعتقال جهاد،

فلماذا أُعرض نفسي لخطر محقق؟ لعلهم الآن يحاصرون البيت؟!.- ثم يصرخ مرة أُخرى فأنبأ نفسه: ألهذه الدرجة أصبحت جبانًا يا زكريا؟! ماذا لو لم يكن الشباب محاصرين وليس لديهم علم باعتقال جهاد؟! أنت مسئول أمام الله عن نتائج عدم إخبارهم في الوقت المناسب؟!.

- ثم يعود مرة أُخرى إلى زكريا الآخر: يجب أن أختفي الآن، هذا هو القرار الصائب، فالمصلحة تقتضي ذلك، ولن أكون مفيدًا في السجن، سأتوارى عن الأنظار ريثما تتضح الصورة.

وبينما كان يقنع نفسه بما يرفضه ضميره، كاد أن يصدم أحد المارة في الشارع، فتوقف إلى جانب الطريق واضعًا رأسه على المقود: يا إلهي أطلبُ عونك، ماذا أفعل؟!.

- ثم غفي قليلًا ليستيقظ على مزمار شاحنة كبيرة، فنظر من حوله مستغربًا: ما الذي جاء بي إلى حي العيزرية؟!.

- وانطلق مهمومًا إلى بيته يحمل في ضميره أصعب القرارات.

في تلك اللحظات، تحول معسكر الجيش في بلدة الرام الذي نقلوني إليه، إلى مقر قيادة لإدارة العملية حيث قابلني فيه طاقم من كبار ضباط الجيش، يتوسطهم شخص يرتدي الملابس المدنية في إيحاء إلى كونه من المستوى السياسي لحكومة العدو، وكنت حينها مقيدًا داخل غرفة صغيرة تحيطني الحراسة المشددة، وأنا أرى الغضب في وجوه الجنود الذين كانوا يفترسونني بأعينهم التي كانت ترسل إليَّ غيظهم المصحوب بعجزهم عن القيام بهوايتهم ضدي! فقد أخبروهم أن يحافظوا على حياتي بكل ثمن، ليس لأني أتمتع بصفة إنسان، فسيكون ذلك شهادة براءة لإجرامهم المعتاد ضد شعبنا، إنما لهدف لا يحتاج كثيرًا من الذكاء لاكتشافه وخاصة عندما بدؤوا يفاوضونني على تسليم الجندي:

- ليس من مصلحة أحد حدوث مجزرة، لذلك سنعرض عليك أمرًا تتكفل حكومة إسرائيل بتنفيذه!.

كانوا يدرسون جيدًا ردة فعلي بعد أن علموا دوري في هذه الجزئية الحساسة وقد أخبرتهم سابقًا أن المجاهدين سيقتلون الجندي إن لم أصل إليهم في الوقت المحدد ما قبل انتهاء المهلة، وسيفعلون ذات الأمر إن شعروا بأي خطر يقترب إلى المنزل، فقد كنت أحاول جاهدًا بعد مصيبة الاعتراف أن أكسب بعضًا من الوقت فربما استطاع زكريا الوصول إليهم بعد اكتشافه أمر اعتقالي، لم أرد حينها الاستسلام بالكامل، فربما تصنع محاولتي أمرًا يحبط شيئًا من تكتيكهم، ومع ذلك كان يجب أن أستمع إلى عرضهم:

- سنجعلك تدخل إليهم حتى تقنعهم بتسليم الجندي وفي المقابل ستنتقل برفقة الثلاثة ومعكم الشيخ أحمد ياسين إلى مدينة أريحا!.

كانوا يلعبون في ميدان مكشوف، ليس في الشكل الخارجي للعرض والذي ربما يكون تسوية منطقية للمشكلة، إنما في شيطانهم الذي تتلمذ على أيديهم ويكمن في العقيدة الأساسية: تسليم الجندي!.

كانت مدينة أريحا الصغيرة الوحيدة من بين مدن الضفة الغربية التي تدخلها سلطة الحكم الذاتي بعد توقيع اتفاق أوسلو، لكنها ساقطة من الناحية الأمنية حيث يستطيع هواة من عصابات شيكاغو احتلالها في بضع دقائق فضلا عن جميع سكانها في أقل من ذلك:

- أرفض هذا العرض، لن يقبل الشباب بذلك!

- لماذا تعقَد الأمر؟! أنت المسئول عن هذا الجزء في المجموعة وهم يثقون بك، ونحن متأكدون من مقدرتك على إقناعهم إذا علموا بأن الأمر نتيجة طبيعية للمفاوضات

وقبل أن أجيب، أضاف آخر:

- وهذه النقطة بالذات سنساعدك فيها، ولا تسألنا كيف، فقط اذهب إليهم و .....

قاطعته قبل أن يكمل:

- لن أقوم بهذا الأمر.

لم أكن قادرًا على الحديث الطويل بعد الذي مررت به خلال اليوم والليلة، والاقتضاب في مثل هذه الظروف يجعلك تسيطر على نفسك أكثر، لكن كلمات اللعين الأخيرة، جعلتني أرتعب، فأن أقع في مصيدة إخراج الجندي شيء، وأن أكون جزءًا من خطتهم شيء آخر، وتحديدًا في عبارة المفاوضات التي كشفت لي شيئًا من تكتيكهم لم أستطع تحديده بالضبط، لكنه حتمًا صُنع في رأس شيطانهم.

خرجوا من الغرفة إلى غرفتهم الجانبية التي كانوا يذهبون إليها للتشاور، وبقيت وحدي بين حراسي وأسلحتهم الرشاشة، وكانت فرصة سريعة للتفكير قليلًا باقتراح هجومي ضمن محاولتي المصحوبة بالدعاء أن نكسب الوقت فيسبقهم زكريا بخطوة، لا أعرف كيف سيفعلها، لكنه ينبغي أن يفعلها، وفي تلك اللحظة، تحركت إلى اليمين قليلًا تفاديًا لألم داهمني فجأة، فلم أدرِ كيف تجمعت فوهات البنادق نحوي تطلبني للموت إن تحركت مرةً أخرى، فدخل الطاقم مجددًا داعيًا الجنود للتراجع: سنطرح عليك أمرًا لا يمكنك رفضه، أنت تقول بأن الشباب لن يستجيبوا لك! هذا جيد، لقد حللنا المشكلة

- أنا قلت بأنهم لن يقبلوا العرض و ....

قاطعني أعلاهم رتبة عسكرية :

- باختصار، سنحضر الشيخ أحمد ياسين حتى تدخلا معًا إلى البيت وتقنعا الشباب بتسليم الجندي، ثم السفر إلى أريحا.

* * * *

كانوا يسعون لتحقيق هدفهم مهما كلف ذلك من ثمن، فلا قيمة لديهم لأي اعتبار إنساني، ولا يملكون أخلاق الحروب ولا يتحلون بالشرف العسكري ولا بالمدني حتى، فكل شيء مباح في شريعة غابهم ولم يخطيء من أسماهم شذَاذ أفاقون، عندها رفضت بشدة:

- كيف تريدون من شيخ قعيد صعود الدرج ؟! هذا مرفوض ولن يحدث.

- لماذا لا تفكر باقتراحاتنا ؟! اهدأ وأدر الموضوع في رأسك، فربما عندما يرون شيخكم أحمد ياسين، سيعلمون بأن الموضوع جدي

عندها شعرت بأنني أن أهاجمهم باقتراحي:

- عندي اقتراح

نظروا إلى بعضهم البعض، فكان مفهومًا لديهم بأنني نقطة الضعف التي ينبغي أن تستسلم لتكتيكاتهم في النهاية، حيث سمحوا لي بتقديم ما لدي:

- تحضرون مروحية هيلكوبتر وبداخلها طيار واحد بعد أن تحضروا الشيخ أحمد ياسين وصلاح شحادة، حيث تخرج المجموعة بأسلحتها مع الجندي وننتقل إلى جنوب لبنان جوًا، وهناك نتعهد بتسليم الجندي عندما نكون في أمان.

* * * *

دب الهدوء في الغرفة وعيونهم تشترك مع الحراس بشهوة افتراسي، لكنهم يلعبون دورًا لا يستقيم معه سوى طريقة المفاوضين الهادئة، فطلبوا فسحة للتفكير في غرفتهم المجاورة والتي لم تكن تُغلق وقت مشاوراتهم، حيث دب الخلاف فيما بينهم، فسمعته أو للدقة أسمعوني إياه: - ماذا تريدون؟! نكون في جندي واحد ونصبح في جندي وطيار؟! ما الضمانات التي ستكفل تنفيذ وعدهم؟! هذا مستحيل، ستسقط الحكومة إن فعلنا ذلك.

ثم عادوا يرفضون ذلك بشدة، يطرحون موضوع أريحا بالسيناريو الذي وضعوه وبيت قصيدة إخراج الجندي حيًا.

أما المظاهرة الحقيقية! فكانت في مقر هيئة الأركان حيث يترأس رابين إسحق اجتماعًا مركزيًا لقادة أجهزة الأمن المختلفة وأعضاء حكومته المصغرة، وإلى جانبه يجلس رئيس هيئة الأركان باراك، ولم يتلاشى التوتر الذي كان يلازمه طيلة الأيام السابقة عن وجهه بعد، بل ازداد لدى معرفة مكان احتجاز الجندي وازدادت معه مكاسب شركات الدخان وأطباء الأعصاب، وفي قمة اجتماعهم المنعقد منذ اللحظات الأولى لانتزاع الاعتراف مني، أمسك رابين سماعة الهاتف وحادث موفده إلى حاجز ايريز في غزة:

- اسمع يوسي، استمر في عملك ولا تتوقف مهما كانت الظروف حتى أخبرك شخصيًا بذلك، ستسمع أشياء في الأخبار لا تلتفت لها، المهم واصل عملك.

ثم أغلق الهاتف وباراك يحاول الحديث: ولكن يا سيدي هم الآن بين أيدينا فلماذا ....!.

أسكته رابين:

- الجندي ليس بأيدينا، ومادام الأمر عند هذه الحدود فيجب أن تبقي كافة الخطوط مفتوحة، المهم الآن، كيف تجري الأمور مع كوماندو هيئة الأركان؟

انتعش باراك وهو يستعد للإجابة وأنظار رئيس الشاباك تحاول افتراسه بعد أن وصله حديثه السابق ضد عناصر المخابرات:

- القوة جاهزة بمعسكرنا في الرام وبدأت تتلقى التقارير الأولية عن المنزل، وعندما تكتمل المعلومات لدينا ستقوم الوحدة بإجراء تدريب سريع يحاكي عملية اقتحام المنزل وتحرير الجندي

- سأله رابين : وهل تعرف أين الجندي بالضبط ؟

- في المنزل يا سيدي.

- هزَ رابين رأسه: هذا ليس جوابًا لشخص شارك في التخطيط لعملية تحرير الرهائن الإسرائيليين في عنتيبي.

- يا سيدي الاعتراف من المخرب يقول إنه في .....

قاطعه رابين بحدَّه كف هذا الكلام قبل أكثر من أربعين ساعة، ربما الجندي ليس على قيد الحياة!.

وهنا تدخل رئيس الشاباك بصورة مهينة:

- يا سيدي! لقد حصلنا قبل قليل من بلدية القدس على تفصيل داخلي دقيق للبيت، وهو الآن في يد كوماندو هيئة الأركان ورجالنا على الأرض يحاولون جمع كافة المعلومات الممكنة بكافة الوسائل ريثما يدخل الليل حتى نستطيع التحرك بحرية أكبر دون أن يشك بنا العدو كما أننا أحضرنا صلاح شحادة من سجنه ووضعناه في زنازين المسكوبية كما أمرت يا سيدي.

كان الجميع يعرف أن عملية الاقتحام حاصلة لا محالة، لكن إسحق رابين كانت تطارده الشكوك:

- هذا ليس كافٍ، أريد معلومات أكثر دقة حتى أعتمد عليها في قراري، هيا تحركوا مع رجالكم وإمكانياتكم، وأنت باراك، اذهب بنفسك للإشراف على الوحدة.

وأثناء خروجه من الباب، استدعاه رابين مرة أخرى ثم اقترب إلى وجهه:

- أريدك أن تأتيني بالجندي حيًا، أفهمت ذلك؟! حيًا، فقط عندما أعطيك الأوامر.

أومأ باراك برأسه:

- حاضر سيدي ولك ما أردت.

ثم اندفع كرشه أمامه وهو ينطلق إلى القدس، لكن رابين ورئيس الشاباك كانا ينتظران أمرًا على شاشة التلفاز، تمامًا كما كان يفعل الأسرى في كافة مقابرهم، يجتمعون أمام أجهزة التلفاز يسبق شغفهم سؤال عن فحوى الخبر الذي ستذيعه قناة العدو باللغة العربية، حيث وقف الحاج أبو هدوان يضع كلتا يديه خلف ظهره وعيناه تريدان لو تدخلا إلى قلب الشاشة وتكشفا هذا الخبر المهم، والمهم في قاموس الأسرى مفردة عريضة جدًا تتكون من أربعة أحرف -حرية-: - يا جماعة، ماذا تظنون الخبر؟! هل وافقوا على مطالب الشباب؟

فأجابه أصغر الأسرى عمرًا وكانوا يسممونه شبل الغرفة:

- ربما سيعلنون بدء المفاوضات.

ضحك أبو هدوان: يا شاطر، المهلة ستنتهي هذه الليلة ويجب أن تستجيبوا وإلا ...

ثم سكت الحاج، لا يريد أن يتلفظ بالكلمة فالجندي الميت لا يساوي شيئًا مقابل الجندي الحي، فتدخل نائل وهو يبتسم:

- لماذا لم تكمل يا حاج؟!

نظر إليه الحاج أبو هدوان:

- أرجوكم أن تتركوني الآن، يا «**أبو شادي**»، أسكت هؤلاء الشباب فأعصابي لم تعد تحتمل، ثم تريدون إقناعي أنكم لستم على أعصابكم مثلي؟!خذوها مني، لن أصعد معكم في ذات الحافلة.

قالها أبو هدوان وهو يضحك، فرد عليه أبو شادي:

- يا حاج، لتأتِ الحرية ولك علي أن أذهب إلى بيتي مشيًا على الأقدام، أما نائل فسيركب الجمل.

كانوا يحاولون التغلب على توترهم بهذا المزاح الذي ينطق عما يعتمل بدواخلهم، وفي تلك اللحظات كان شبل الغرفة الذي انتصف العشرين من العمر يقدم لهم وجبة من سحلب السجن والمسمى باللغة العبرية -الديسة- هكذا يشتهر لدى سكان المقابر ويختلف عن سحلبنا اختلاف السماء عن الأرض ومع ذلك يشربه الأسير ساخنًا ويأكله باردًا بعد تحوله إلى شيء يؤكل، والمشهد كان يتكلم عن نفسه، فالذين شربوا الديسة لم يشعروا بها والباقون ظنوا أنهم شربوها وهي لا زالت بأيديهم، والجميع يتبادل النظرات المترقبة والتحليلات السريعة، يعني سندوتشات تحليلية حتى المهووسين بالأخبار وهذه التسمية شائعة في الأسر كانوا يتنقلون على الأبواب لتبادل تكهناتهم عن الصفقة، يرتفعون بأسقف آمالهم حدود الثقة المطلقة وفي دواخلهم صراع إنساني: هل أنا موجود بين الأسماء؟! هل لازالوا يعرفونني؟! وما أدراني، لعلهم أسقطوا اسمي عن غير قصد؟! أو ربما وضعوني لكن الاحتلال يرفض إطلاق سراحي والشباب لن يوقفوا صفقة من أجلي ولكن! سيحكمون علي بالموت ، فآخر تبادل كان عام **1985** أي ما قبل عشر سنوات، فهل سأنتظر عشر سنوات أخرى؟!، كل الأسرى في تلك اللحظة كانوا يتحللون من اتزانهم الداخلي الذي أبدوه أمام أنفسهم طيلة الأيام السابقة، حيث بدأت دقات القلب تتسارع والألسن تردد الرجاء الأخير من الله تطلب الحرية،

فلا ثمن يعد لها مطلقًا، صحيح أن شيئًا لم يحدث في الإعلام يؤكد تنفيذ الصفقة هذا اليوم حيث لا مقدمات لذلك، سوى المهلة الأخيرة التي أعلنها المجاهدون وتحليلات الأسرى، إلا أن تلميح قناة العدو باللغة العربية إلى ترقب الخبر الهام بشأن الصفقة فتح شهية سكان القبور ولم يدع مجالًا للشك بأن خبرًا سارًا سيذاع، وبينما الجميع مشغول بالتحليل والترقب بدأ المذيع بالحديث:

- أفادت إدارة مصلحة السجون الإسرائيلية....

وهنا انتفض الحاج أبو هدوان يردد على مسمع الشباب كلمة: يا رب يا رب ثم أنصت مجددًا: أن الحافلات تقوم في هذه الساعة بنقل الأسرى الفلسطينيين المفرج عنهم ضمن صفقة التبادل مع الجندي نحشون فاكسمان إلى قطاع غزة!، في هذه اللحظة بالضبط أسقط الحاج كأس الديسة من يده دون شعور وهو ينظر في عيون نائل وأبو شادي وسكان الغرفة دون أن يتكلم حرفًا واحدًا، يريد تفسيرًا لما يحدث فكسر شبل الغرفة صمت الغرفة هذا وهو يصرخ محتجًّا: - كيف تقبلون أن تجري الصفقة دون وجود أسرى سجن جنيد فيها؟! على الأقل أصحاب المؤبدات والقدماء و...

فأسكته أسير كان وجهُهُ يلطم وجهَه، ولا أحد يريد أن يحلل هذا الخبر الصاعقة، لكن أبو هدوان الذي جلس على الكرسي كان يرجو الله:

- أقسم عليك يا الله أن تجعلني نائمًا ولا أسمع هذا الخبر.

ثم وقف يريد أن يطمئنه أحد من أباطرة التحليل، لكنه نسي للحظة أنهم أيضًا من أهل القبور: - يا جماعة! هل فهم أحدكم شيئًا؟ قولوا أي شيء.

فتقدم شابٌ تغير لون وجهه بعد الخبر:

- يا حاج، ربما عرض المحتل على المجاهدين إطلاق سراح جميع أسرى قطاع غزة مقابل الجندي فوافقوا، أليس الجنديُ موجودًا هناك؟! وقد يكون من بينهم بعض أسرى الضفة الغربية من السجون الأخرى.

لم يجب الحاج الذي لم يعجبه هذا المنطق، فتطوع أسير من مدينة نابلس كانوا يعتبرونه واحدًا من أفضل المنظرين:

- لا أحسبُ أن المفاوضين من أهل المقاومة سيخضعون لهذه المساومة، وإلا أوقعوا أنفسهم في سبة تاريخية ستلاحقهم طويلًا.

فاحتج الشاب قليلًا رغم الألم الذي يبدو في كلامه:

- لماذا لا نعتبر ذلك نصرًا لتسجيله أول سابقة في الأرض المحتلة ستفتح الطريق لعمليات تبادل قادمة؟!

المشكلة في مسألة السابقة التي حدثت على هذا النحو الذي تطرح فإنها ستكرس مبادئ خطيرة كاستثناء أسرى الأرض المحتلة عام **48** وأسرى القدس وعمادهم هؤلاء المقاتلين الذين تحملوا مهمة أسر الجنود، فأي التزام أخلاقي هذا تجاههم، وكأنك تقول لهم بأنكم أخطأتم بانتمائكم لشعبكم ولقضيتكم، ثم أنت بذلك تنسق ما حققته صفقة التبادل عام **85** والتي أطلقت سراحهم، هل تريد المزيد؟!

كان الشاب يستمع باهتمام والغرفة تغرق بالقلق: لكنها البداية.

ـ أتعرف؟! المشكلة أن الفرص التاريخية يندر حدوثها وتحديدًا مسألتنا. كنت سأتفق معك لو كانت قضية تحريرنا ثقاة لدى كافة فصائل المقاومة لكنك تعرف أنها ليست كذلك، أنت قل لي الآن، إذا حدثت هذه الصفقة على النحو الذي تطرح وقد خلت من أسماء من فجروا العمل الاستشهادي مع المهندس وقد بدؤوا يهلون علينا وبعضهم يحمل عشرات المؤبدات، فمتى سيطلق سراحهم ؟!

ـ أعلم، أعلم ذلك لكنني لا أستطيع تفسير ما يحدث الآن على نحوٍ آخر.

ـ دعونا ندعو الله أن يتمم الأمر على خير فنحن لا نملك إلا الدعاء، وربما غدًا سيحمل لنا جميع التفسيرات.

لكن الحاج أبو هدوان وأبو شادي ونائل كانوا يستشعرون ذات الخوف الذي حدث عام **85** مع اختلاف الظروف واتفاق النتيجة في بقائهم داخل القبور.

كانت جمع السجون تشهد ذات النقاش وذات القلق والخوف، لكن النقيض كان يحدث هناك في القدس عندما جلست دعاء تحتضن ابنتها وهما تستعدان لسماع الخبر بعد أن تقاطرت الهواتف على البيت بوجود أمر يتعلق بحرية زوجها فاستنفرت جميع حواسها وذكرياتها وجسدها الذي عاد كما كان قبل **20** عامًا وقد أقسمت أن يقتص من الحرمان الذي تكدس ساعةً بعد ساعة ويومًا بعد يوم حتى كاد أن يفتك بعمرها لولا فسحة الأمل، كانت تلتصق بابنتها وكلاهما تسمعان دقات قلبيهما، والشاب الجديد الذي حل زوجًا وأبًا لابنتها، كان يبكي جانبًا دون أن تلحظاه، فقد كان أسيرًا لفترة وجيزة خبر فيها دموع والدته وحزن أبيه، حيث ارتسمت حكاية رائعة من الحق الإنساني الذي تستحقه هاتان المظلومتان، وفي اللحظة التي قرأ فيها المذيع الخبر، قفزت دعاء وابنتها تصرخان فرحًا دون كلام موزون، فلا مكان للاتزان هنا، فالجنون سيد الموقف ما دام جنون الظلم قد دام عشرين سنة من القحط الإنساني، فلا أقل من أن يثور جنون السعادة، نعم جنون المظلومين جميلٌ جميل إلى الحد الذي تعشق لحظتها أن تكون واحدًا من المجانين.

أما الحاجَة فرحة وزوجها أبو عمر وأم شادي وأولادها، فمشتقة فرحتهم من جنون دعاء وابنتها، لكن أبا عمر أضاف للمشهد رائعة ريفية عندما أصر على شراء الخيل وربطه أمام المنزل حيث يبرَ بقسمه لولده نائل: ستدخل البيت يا ولدي والخيل مربوط على بابه «**فالخيل معقود بنواصيه الخير إلى يوم القيامة**» هكذا قال نبينا ﷺ وحتى تعود إلى ما تحب.

لكن بيتًا وحيدًا في بير نبالا هو الأهم في الشرق الأوسط، كان يقرأ الخبر بطريقته الخاصة وهو المستهدف الوحيد من هذا التكنيك الشيطاني، وقد بدأ الأمر وعبد الكريم يخبر الجندي بعشاء اليوم بعد أن طلب حسن أن يخلفه في الحراسة قليلًا ريثما يقضي حاجته، لأن صلاح كان يتابع أبواب البيت، حيث كان عبد الكريم يحمل ملعقته بيده:

- ستأكل اليوم طبخة، ستذكرها طول عمرك إن منحك رئيس وزرائك الحياة! أتعرف ما اسمها؟! اسمها المقلوبة، لا تتعب نفسك بالبحث عنها في قاموس العم سام فلن تجدها، ولكن إن كان رئيس وزرائك يضع وزنًا لحياتك، إياك أن تكذب وتقول بأن المقلوبة إسرائيلية كما فعلتم مع الفلافل والحمص والتبولة اللبنانية و ...!

قاطعه حسن وهو ينادي عليه وعلى صلاح :

- أقبلا إلى هنا، يوجد خبر هام، أهم من تنظيرك للمقلوبة.

- تجمع الثلاثة يستمعون للمذيع الذي تلا الخبر، فنظروا إلي وجوه بعضهم البعض باستخفاف لما ألقي على مسمعهم، فكان صلاح أول المعلقين:

- ماذا يهذي هذا الأحمق؟

- فرد حسن وهو يفكر: ربما ليس أحمقًا.

- ماذا تقصد ؟!

ـ لستُ أدري بالضبط، لكن الأمر يدعو للاستغراب، كيف يطلقون سراح أسرى دون استلام الجندي؟! ثم كيف تجري مفاوضات وتنتهي دون معرفتنا؟!

وهنا تدخل عبد الكريم: ألا تلاحظن أن أيًّا من زكريا وجهاد لم يأتِ إلينا منذ الأمس!

فأجاب صلاح:

ـ أبو عمر لم يأتِ منذ أول الأمس، ولكن ربما أشغلهُ طارئ، لندعُ الله أن يأتينا أحدهما على الأقل.

بقي حسن على حاله ممعنًا بالتفكير، فسأله صلاح: ما بك يا رجل؟!

ـ قلت لك لا أدري، إنما في كل الأحوال وأسوءها ماذا سيحصل!

ـ أيضًا مثلك لا أدري إنما الجندي في أيدينا وهو مفتاح الأمر وهذا يكفي في هذه المرحلة.

ـ ابتسم حسن: أصبحنا الآن ندري.

وفي هذه اللحظة بالذات وقد تساوى القلق مع الارتياح لدى المقاتلين الذين كانوا يقومون بمهمة الحفاظ على الجندي على أفضل صورة، كان عبد الكريم قد ركض باتجاه المطبخ لفحص المقلوبة الذي اشترك في صناعتها الثلاثة حيث قام صلاح بقلي الباذنجان وحسن بتقطيع اللحم وتنظيفه أما اللمسات الفنية فكانت لعبد الكريم، حيث نادى على حسن: حسونة، يا حسن..

فجاء حسن فورًا إلى المطبخ:

- يا رجل! ألم نتفق أن لا نتنادى بأسمائنا حتى لا يسمع الجندي!

ضرب عبد الكريم على رأسه: لقد نسيت يا أحلى حسونة، والآن ذق مقلوبة أخيك التي شاركتما فيه بصورة شرفية.

اقترب حسن قليلًا إلى عبد الكريم مخفضًا صوته حتى لا يسمع صلاح:

- قبل ذلك، أخبرني؟! هل وضعت فيها الفلفل الحار كما طلب صلاح؟! لأنني حينئذٍ سآكلها رغمًا عني.

ضحك عبد الكريم بأعلى صوته وهو ينادي: صلاح، يا صلاح

فوضع حسن يده على فم عبد الكريم: أستحلفك بالله أن تصمت ولا تحرجني.

لكن صلاح جاء مسرعًا، فخرج حسن:

- خيرٌ إن شاء الله، هل انتهت مقلوبتك المحترمة؟

- طبعًا، ولكن اطلب من الله أن يبعث لنا بأحد الأخوين حتى يشاركنا بأول مقلوبة في بير نبالا.

-

- إن شاء الله.

ثم اقترب ناحية عبد الكريم: مقلوبة غزاوية أم ضفاوية؟!

- فازداد عبد الكريم ضحكًا: لا هذه ولا تلك، يبدو أنك نسيت وجود أسير لدينا ربما لا يأكل الفلفل.

- على العكس! يجب أن نكثر من وضع الفلفل الغزاوي حتى يتأكد أنه في غزة.

لحظتها لم يقوى عبد الكريم على الوقوف من الضحك وهو يضع يديه على خصره وينثني إلى الأمام، ثم طلب منه نقل الصحون والملاعق إلى الصالة استعدادًا للإجهاز على مقلوبة بير نبالا.

* * * *

وفي بيت يلتصق بجدار الأقصى، كان ينتفض الضمير المقاوم في صدر زكريا وهو يرى ثلاثتهم في عيون أطفاله، في براءتهم الجميلة وابتساماتهم الملائكية، ترقبه ابنته الكبرى، تقرأ حيرته الغريبة فتتقدم إليه، تطلب عطف كلماته:

- هل أحضر لك شيئًا يا أبي؟!

فينهض على قدميه ويقبلها على رأسها:

- أريدك أن تنتبهي لنفسكِ يا حبيبتي.

ثم خرج بسرعة تتبعه نظرات زوجته الخائفة وهي ترتل في صدرها سورة ياسين وقد قالت له بعد اعتقاله الثاني منتصف الثمانينات:

- يا زكريا أنت لستَ لي ولأطفالك.

فأجابها وهو يضحك: صدقتِ يا امرأة!

فوكزته على كتفه:

- على الأقل، قل لي كلمة مجاملة.

فأمسكها من يدها والليل يحتضن سماء القدس وصعد بها إلى ظهر المنزل وأشار لها نحو قبة الصخرة:

ـ أنا ملكٌ لصاحب تلك وفداءٌ للأقصى فبدون ذلك لن أستطيع حمايتك والأطفال.

أسرع زكريا إلى سيارته، وجهته بير نبالا مهما كلف ذلك من ثمن: فأن أعيش أبد الدهر في الأسر أو شهيدًا تحت التراب، خيرٌ من أن أحمل عنقي ذنبًا سيفتك بي حتمًا إن لم أصل المجاهدين في الحال.

كان الليل قد بدأ في سماء القدس، وزكريا يمضي بسيارته دون تردد، لسانه يلهج بالدعاء أن يحفظ اللهُ الشباب حتى يصلهم، وفي الطريق الذي يعبر من بلدة بيت حنينا إلى شمال القدس، حدث أمرٌ غريب لا ينسجم مع حالة التوتر والخوف وكل مركبات الخطورة عندما توقف زكريا بسيارته أمام أشهر بائع للكنافة النابلسية في القدس، وابتاع للمقاتلين الكنافة ومضى إليهم، لحظتها، لم يكن زكريا قد خطط لذلك، كالكثير من الأمور لا يمكن فهمها في الزمان الذي تقع فيه.

دخل زكريا بير نبالا، ولم يلحظ حركة مشبوهة للعدو قد تشي بشئ قد حدث ومع ذلك ظل الحذر سيد الموقف، حيث أوقف سيارته بعيدًا عن ذلك المنزل وتقدم مشيًا على الأقدام من ناحية السور الجانبي للساحة، وبعد أن تأكد من عدم وجود أحد في المكان، قفز على السور وتوجه بسرعة إلى باب المنزل الداخلي حيث قصد تجاوز البوابة الخارجية عملًا بمبدأ الحيطة والحذر، وبذات السرعة فتح باب المنزل بعد أن أعطى الإشارة المتفق عليها وهو يصعد الدرجة رغم أنه لا يسمع أي حركة في الداخل، وأمام الباب الداخلي وقف يعطي الإشارة الثانية ثم تكلم:

- السلام عليكم، أنا أبو عبد الله.

فانفتح الباب والثلاثة بنادق مصوبة نحوه، حيث استقبله حسن:

- وعليك السلام يا أحلى معلم في القدس، حماتك ونحن نُحبك، اجلس على أروع مقلوبة.

لكن عبد الكريم كان ينظر إلى الكنافة:

- يا أحلى أبو عبد الله! من أخبرك أنني اتخذت قرارًا أن لا أستشهد اليوم قبل أن آكل الكنافة؟!

ابتسم زكريا الذي حاصرته فرحة إخوانه بزيارته، حيث استطرد عبد الكريم:

- أكيد أنه أبو النور.

لم يشأ زكريا إخبارهم بما حدث فانتظر قليلًا وهو ينظر إلى الجندي فقال صلاح:

- لا تخف هو بخير وقد أكل المقلوبة قبل أن نذقها، والآن ابدأ بسم الله.

- اعذروني لن أستطيع الأكل.

- إذًا لن نأكل بدونك، فنحن ننتظر قدومك أو قدوم «**أبو عمر**» ليشاركنا أحدكما بالطعام.

كان وجه زكريا يحكي الكثير، فسأله صلاح:

- هل هناك شئ يا أبا عبد الله؟!

- يا إخوان نحن في خطر، وأغلب الظن أننا قد كُشفنا.

فاستغرب حسن: ما الذي يدفعك لقول ذلك؟!

- لقد اعتقلوا «**أبو عمر**»!

فتبادل الثلاثة النظرات وجملةً رددوها معًا: لا حول ولا قوّة إلا بالله.

ثم امتدت يد عبد الكريم إلى كتف زكريا:

- يا «**أبو عبد الله**» هذا قدرنا، فهل نستطيع تغيير القدر؟!

أما حسن فكان له قولته الخاصة: لقد ولدت شهيدًا، وظلت الشهادة تجانبني حتى اليوم، وهذا الجبين يشهد على ذلك، فلماذا الحزن؟! بل أزداد شرفًا أن تأتيني الشهادة مع أعظم فارسين من أبطال فلسطين.

قالها وهو يضع كلتي يديه عليهما وعيناه تصافح عيونهما.

وهنا أصرَّ عبد الكريم:

- ستأكل معنا بسرعة، إلا إذا كنت ترفض أن تأكل مقلوبة أهل الجنة؟!

دمعت عينا زكريا وهو يتناول الملعقة رغمًا عنه وبعد الانتهاء، طرح عليهم فكرة:

- ما رأيكم أن ننتقل مع الجندي إلى مكان آخر؟!

فكان إجماع الشباب بالرفض، مجيبًا صلاح:

- ها، لن يفيد فنحن لا نعرف شيئًا خارج هذا البيت ولا نريد أن تحدث مفاجآت.

- لكنني لم ألحظ أي شئ مشبوه خارج المنزل

- حتى لو كان ذلك صحيحًا، فنحن سنبقى هنا.

- إذن.. سأبقى معكم.

- فأجابه حسن: لا يا «**أبو عبد الله**»، مكانك ليس هنا.

- أستحلفكم بالله أن تبقوني عندكم.

- بل نحن نستحلفك بالله أن تغادر وتدعو لنا بالثبات.

فبكى زكريا وهو يعانقهم ويدعو لهم طالبًا أن يسامحوه، ثم أسرع بالمغادرة دون أن ينظر إلى الوراء، في أصعب لحظات يمكن أن تمر على شخص يودع أحبابه وهو يعلم أنه لن يشاهدهم بعد اليوم، وفي اللحظة التي استقل فيها سيارته وسار باتجاه القدس، لاحظت سيارة تجارية تتابعه، ولا تسمح له بالابتعاد عنها، فأيقن أنه مراقب فاستعد لمحاولة التغلب على المراقبة، لكن وصوله إلى حاجز الضاحية قرب الرام قلل من فرصه، ففي اللحظة التي كان يعبر فيها الحاجز أوقفه الجنود روتينيًا، غير أن أبوب السيارة التجارية كانت تنفتح بسرعة خيالية وينزل منها رجال القوات المسلحة للعدو ويختطفوا زكريا من داخل سيارته دون أن يستطيع فعل شئ، حيث أصبح في ثوانٍ معدودة مقيد اليدين والقدمين ومعصوب العينين ملقى تحت أقدامهم في السيارة التي وصلت خلال دقيقتين إلى مقر القيادة في معسكر الرام، وبدون مقدمات، تمامًا كما فاجأهم زكريا بقدومه إلى المنزل دون مقدمات أو معرفة مسبقة، بدأ السؤال الواضح قبل ساعتين من انتهاء المهلة:

- هل الجندي على قيد الحياة؟

صرخ زكريا الملقى على أرض لغرفة تحت الأقدام الكثيرة التي تنتعل البساطير:

- لا أعرف عن ماذا تتحدثون.

- للمرة الأخيرة هل نحشون فاكسمان على قيد الحياة؟ ولا داعِ للكذب.

ولما تلفظ زكريا بكلمة لا، لم يدعوه يكمل، حتى وزعوا جسده على مجموعة ضباط، أحدهم جلس بركبته على رقبة زكريا يحاول خنقه، وآخران قاما بملخ قدميه حيث رابعٌ بالضغط بحذائه العسكري بين فخذيه وكأنه يطفئ سيجارة والجميع يصرخ مع صراخ زكريا:

- تكلم، هل نحشون على قيد الحياة؟

وبعد فترة من التعذيب أمرهم كبير الشياطين بالتوقف قليلًا وزكريا يئن من الألم:

- اسمع، لقد رأيناك وأنت تدخل البيت من السور وبيدك كيس صغير ونحن نعلم أن حسن وعبد الكريم وصلاح جاد الله مع الجندي في الداخل، فأرِح نفسك ولا تعمل فيها بطلًا وأجب على السؤال، هل أصاب الجندي أي مكروه؟

- لا أعرف شيئًا، لقد ذهبت إلى منزل ابن شقيقتي زياد ولم أرَ شيئًا.

- أحسنت، نصف بداية جيدة، لكن تعرف أيضًا أن زياد وزوجته في الأردن، أليس كذلك؟

- نعم وأنا...

أسكتته قبضة يد الضابط وهي تهوي على عضوه التناسلي الذي تورم من ضربات وضغط الأحذية، فصرخ زكريا، لكن الغضب انهال مجددًا على جسده، وهو يدرك أن الحكاية أصبحت مكشوفة لكنَّ دافعًا داخليًا كان يطلب منه الثبات وتأخير الاعتراف:

- ارحم نفسك أيها المعتوه، فأنت لا تعنينا بشئ، وصلاحياتنا اليوم مطلقة لا حدود لها وقتلك قاب قوسين أو أدنى إن بقيت على عنادك، فتحدث بسرعة.

لم يتجاوب زكريا فزاد التعذيب حتى شعر بأنه لا يستطيع الاحتمال في ظل الأدلة الدافعة:

- نعم، نعم، إنه على قيد الحياة.

- تنفّس رابين الصعداء وهو يسمع التحقيق من مقر هيئة الأركان في تل أبيب، لكن ذلك لا يكفي حيث سألته مردة الشياطين:

- وفي أي غرفة موجود؟

وهنا حاول زكريا المناورة:

- لن أتكلم إلا بوجود السفيرين الألماني والأمريكي والصليب الأحمر.

فأجابه كبير الضباط: لك ذلك، ولكن أتعرف لماذا سنحضرهم؟!

لم يجب زكريا الذي يدرك أنه الأخير في هذا العالم الذي يُسمح له بوضع الشروط:

- كي يحضروا جنازتك.

ثم انهالوا عليه بأقصى أنواع التعذيب وأشرسها على الإطلاق حتى حدثهم بما يريدون.

- والآن!! كانت قاعة هيئة الأركان التي تحولت إلى مقرة الدولة، تشهد أزمة حقيقية مركزها رأس إسحق رابين الذي يملك جميع الشروط التي تدفعه لإعطاء الأمر بالتنفيذ ولا يملك الشجاعة النفسية لتحمل أي نتيجة غير إنقاذ نحشون فاكسمان، حيث كانت عيون كبار وزرائه في الحكومة المصغّرة وقادرة أجهزته الأمنية يتقدمهم مسئول جهاز المخابرات الداخلية -الشاباك- ترقب الكلمة البروتوكولية التي ينبغي أن تخرج من فمه إيذانًا ببدء الهجوم، لكنه كان في وضع نادر الحدوث له في مثل هذه القرارات المتعلقة بالناحية الأمنية والعسكرية، يقتله شريط طويل لا ينتهي من الصراع مع أجيال فلسطينية: لا تسكت، لا تخرس، لا تستسلم!!.- كان يصرخ في رأسه وهو يطرف بأصابع يده اليمنى على الطاولة واليسرى تلعب بجبينه الذي يتصبب عرقًا:

- ماذا يريدون؟! لقد أحرقتُ وقتلتُ وتعفن كثيرهم في السجون، ماذا يريدون مني؟! لم يفت في عضدهم الإبعاد فذهبت إلى التكتيك التاريخي بأوسلو حتى تخرس انتفاضتهم التي تحولت إلى....

سكت صداع رابين قليلًا وهو ينقر في رأسه كطائر النُقّار الذي يحفر بيته في أخشاب الأشجار:

ـ آه، لم تكد تسكت وحوش الانتقاد الداخلي بعد القضاء على عماد عقل حتى خرج لي المهندس! نعم! يجب أن أذكر أعدائي الجُدد، حتى أكرههم أكثر، المهندس ماذا تريد مني؟ لا أستطيع النوم، بيسان، العفوله، الخضيره، نسيم طوليدانو، نحشون فاكسمان.... ثم صرخ بأعلى صوته وهو يضربُ على الطاولة لترتج الغرفة بمن فيها: لا، لن أسمح بذلك. ثم أمسك بسماعة الهاتف: باراك! نفذ الاقتحام.

حينها كان أحدُ مستشاريه الاستراتيجيين يخاطب نفسه: أيها الغبي، سيتخلى عنك الجميع إن فشلت العلمية وأولهم أنا، سيلغيك الإعلام وستشيعك المعارضة حيًا.

وفي مقر قيادة العملية في الرام، وقف باراك بعنجهيته المعتادة أمام أرفع نخبة من ضباط كوماندو هيئة الأركان وقد لوّنوا وجههم واستعدوا بأحدث الأسلحة والتقنيات المتطورة: - ستقومون الآن بما اعتدتم القيام به والفرق في هذه المرة، أن العدو عنا في أرض تحت سيطرتنا لذلك! كل الظروف تقف إلى جانبكم.

توقف باراك قليلًا وهو ينظر في وجوههم:

ـ أريدكم أن تحضروا لي جماجم المخربين الثلاثة بعد إنقاذ الجندي.

وهنا تحدث قائد وحدة الاقتحام ويدعى عوفر الذي كان يحمل رتبة عسكرية رفيعة المستوى كبقية أفراد وحدة «**متكال**» وجميع أسماء الوحدة مستعارة:

ـ لا تقلق يا سيدي، سنسكر الليلة بجماجمهم وبحضور نحشون فاكسمان

ضحك الجميع، وبينما كان باراك يصافحهم جميعًا لفت انتباهه أحدهم:

- هل تود قول شئ قبل الانطلاق؟

ابتسم الضابط الذي ارتسمت على وجهه علامات القسوة:

- لقد قتلت الكثير من المخربين وهم نيام أو يسيرون في الشارع وحتى في سياراتهم، فكم أتمنى أن أراهم الليلة يركعون أمامي يطلبون الحياة فلا أعطيهم!

ضحك باراك بأعلى صوته:

- الآن أُعطي الأمر بالتحرك وأنا مطمئن.

وبينما كان يهم للتحرك عاد للضابط مجددًا:

- إذا أُتيحت لك الفرصة لا تدعهم ينعمون بالمثول أمام قدميك بل اقتلع عيونهم برصاصك.

تحركت القوة في سيارتين تجاريتين باتجاه بلدة بير نبالا، تحميهم مجموعات من الشاباك كانت منتشرة في كل مكان، يحث استمر عوفر في توجيه عناصر الاقتحام حتى داخل السيارتين بعد أن تم تركيب أجهزة التواصل اللاسلكي على رؤوسهم جميعًا، وإلى القرب من المنزل، ترجلت الوحدة التي كانت ترتدي السواد مدججة بالسلاح والمناظير الليلية المثبتة على خوذهم المضادة للرصاص، لحظتها كان الاتصال الأخير مع باراك:

- سيدي نحن في ميدان العملية، هل هناك أيَّ تغيير في القرار؟

ـ لا، قم بالتنفيذ فورًا.

وقبل أن يتحرك للأمام طلب تقريرًا أخيرًا من فريق الرصد المتمركز في الميدان منذ ساعات الظهر: البيت على حاله منذ اللحظات الأولى للمراقبة، لم نستطع رصد أي حركة في الداخل فهم يغلقون جميع النوافذ جيدًا وقد استخدمنا المجسات السمعية وكل التقنيات المتوفرة، فلم نحصل على أي شئ.

كانت التقنية اللاسلكية التي يضعها عوفر على رأسه تتيح له مخاطبة جميع أفراد وحدته الهجومية تمامًا كما تسمح لباراك بسماع كل شئ:

ـ استعدوا للتحرك دون إحداث أي ضجة، مجموعة الجبل تتبعني ومجموعة السطح تتحرك إلى مكانها بانتظار الإشارة.

ساروا منخفضين جدًا يحميهم ظلام الليل وخلو المنطقة من السكان حيث انقسمت القوة إلى مجموعتين: الأولى سارت ملتصقة بالسور الخارجي وفي نقطة معينة صعبة الكشف من داخل المنزل، تجاوزت السور والتصقت بإحدى زوايا البيت بعد أن وضعت سلمًا طويلًا يصل إلى السطح، بينما مجموعة عوفر، كانت تشق طريقها خلف المنزل ناحية الجبل حيث باب المطبخ، وبصوت منخفض لا يسمعه سوى عناصر الهجوم، طلب عوفر التقدم إلى نقطة ما قبل الهجوم،

حيث تسلل مع عناصره إلى الشرفة الملاصقة للجبل وتمركزوا قرب الباب، في الوقت الذي صعدت فيه المجموعة الثانية سطح المنزل بكل هدوء واستقرت قرب الباب الواصل إلى وسط البيت، في هذه الأثناء كان خبير المتفجرات في القوة، يضع عبوة ناسفة على باب المطبخ بانتظار إشارة البدء، حيث طلب عوفر من قائدة المجموعة الثانية ضبط ساعتها على ست ثوانٍ لإنهاء المهمة.

في تلك اللحظات الحساسة، كانت دولة الاحتلال تقف على قدميها بانتظار بدء الهجوم، ورابين يتمنى في نفسه أمنية أن يذهب في غيبوبة دائمة، حينها لن تطارده اللعنة مجددًا.

أشار عوفر بيده لعناصره وعد تنازليًا لقائد مجموعته الثانية حتى انتهى إلى كلمة: تنفيذ.

فانفجرت العبوة الناسفة في الباب، محدثة صوتًا قويًا اهتز له البيت بأسره في الوقت الذي احتمت فيه المجموعة على الجوانب، لكن الباب لم ينفتح! مفاجأة صاعقة، مخزية، جعلت باراك يشتم نفسه وهو يسمع عوفر يوقف مجموعة السطح، فقد كان الباب من الحديد القوي جدًا، لكن القوة لم تفقد عنصر المفاجأة بالكامل وهي لا زالت تملك السرعة التي لا يتمتع بها الهواة في المنزل ولم يتدربوا في الكليات العسكرية، حيث عاود خبير المتفجرات تفخيخ الباب في غضون ثوانٍ قليلة لينفجر الباب هذه المرة ويحدث الاقتحام من السطح والمطبخ، حيث اندفع عوفر يتبعه جنوده، تسبقهم أشعة الليزر المثبتة على فوهات بنادقهم الرشاشة، وهم يصرخون بحماسة كبيرة وجميعهم يعرف زاويته التي يجب أن يغطيها،

فتجاوزوا المطبخ الذي كان خاليًا إلا من بقايا الطعام، ودخلوا الصالة باندفاع شرس لا يُقاس زمنيًا، وعوفر يشق طريقه نحو غرفة نحشون ليحصل عليه قبل كل شي، هكذا طلب منه رابين الذي هاتفه أثناء الاستعدادات للعملية: أحضر الجندي حيًا ولك ما تريد، فقط حقق هذا الهدف. فأصر عوفر على دخول الغرفة أولًا يصحبه كل الزهو والغرور، ولكن!! توقفت أنفاسه للحظات أيضًا لا تُقاس زمنيًا، وعقله ينتظر إشارة عينيه لتحليل ما يرى، لكن عينيه عجزتا عن فعل ذلك، لأنها اصطدمتا برصاص يتطلع من فوهة بندقية أطلت برأسها من زاوية محمية في الممر الواصل للغرف، فتفجرت بهما الدماء، وسقطتا مع صاحبهما عوفر على الأرض، وصوت عبد الله أكبر يصاحب رصاص عبد الكريم الذي استمر بإطلاق الرصاص على بقية القوة محولًا رشاشه باتجاه مجموعة السطح التي أصيب منها بعض المقاتلين، مستغلًا مكانه بصورة ممتازة، الأمر الذي أربك قوة الاقتحام التي بدأت بإطلاق الرصاص عشوائيًا لتغطية انسحابها، حيث اضطر عبد الكريم للاحتماء قليلًا مما أتاح لهم إخلاء المصابين وسحب جثة قائدهم الذي مات على الفور، كل ذلك يجري وسط صدمة كسرت أسطورة المتكال والألقاب الخرافية، والرعب الذي اصطنعوه ليصاحب ذكرها.

يصرخ المصابون، يبكون مفاجأة الهواة، لم تحمهم سمعتهم العنيفة ولا وقوف القادة من خلفهم، يحطم عنجهيتهم طالب جامعي يحمل بندقية.

هدأ البيت قليلًا، هي بضع دقائق قبل تجدد الحكاية، وصلاح وحسن يتحصنان في الغرفة وكبرياء العدو تحت أقدامهما يندب حظ دولته العاثر والذي أمكنه اشتمامه مع رائحة الدماء التي سالت بسبب حماقة قادته، حيث صرخ حسن وهو يقبض على بندقيته ويضع قدمه على صدر الجندي:

- عبد الكريم! يا عبد الكريم.

ابتسم عبد الكريم قبل أن يرد على طريقته:

- كبِّر يا حسن أنت وصلاح، لقد بررتُ بقسمي والله، ولم أخلكما وهاكم دماء القتلة أمام عيني.

فتعالت تكبيراتهما مع الدموع، وهما يشهدان ملحمة القدس، وقد برَّ عبد الكريم بقسمه عندما جلسوا جميعًا يضعون خطة التصدي للهجوم، وثلاثتهم يريد خط الدفاع الأول حتى استسلما لإصرار عبد الكريم الذي أقسم لهما إن منحاه هذه المكرمة العظيمة ليمنعن الوصول إليهما حتى ولو بجسده.

نادى عبد الكريم على حسن وهو يصوب بندقيته نحو المطبخ تارة وناحية السطح تارة أخرى: - حسن! أخبر الجندي أن رئيس وزرائه قد حكم عليه بالموت.

- يا رجل، لم أكن أعلم أن حياة جنديهم رخيصة إلى هذه الدرجة!

- إلى جهنم وجنودهم القتلة.

ثم تحدث صلاح الذي كان يتخذ موقعًا قتاليًا إلى جانب حسن:

- ماذا ترى يا عبد الكريم؟! أخبرنا عن المشهد من عندك.

- يا صلاح، سأخبرك عندما نلتقي الجنة إن شاء الله، فأنا أشعر بأقدامهم تقترب.

أما خارج المنزل فكان انعكاس الفاجعة التي حدثت في الداخل، حيث تحركت سيارات الإسعاف العسكرية تنقل الجرحى وقد انكشف ميدان العملية، وباراك يصرخ على نائب عوفر الذي استلم قيادة العملية:

- ما الذي حدث؟! كيف انسحبتم دون الحصول على الجندي؟!

- لقد وقعنا في كمين يا سيدي، كانوا يعرفون بمقدمنا وجميع المعلومات التي أدلى بها المخرب الثاني كاذبة، فنحشون ليس في الغرفة التي قال عنها و...

- أصمت، وعاود الهجوم مرة ثانية واستخدم كل الوسائل لإنهاء العملية بأخف الأضرار هيّا.

وما هي إلا لحظات حتى بدأ الهجوم بقوة نيران مدروسة لإرباك عبد الكريم وعدم فتح المجال له للتصدي لهم، حيث وصلوا بسرعة إلى الصالة وركزوا الضرب على الممر الذي يتحصن فيه.

حيث لم يستطع المقاومة كثيرًا سوى بعض الرصاصات التي شهدت على بسالته واستماتته في الدفاع عن موقعه وإصراره على عدم إدارة ظهره، حتى بدأ الرصاص يخترق جسده وهو ثابت في مكانه يتحين الفرصة لإطلاق الرصاص، لكن غزارة النيران التي حاصرته أقعدت جسده عن الحركة ولا زال لسانه يردد التكبير ويده تقبض على البندقية بكل قوة، حتى أغاظ عناده القوة المقتحمة فأفرغوا رشاشاتهم بجسده الطاهر وهو يودع القدس والبندقية لا زالت تلتصق بجسده.

لحظتها ألقوا جميعًا نظرة على هذا الهاوي الذي أوقف هجوم المحترفين وقد ارتسمت على محياه ابتسامة تهزأ بهم، تقرأ عليهم خطاب استسلامهم المعنوي أمام إرادة دمه وعزيمة روحه الحية في سماء القدس.

تقدمت القوة إلى القرب من باب الغرفة الذي كان مغلقًا وتوزعت بحذر شديد، ثم بدأت المفاوضات:

- نحن نعلم أنكما في الداخل، فقط نريد أن نعلم، هل الجندي على قيد الحياة؟

هنا، شعر المجاهدان أن العدو يحاول كسب الوقت للسيطرة، فأطلق صلاح صليه من الرصاص عبر الباب الخشبي، فانكفأ الجنود قليلًا، ثم صاح حسن:

- هل وصلك الجواب جيدًا؟!

- هكذا لن نستطيع التفاهم، لماذا لا تستلمان وننهي هذه القضية دون دماء؟!

- اخرس أيها الوضيع، كتائب القسام لا تستسلم.

لكن كلا الطرفين يدرسان خياراتهما المحدودة أثناء العبارات المتبادلة تلك، فصلاح يتقدم إلى زاوية الباب وهو يتبادل الإشارات بعينيه مع حسن، وقائد الوحدة يحاول التقدم مجددًا للسيطرة على الموقف:

- فقط قولا لي ماذا تريدان؟

فأطلق حسن رصاصًا غزيرًا في نقطةٍ محددةٍ وسط الباب وصلاح يمسك قنبلة يدوية ألقاها من داخل الثغرة التي انفتحت، حيث سمعا صوت الجنود وهم يهربون للاحتماء يصرخون: قنبلة، قنبلة. فانفجرت لتحدث ارتجاجًا في المنطقة بأثرها، ثم عاد مفاوضهم:

- يا حسن، يا صلاح لماذا..

وأثناء حديثه سمع صوت طلقتين داخل الغرفة، فصرخ بصورة هستيرية:

- يا حسن النتشة، يا صلاح جاد الله ماذا فعلتما؟!

وقبل أن يجيبا عليه، كانت ثانية هي الأجمل بينهما عندما تعانقا بسرعة يبتسمان لقدرهما الذي انتظروه طويلًا، يقول حسن:

- مَن يستشهد أولًا، يسلّم على عبد الكريم وإسلام وراغب وطارق والإمام البنا.

فيبتسم له صلاح:

- وأبو بكر وعثمان وعلي والشيخ القسّام.

ثم يرددان معًا كلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نقاتل حتى نلقى الله.

ثم صاح حسن:

- أيها الصهيوني اللعين...

- نعم، نعم أسمعك

- إذا كنت وأزلامك رجالًا تعالوا لأخذ جنديكم لقد قتلناه.

حينها كان جندي قد تسلل إلى جانب الباب مباشرة ينتظر الإشارة من القائد، ولما استقر الأمر على إنهاء العملية عند هذه النقطة، ألقى الجندي قنبلته الشديدة داخل الغرفة واحتمى جانبًا، يتحول المشهد إلى سواد ويدب حريق في الغرفة التي تحولت إلى أشلاء، وعلى الفور اقتحم القائد الغرفة يتبعه جنوده، بحثًا عن بقايا أنفاس في صدر نحشون فاكسمان الذي حكمت عليه دولته بالإعدام، لكن شيئًا لم يحدث؛ لأن عصر النهايات الجميلة وفق قاموس الصهاينة لم يعد متاحًا في زمن المقاومين هذا.

لكن أنفاسًا أخرى كانت تنتظرهم في الداخل وقد أبت أن يكتب الغزاة السطر الأخير، حيث أطلق أحد المجاهدين النار بيده المحروق فأصاب قائد الوحدة وبعض جنوده بجراح خطرة ثم غادر تشيعه آلاف الرصاصات التي اخترقت جسده المحروق.

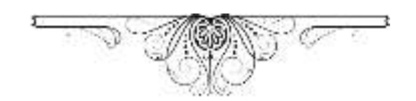
رفع باراك سماعة الهاتف:

- سيدي رئيس الوزراء لقد فشلت العملية، وتكبدنا خسارةً فادحة، قُتل قائد وحدة هيئة الأركان المهاجمة وأُصيب أحد عشر ضابطًا بجروح مختلفة، وقُتل الجندي نحشون فاكسمان.

تمت بحمد الله

* * * *

تعقيب المؤلف



لقد بحثت طويلًا طيلة تأليفي لهذه الرواية، عن حدث أفتتح به تعقيبي فاحترت في عدة أمور تستحق جميعها الذكر، حتى جاءت حادثة الاقتحام للزنزانة الكبيرة التي أعيش مع سبعة من أهل القبور أثناء كتابتي للجزء الأخير من الرواية، حيث اجتاحتنا جحافل الروس والأثيوبيين والأوروبيين وغيرهم من شذاذ الآفاق، فأمرني أحدهم بعدم الحركة ووضع ما بيدي على البُرش، لحظتها انتابني خوف شديد على الكلمات لكنني سرعان ما اكتشفت أنها اليوم في إجازة عن التفتيش والمصادرة، هكذا ظننت، لأنهم جاؤوا للبحث عن أطفالنا وأمهاتنا وزوجاتنا -عفوًا- عن الهواتف الخلوية، حيث استمر التفتيش خمس ساعات متواصلة أثمر عن إلقاء القبض على هاتف خلوي صغير، أين؟! في بُرش «**أبو عمر**» -جهاد يغمور أحد أبطال الرواية الأمر الذي أدى إلى أسره داخل الأسر والحكم عليه بواحد وعشرين يومًا في الزنزانة الانفرادية، ولمّا عدت إلى أوراقي وجدتها مفقودة، فقد طالتها يد الاجتياح ولم يتبق لي منها سوى ما كنت أكتبه لحظة الهجوم، فاعتمدت فيما بعد على الذاكرة في كتابة بقية الرواية، ولما انتهيت حاولت تحرير الجزء الأخير من الأسر، ألقي القبض عليه، فعدت مجددًا وكتبته بإصرار وعزيمة أن يكون أفضل من السابق، وها أنا أخط التعقيب ولست أدري هل سأنجح أم لا؟

هذه الرواية التي أسميتها «**هكذا أسرنا نحشون فاكسمان**»، هي الرابعة من حيث الترتيب بعد الأولى «**عندما يزهر البرتقال**» والمنشورة في دمشق بدار فلسطين للنشر والآداب والتي كانت بداية الطريق عام **2007** عندما كنت في عزل السبع الجماعي، أما الثانية فاسمها «**ثورة عيبال**» والتي لا زالت حبيسة الأسر في سجنيّ نفحه وهدريم ولا أستطيع تحرير أي من النسختين وقد سجلت فيها أحداث الانتفاضة الأولى عام **1987** وتحديدًا في مدينتي المقاومة نابلس، والثالثة فأسميتها «**أنجليكا**» على اسم الفتاة اليهودية التي ساعدت أحد أبطال انتفاضة الأقصى- الأسير زيد الكيلاني والمحكوم بالسجن المؤبد، حيث تقضي حكمًا بالسجن ثمانية عشر عامًا منذ عام **2001**، وهذه الرواية التي أحبها قد تحررت بحمد الله، لكنني ورغم أهميتها في أدب المقاومة أو إن شاء البعض أدب السجون، إلا أنني أرى روايتي الرابعة شاقة طريقها إلى الطباعة، لأنها تأتي في طرف حساس تتعثر فيه مفاوضات التبادل بين المقاومة الفلسطينية ودولة الاحتلال على الجندي الأسير جلعاد شاليط، حيث تتشابه مفردات التفاعل مع هذه القضية وقضية نحشون فاكسمان مع اختلاف الظرف والإمكانيات.

- أما كيف كتبت الرواية؟! فالمسألة تراودني منذ لحظة دخولي الأسر الراهن قبل أربعة عشر عامًا، فقد كتبتها قصة صحفية وأنا في سجن هدريم عندما كنت أحرر مجلة أحرار الشهرية، حتى لقائي الأخير في هذا السجن مع الأخ جهاد الذي رحب بالفكرة وزودني بما أريد من تفاصيل أضفتها إلى متابعاتي الحثيثة للتقارير المفصلة في الإعلام الصهيوني الذي كشف قبل عام عن شهادات وحدة هيئة الأركان أثناء عملية الاقتحام إضافة إلى شهادة مسئول الشاباك آنذاك، والكثير من التقارير الصادرة عن المحاكم وتقرير التشريح لجثة الجندي، إضافة إلى شهادة مبعوث رابين لفتح مفاوضات مع رئيس السلطة الفلسطينية بشأن فرضية التبادل والتي نشرت قبل موته عام **2004**، وبالطبع شهادات بعض الذين اعتقلوا من عناصر حماس وكتائب القسام في قطاع غزة زمن العملية.

- وقد يسأل المهتم، أين فرسان الرواية ممن لم يلقوا الله شهداء وماذا جرى معهم؟!.

- زكريا نجيب- **24** عامًا وهو الآن في منتصف الخمسين.

- زياد نجيب- صاحب البيت **12** عامًا وتحرر من الأسر.

- عصام قضماني- حكم بالمؤبد ويعيش مشلولًا.

- أيمن أبو خليل- حكم بالمؤبد.

- نائل البرغوثي- دخل عامه **34** في الأسر وتوفي والداه- الحاجة فرحة والحاج أبو عمر قبل عدة سنوات.

- أبو شادي- دخل عامه **34** في الأسر، يعيش معه ابنه في ذات الزنزانة، وقد أصبح جدًا منذ زمن.

- فؤاد الرازم- دخل عامه **32** في الأسر.

- استشهد الحاج محمد أبو هدوان في مستشفى سجن الرملة عام **2005** وقد تحرر أخيرًا من الأسر ولو في كيس أسود.

- تم اغتيال الشيخ صلاح شحادة مطلع انتفاضة الأقصى بصاروخ يزن طن من المتفجرات أطلقته طائرة إسرائيلية عليه وهو بين زوجته وأطفاله.

- تم إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين أواخر عام **1997** على إثر محاولة اغتيال الأستاذ خالد مشعل وإلقاء القبض على اثنين من الموساد حيث قام النظام الأردني بعقد صفقة أُطلق فيها سراح الشيخ، ليغتاله الاحتلال بصاروخ عام **2003**.

- وبعد: كثير هم من يستحقون الإهداء، وأولهم أبطال عملية الوهم المتبدد التي أُسر فيها الجندي شاليط، والوفد الذي يفاوض من أجل حريتنا، ثم شهداء مرمره وهذا الرجل الذي يفرض احترامه وحبه -أردوغان- والكثير الكثير من الوالدين رحمهما الله وشقيقي الشهيد بشار وزوجتي وابنتيّ بشائر وبيسان وتحديدًا بشائر التي تشجعني كثيرًا وتقرأ كل ما أكتب- ولكن!! الإهداء ما رأيتموه في البداية.

- وقبل أن أستودعكم الله اقرؤوا جيدًا هذه المعلومة:

« **أفاد تقرير التشريح الجنائي لمعهد أبو كبير الطبي أن الجندي نحشون فاكسمان تناول «الكنافة» قبل موته بقليل»**.

عمار الزين

11 رمضان **2001**

سجن شطه- سهل عين جالوت

فلسطين المحتلة

*   *   *   *